@ketab_n
Follow Me
26.3.2017

سالمة بنت سعيد
(أميلي رويته)

# رسائل إلى الوطن

## الجزء الثاني
## من مذكرات أميرة عربية

ترجمه عن الألمانية
زاهر الهنائي

منشورات الجمل

# رسائل إلى الوطن

## الجزء الثاني
## من مذكرات أميرة عربية
## لسالمة بنت سعيد أميرة عمان وزنجبار
## ١٨٤٤ ـ ١٩٢٤


أعدها للنشر

هاينتس شنيبن

ترجمه عن الألمانية

زاهر الهنائي



منشورات الجمل



Twitter: @ketab_n

# رسائل إلى الوطن

## الجزء الثاني

## من مذكرات أميرة عربية

## لسالمة بنت سعيد أميرة عمان وزنجبار

Twitter: @ketab_n

**رسائل إلى الوطن: الجزء الثاني من مذكرات أميرة عربية**
**لسالمة بنت سعيد أميرة عمان وزنجبار ١٨٤٤ ـ ١٩٢٤**
أعدها للنشر: **هاينتس شنيبن**، ترجمه عن الألمانية: **زاهر الهنائي**

**Emily Reute: Briefe nach der Heimat.**
Herausgegeben von Heinz Schneppen, 1999

الطبعة الأولى ٢٠١٦
كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٦
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

*© Al-Kamel Verlag 2016*
Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Twitter: @ketab_n

# الإهداء

إلى الثلاثي الجميل في حياتي

رجاء

زهور بدور

محبكم

زاهر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# مقدمة المترجم

رسائل إلى الوطن عبارة عن تكملة لمذكرات الأميرة سالمة (١٨٤٤-١٩٢٤) بنت السيّد سعيد بن سلطان البوسعيدي، سلطان مسقط وزنجبار، ومذكرات سالمة المعروفة التي ذاع صيتها في الشرق والغرب، بعد ما نشرتها لأول مرة في برلين عام ١٨٨٦[١]، نالت بها شهرة واسعة، وتلقاها الأوروبيون بشغف كبير حيث تمت إعادة طباعتها في سنة صدورها أربع مرات، نظرًا لأهمية ما تناولته المذكرات من الحديث عن الشرق، ولا سيما عن نساء الشرق التي كان ينسج لها الخيال الأوروبي تلك الصورة النمطية من حكايات ألف ليلة وليلة. وتضاف للمذكرات قيمة أخرى وهي أنها من أوائل المحاولات في كتابة سيرة ذاتية للمرأة العربية - يشار هنا إلى أن مذكرات «أميرة بابلية» لماري تيريز أسمر التي نشرت باللغة الإنجليزية

---

(١) يذكر الباحث الهولندي E. Van Donzel في مقال نشره في مجلة العالم الإسلامي «Die Welt des Islams»، العدد ٢٧، سنة ١٩٨٧، بعنوان «السيدة سالمة، رودولف سعيد رويته، والسياسة الاستعمارية الألمانية»، بأن الطبعة الأولى من المذكرات ظهرت في لايبزج سنة ١٨٨٥ تحت عنوان «مذكرات أميرة عربية»، ثم تبعتها بوقت قصير الطبعة الإنجليزية والفرنسية. وكانت الطبعة الثالثة قد ظهرت في برلين عام ١٨٨٦.



Twitter: @ketab_n

عام ١٨٤٤ تعدّ حتى الآن أول محاولة في هذا الباب - نُقلت مذكرات أميرة عربية إلى لغات أخرى قبل أن تصل إلى القارئ العربي عبر الترجمة الأولى لعبد المجيد القيسي ١٩٧٤ التي لم تكن ترجمة مباشرة عن اللغة الأصلية للمذكرات، وتبعتها الترجمة اللاحقة لسالمة صالح عن الألمانية ٢٠٠٢. اقتصرت مذكرات الأميرة على سرد حياتها في زنجبار مع تهميش واضح لتفاصيل حياتها في العالم الآخر، وأعني بذلك حياتها في ألمانيا على وجه الخصوص، وإلا فإن سالمة قد عاشت في بيروت وكذلك في يافا، بعدما ضاقت بها السبل في ألمانيا وعجزت بعد محاولاتها للرجوع إلى الوطن، حيث كانت المحاولة الأولى في العودة إلى زنجبار عام ١٨٨٥ برفقة أولادها الثلاثة، وتبعتها المحاولة الثانية عام ١٨٨٨ بصحبة ابنتها روزالي، التي كانت المحاولة الأخيرة للرجوع إلى زنجبار، لم ترجع بعد ذلك إلى ألمانيا بل اتجهت إلى يافا وبيروت، بعدما فقدت الثقة في الحكومة الألمانية التي تخلت عن مساندتها، وقد عبرت عن ذلك في رسالة بعثتها من زنجبار بتاريخ ١٥/١١/١٨٨٨: «لم يعد لي وطن على هذه الأرض»، فاستقر بها المقام في بيروت إلى أن رجعت مرة أخرى بعد وقت طويل إلى ألمانيا عام ١٩١٤ قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى لشوقها لرؤية أحفادها الصغار، حيث كانت ابنتاها قد وجدتا لهما مكانا في البيت القيصري، فقد كان زوج ابنتها روزالي بمرتبة لواء، في حين تزوجت ابنتها الكبرى أنطوني يوجين براندیز حاكم جزر المارشال في المحيط الهادي. أما ابنها سعيد فقد تزوج امرأة يهودية كانت ابنة عائلة يهودية معروفة. عاشت سالمة سنوات



Twitter: @ketab_n

حياتها الأخيرة عند ابنتها الصغرى روزالي في مدينة يينا الألمانية، وقامت الحكومة في زنجبار عام ١٩٢٣ بمنحها معاشا سنويا قدره ١٠٠ جنيه إسترليني. وفي ٢٤ من فبراير عام ١٩٢٤ وافتها المنية في بيت ابنتها روزالي في مدينة يينا بحضور أولادها، ونقلت جرّة رفاتها إلى هامبورج لِتُدفن بجانب زوجها في مقبرة العائلة بحديقة أولسدورف في هامبورج، وجد أولادها كيسًا من الرمال في تركتها، أحضرته معها في أثناء رحلتها الأخيرة إلى زنجبار، وتم وضعه في جرّة رفاتها، وكتب على شاهد قبرها عبارة من قصيدة للشاعر والأديب الألماني تيودور فوناته: «مخلص من أعماق قلبه من يحب وطنه مثلك»[١].

أخفت سالمة عالمها الآخر في ألمانيا عن قرائها، واقتصرت على حياتها الوردية في زنجبار! فقد نشرت مذكراتها بعد حوالي عشرين سنة من وصولها إلى ألمانيا، أي أنها أغفلت عشرين سنة من تفاصيل حياتها واكتفت بسرد السنوات العشرين الأولى منها فقط (١٨٤٤-١٨٦٦). ولكن ظل هذا لغزا إلى أن وجد أولادها الثلاثة في تركتها بعد وفاتها المفاجأة الكبيرة، وهي ما عُرفت لاحقًا بتركة سالمة الأدبية، وجد أبناؤها في تركتها ثلاثة نصوص أخرى غير المذكرات! يتضمن النص الأول مذكرات لحياتها في ألمانيا، وتحديدًا من انطلاق رحلتها من عدن باتجاه ألمانيا وحتى تقريبًا منتصف ثمانينيات القرن ١٩، أما النصان الآخران فهما نصان قصيران يتضمن أحدهما تكملة

---

(١) رسائل إلى الوطن Briefe nach der Heimat، الخاتمة، ص ١٨٩، ١٩٠.



Twitter: @ketab_n

لمذكراتها والآخر عن عادات وتقاليد سورية. تأخّر نشر هذه الوثائق المهمة لأسباب أرجعها ناشر الرسائل لأول مرة بلغتها الأصلية (١٩٩٩، عن دار Philo الألمانية) السفير الألماني السابق في تنزانيا هاينتس شنيبن إلى الخلاف الذي وقع بين أبنائها في موضوع النشر. إذ كان موقف ابنها سعيد إيجابيًا ولكن أبدت ابنتاها بعض التحفظات، وكانت حجتهما أن الرسائل تظهر أن أمهم قد تعرضت لظروف صعبة وقاسية جدًّا ومن باب إنساني ينبغي عدم إظهار ذلك للعلن احترامًا للخصوصية، أو على الأقل يجب تهذيب الرسائل قبل النشر وحذف ما يلزم.. وفي ١٩٢٩/٩/١٢ قام سعيد بتسليم التركة الأدبية لأمه إلى صديق والدته المستشرق الهولندي في جامعة لايدن البروفيسور سنوك هُرْخرونيه مع ملاحظة كتابية نصها: «يُمنع نشر «رسائل إلى الوطن» من دون إذن قبل ١ يناير ١٩٤٠»! ظلت الرسائل بعيدة عن النشر إلى أن قام الباحث الهولندي E. van Donzel بنشر أعمال سالمة مترجمة إلى الإنجليزية ومن ضمنها الرسائل، مع مقدمة مهمة سنة ١٩٩٣. بعدها قام السفير الألماني السابق في تنزانيا هاينتس شنيبن بنشر الرسائل مستقلة بلغتها الأصلية واعتمادا على المخطوط الأصلي للرسائل الذي يعود تقريبًا إلى منتصف العشرينيات من القرن الماضي. نشر هاينتس الكتاب عن دار Philo الألمانية عام ١٩٩٩ مع خاتمة مهمة ناقش فيها جوانب مهمة من حياة الأميرة ونوّه بقيمة الرسائل باعتبارها وثيقة لحياة سالمة والفترة التي عاشت فيها، كما أشار فيها أيضًا إلى المراجع والمصادر التي استفاد منها في عمله المهم. وأشار كذلك إلى أنه اعتمد في نشره للرسائل على مخطوطة التركة الأدبية



Twitter: @ketab_n

لسالمة، كما أضاف إلى النص علامات الترقيم الحديثة، وقام بإصلاح بعض الأخطاء النحوية في النص الأصلي وأضاف بعض الكلمات للإعانة على الفهم، كما حاول إكمال أحرف الأسماء التي كانت صاحبة الرسائل تقتصر على الحرف الأول منها، قدر الإمكان، كما أضاف عناوين الفصول البينية، لأن الرسائل في أصلها كتبت نصًا واحدًا دون فصل.. لقد قمت بنشر مقال في مجلة نزوى في عددها ٨٢، توسعت فيه بالحديث عن هذا الجانب وتفاصيل أخرى كثيرة عن الأميرة سالمة تنشر لأول مرة.

تتناول الرسائل تفاصيل حياة سالمة منذ لحظة انطلاق رحلتها من عدن إلى ألمانيا عبر البحر الأحمر حتى منتصف الثمانينيات تقريبًا واستقرارها في العاصمة الألمانية برلين. وقد وجّهت سالمة رسائلها إلى إحدى صديقاتها في زنجبار، وربما تكون شخصية وهمية على الأرجح، ولم يكن النص على الشكل المعهود للرسائل فقد خلا من ذكر اسم المرسل إليه والعنوان.. وكان سردا متدفقا بلا انقطاع. أظهرت الرسائل المعاناة الصعبة والواقع الأليم للأميرة من خلال ثلاثة مشاهد رئيسية، المشهد الأول ما قبل الفاجعة، والمشهد المركزي الفاجعة، والمشهد الأخير ما بعد الفاجعة، وقد خيم على جميع المشاهد بلا استثناء، مع تفاوت بالطبع، جو الحزن والألم ومرارة الغربة والحنين إلى الوطن والاغتراب الروحي..

كان أول عثوري على خيط الكتاب الآخر لسالمة «رسائل إلى الوطن، Briefe nach der Heimat» سنة ٢٠١٤ عند تصفحي لصفحة



Twitter: @ketab_n

سالمة Emily Ruete في الموسوعة الحرة على الإنترنت بالنسخة الألمانية (https://de.wikipedia.org/wiki/Emily_Ruete)، عندما طلبت مني زوجتي البحث باللغة الألمانية عن سالمة للحصول على معلومات قد تكون جديدة وموسعة عنها لغرض اهتمامها بشخصية سالمة في ذلك الوقت، وكان هذا من محاسن الصدف.. بدأ بعد ذلك البحث عن الكتاب والتفكير في مشروع ترجمته نظرًا لأهميته وقيمته، وها هو اليوم، ولله الحمد، بين أيدي القراء بنسخته العربية ولأول مرة..

كان منهجي في الترجمة الاجتهاد في متابعة النص الأصلي الذي نشره السفير الألماني هاينتس شنيبن، والحفاظ على تفاصيله كما هي، ليصل إلى القارئ عبر الترجمة نصًا مقروءًا وموثوقًا فيه. وحاولت أن أصوغ النص بقالب أدبي قدر الإمكان مع المحافظة الدقيقة على المضمون، مبتعدا عن الترجمة الحرفية التي تسبب الركاكة ولا تحترم خصوصية اللغة المترجم إليها. كما استعنت على الترجمة بوسائل شتى ومن بينها المعجمات الموثوقة والمعتمدة كمعاجم دودن الألمانية المتعددة والمعجم الألماني العربي لجوتس شراجله، كما عرضت بعض النصوص على أصدقاء ألمان، نظرًا لإشكالية النص القديم الذي يعود ربما إلى ما يقرب من مائة سنة أو يزيد ويحكي تفاصيل أحداث قبل ما يربو على مائة وثلاثين عاما، ومن شأن اللغات الأوروبية، كما هو معلوم، التغير السريع على مستوى الألفاظ والتراكيب. وكانت جامعة لايبزج الألمانية مسرحا


Twitter: @ketab_n

لعملي المتواصل في مكتباتها المختلفة كمكتبة الألبرتينا العامرة ومكتبة معهد الاستشراق وكذلك مكتبة الحرم الجامعي..

كما أرفقت في الملحق بعض الوثائق والصور للأميرة سالمة، ومن ضمنها ثلاث رسائل بعثتها سالمة إلى صديق العائلة المستشرق الهولندي البروفيسور سنوك هُرْخرونيه عندما كانت في يافا وبيروت، وكذلك رسالة ابنتها الصغرى روزالي عندما كانت في زنجبار عام ١٨٨٥ لمحاولة الرجوع الأولى إلى الوطن، أرسلتها إلى إحدى صديقات أمها لتخبرها بالرحلة بطلب من والدتها، وغيرها من المراسلات، تُنشر هذه الوثائق هنا مترجمة للعربية لأول مرة، كما يحوي الملحق أيضًا بعض الوثائق الأخرى كخبر نعي سالمة في جريدة المقطّم المصرية، ووثيقة تعميدها في عدن وشهادة المواطنة الألمانية وغير ذلك من الصور الفوتوغرافية المتعلقة بالأميرة.

رجوتُ بهذا العمل أن يكون مشاركة في الدعوة إلى الحوار بين الشرق والغرب، ومحاولة لفهم الآخر وتعزيز مبدأ التسامح الإنساني، فالرسائل هي صورة للألمان حاولت تجسيدها سالمة من منظورها الشرقي. ونحن أحوج ما يكون اليوم في هذا العالم، الذي أصبح كالقرية الصغيرة بهذه السرعة الزمنية، مما أدى إلى تداخل متأزم في كثير من المعتقدات والتصورات بين جموع البشرية بعد العزلة والانطواء على الذات، إلى أن نستمع إلى الآخر ونحترم ما لديه من آراء ووجهات نظر، وإلى أن يصغي الشرق إلى الغرب ويصغي الغرب إلى الشرق أيضًا، من أجل أن تعيش البشرية في سلام وتنعم بالرخاء والأمان..



Twitter: @ketab_n

لا يفوتني هنا أن أقدم جزيل شكري وعميق تقديري للغالية أم زهور رفيقة الدرب، إذ وقفت بجانبي وضحّت بوقتها وجهدها ليرى هذا العمل النور، وقامت بكتابة العمل في صيغته الرقمية. كما أشكر جميع الأصدقاء الأعزاء على ما قدموه من مساعدة في سبيل نشر هذه الترجمة، ولا يفوتني في هذا المقام أن أتقدم بوافر الشكر لصديقي العزيز سلطان الفارسي وزوجته الكريمة أم طارق على دعمهما المستمر لي، وخالص شكري أيضًا لصديقيّ الألمانيين ألكسندر كوكيز وجوناثان شميد.

**زاهر الهنائي**

**مدينة لايبزج، ألمانيا**

الجمعة، ٢٣ رمضان ١٤٣٦هـ.

١٠ يوليو ٢٠١٥م



Twitter: @ketab_n

# رسائل إلى الوطن

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# مقدمة

طلبتِ مني مرارًا أيّتها الصديقة العزيزة أن أروي لك تفاصيل حياتي في الشمال. وإذا كان ما يرضيك لم يتحقق حتى الآن فذلك بسبب خوفي من إعادة الذكريات بتفاصيلها في نفسي مرة أخرى، كما أنني لست متأكدة من تلبية رغبتك على وجه العموم، ولكن قبل كل شيء الوصول إلى رضاك؛ فالحياة في الشمال والعادات والتقاليد وتصورات الناس تختلف عنا تمام الاختلاف، ما يجعلني أخشى أنك ستعتبرين بعض الأشياء مبالغا فيها أو ربما ستبدو لك غير معقولة.

هل كان الوضع مختلفًا معي عندما ألقي جسدي أول الأمر في هذا الوسط؟ احتجت إلى سنين لأُفيق من هول صدمة ما كان يحيط بي وما كنت أسمعه وأراه بمرور الوقت؛ فاختراعات الناس هنا عموما مذهلة جدًا، وهي على أي حال تُظهِر تفوّقهم العقلي. ولكنّ فيها، حسب مفهومنا، بعض الشيء من الجدية المبالغ فيها، إذ ليس من السهل علينا استيعاب ذلك من منطلق تصوراتنا. وهم إزاء الأجنبي مهذبون عموما؛ إذ يتمتع المختلف عنهم دائمًا باهتمامهم ومشاركتهم، ولكن في مقابل ذلك يواجه الجديد على هذا المجتمع، أنّى اتجه، طغيان الواقعية حدًا كبيرًا يدفعه قسرًا إلى الانعزال لضعف



Twitter: @ketab_n

الإدراك. إن التمدن المفرط قد جعل الناس على هذه الشاكلة، ولا يمكن تفسير هذا بخلاف ذلك. فمع التمدّن ظهر الوهم، ولدى آخرين برز معه الغرور جنبًا إلى جنب، إن كلا الأمرين حتمًا داء قبيح جدًّا، ويُفَضَّل دائمًا الابتعاد عن مثل هؤلاء الناس قدر الإمكان. يوجد هنا خط سماوي أو منطقة حيث يجب على الضعيف أن ينزل إلى الأرض عندما لا تكون لديه المقاومة الكافية للصدمات الأخلاقية - إن جاز التعبير- غير المعدودة والتي تنتمي إلى الحضارة. لقد راودني مرارًا القليل من الأفكار المعزية بمرور الوقت.

أصاحية أنت فعلا أم نائمة؟

ولكن لماذا نستبق الوقائع؟



Twitter: @ketab_n

# من البحر الأحمر إلى بحر الشمال

كانت رحلتنا عبر البحر الأحمر (يونيو ١٨٦٧) في أجواء حارّة لا توصف، فلا يمكن لأحد أن يجرؤ على الجلوس تحت مظلات الشمس، إذ كان على جميع الركاب الاحتماء من وهج الحرارة داخل القاعة حتى تميل الشمس أكثر إلى الغرب. وكان الأكل مع كثير من الرجال والنساء الذين لا أعرفهم أبدًا غير مريح لي، وكنت أفرح دائمًا عندما يصل هذا التجمع إلى نهايته، وكان مزعجًا لي على وجه الخصوص أني كنت أظن أن في كل طبق شيئًا من لحم الخنزير أو شحمه، حتى بلغ بي الأمر أن أمتنع عن كل شيء تشك فيه حواسّي أنه غير خال من لحم الخنزير، ولأجل ذلك كنت أقتات في البداية غالبا على البسكويت والبيض المسلوق والشاي والفواكه. وكانت عقدة الخجل تمنعني من البوح لزوجي عن توجسي من هذه الحيوانات النّجسة التي هي محرمة لدينا تحريما قاطعا؛ فلدى المسيحيين كل شيء حلال، وكلمتا حلال وحرام غير معروفتين في الأكل؛ ولذلك كنت أتعلل غالبا بفقدان الشهية، وكنت آمل أن تأتي الأيام القادمة بمعجزة.. ولو كان هناك ما يبدو انتهاكًا شديدًا لحرمة اختلاطي آنذاك بعالم الرجال لكان ذلك في هذه الليالي التي قضيتها هنا على متن السفينة، فمنذ عدة ليال ينام الركاب في الدرجة الأولى،



Twitter: @ketab_n

الرجال والنساء كلهم جميعًا، في فرشهم في القاعة، إن هذا النوع الجديد من الحرّية لم يكن يَرُوق لي كثيرًا، ولكن يُفعل هذا من باب التمدن، وعندما أخبرت زوجي أني أفضل النوم في الكابينة الحارة حدّ الاختناق بدل المكان الذي اقترحه عليّ هناك في الأعلى داخل القاعة، ذكر ذلك لسيدة لطيفة جدًّا من جزيرة موريس (Mauritius) وهي فرنسية المولد، فلم يهدأ لها بال مطلقًا حتى أخذت مني وعدًا صعبًا أن أنام في الأعلى مع بقية الركاب، وتقديرًا لتنازلي وعدتني أن تنام بجانبي دائمًا. أما الشيء الأجمل فقد كان المنظر في الصباح التالي عند الاستيقاظ؛ إذ الرجال جميعهم بقمصان النوم والسراويل البيضاء الرقيقة، ولا شيء آخر، والنساء جميعهن بقمصان النوم الإنجليزية الطويلة وتنورة تحتية رقيقة بيضاء، وجميعهن من دون جوارب طبعًا. كان القليل من الناس من لديه بطانية صوف للالتحاف، ومن يستيقظ من النائمين يسارع فورًا إلى ترك فراشه حتى لا يراه أحد بملابسه المؤقتة.

كانت المدينة الأوروبية الأولى التي وطئتها قدمي لأول مرة في حياتي هي مارسيليا، وعلى الرغم من أن وصولنا كان في شهر يونيو إلا أنني تجمّدت من البرد، حتى إن السيدة اللطيفة والطيبة كثيرًا .C لفّتني بمعطفها؛ إذ لم أكن أملك أي شيء يدفئني، وكانت سترتي تتناسب مع أجواء المناطق الاستوائية وليست أجواء الشمال الباردة. وصلنا إلى الجمارك ونحن متجمدون من البرد، فبدأ موظفو الجمارك الكثيرون إجراءاتهم مباشرة وما تزال بنا بعدُ آثار السفر، وسرعان ما بدأ الأمر يبدو غير مريح لزوجي، إذ بدأت إيماءات موظفي الجمارك


Twitter: @ketab_n

وأصواتهم العالية تزداد، وأنا أنظر إلى المشهد من زاويتي، تسللت لأستعلم من زوجي سبب هذا التغير في الحديث؛ إذ لم أفهم أي كلمة من كل ما يقال، فاتضح لي الأمر؛ أنه عند فتح حقائب سفرنا ظهرت قطع المجوهرات العربية التي أراد موظفو الجمارك أخذ رسوم عليها؛ فقد ظنوا أن الأشياء سلع تجارية استُقدِمت للبيع. ولكن زوجي أوضح لهم أن كل هذه الأشياء هي لي وليست سلعًا تجارية، فنشأ هذا الجدال حول هذا الأمر، فالموظفون المحترمون، مثلما بدا، لم يتمكنوا من الاستحواذ على المجوهرات الثمينة لامرأة شرقية إلى حدّ الآن، وكما قلت، عندما أكّد زوجي أن كل الأشياء ملك لي لم يصدقوه، الأمر الذي أفقده صبره فذكر لهم في النهاية اسم ميلادي، فإذا بهم ينحنون بشكل لافت لرؤيتي، إذ لم يسعهم إلا أن يحدقوا بي تحديق فضول ودهشة.. يكفي أنني في نهاية الأمر حصلت على أشيائي مرة أخرى دون أخذ جمرك عليها، وبعد ذلك أمكننا أن نواصل طريقنا إلى أحد الفنادق، وما إن وصلنا إلى الفندق حتى أخذني النوم من شدة البرد الذي أصابني. عزمنا بالطبع في اليوم التالي مباشرة على زيارة مدام .M وابنة أخيها، واللتين قد تعرّفتِ عليهما أيضًا في زنجبار قبل وقت ليس بالطويل وأحببتِهما. تتحدث المرأتان السواحلية جيدًا، والرجل العجوز معهما .M يتحدث العربية جيدًا. وكان ذلك متعة حقيقية لي حتى وإن كنا قد تذاكرنا كثيرًا شيئًا من الماضي. كانوا يسكنون في مارسيليا آنذاك في فيلا جميلة جدًّا بها حديقة واسعة، حيث استقبلونا فيها بحفاوة كبيرة، وفي الطريق إليهم شاهدت بيتا كبيرًا لفت انتباهي كثيرًا، استفسرت عنه لاحقًا؛ فأخبرت



Twitter: @ketab_n

أنه دار للأيتام يُرعى ويُربّى فيها الأطفال الصغار الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم إلى أن يستطيعوا لاحقًا العمل ورعاية أنفسهم، أثّر فيّ هذا الأمر كثيرًا، ووجدت مثل هذا الشيء إنسانيًا وجديرًا بالثناء كثيرًا.. مكثنا في مرسيليا الجميلة حوالي ثمانية أيام، وكان التفكير بالتوجه إلى شمال ألمانيا يصيبني من يوم إلى آخر بقلق لا يوصف، لم تكن الظروف المناخية، وإن كانت أيضًا مختلفة بشكل لا نظير له عن أجوائنا، ما يملأني بهذا المخاوف الغامضة، لا، وإنما هو المجهول! هنا في مرسيليا وجدت على الأقل أسرة .M الطيبة كثيرًا والتي كانت تتحدث لغتي وتحب وطني. وقد كان الزوجان .M إسبانيا المولد، لنا بمنزلة الوالدين الحنونين على أطفالهما. آه كم شعرت بالاطمئنان معهما! واعتراني حزن عميق لفراقهما. هذا الشعور نفسه أيضًا قد تملّك أصدقاءنا الطيبين، فعندما أردنا السفر تلقيت منهم رسالة، اعترفوا فيها بضعفهم وعدم احتمالهم ليودعوني شخصيًا. الأخيار! وقبل مغادرتنا مارسيليا طلب زوجي من مدام .M أن تدبّر لي شيئًا من مستلزمات جهاز العروس يتناسب مع طقس الشمال.

عندما غادرنا الفندق متجهين إلى محطة القطار ساورني قلق غريب رغبت بسببه في الصراخ عاليا؛ إذ بدا لي وكأني لن أرجع بعد الآن إلى الوطن أبدًا، وأنّ كلّ الجسور تنهار من ورائي، وتحوّل صراخ روحي إليكم إلى آلاف الأصوات من جزيرتي الحبيبة التي تنادي جميعها بصوت واحد: «لا تذهبي أبعدَ من ذلك، عودي»، دخلتُ مع نفسي في صراع رهيب. وبلا شعور ركبت القطار الذي يسوقني حثيثا إلى أرض مجهولة وإلى أناس غرباء عني تمامًا كما لو أني في


Twitter: @ketab_n

عجلة كبيرة للوصول إلى مكاني المستقبلي في أسرع وقت ممكن، وهكذا اتجهنا إلى الشمال.

وصلنا إلى هامبورج بلدة زوجي وقد دنت الشمس من المغيب، وعندما كنا نقطع الشارع المزدحم في عربة الأجرة لفتني زوجي إلى امرأة من المارة كانت تلبس كمًّا قصيرًا وقبعة بيضاء على رأسها، وقد بدت وهي تلبس شيئًا ضخمًا تحت ذراعها كان مغطًى بقماش. «هل رأيت المرأة بيبي؟» إنها خادمة، فالخادمات في هامبورج يلبسن جميعهن تقريبًا زِيًّا واحدًا.. لم أشاهد حتى الآن في أي مكان أناسًا ناصعي البياض وشقرًا مثل ما رأيت هنا. لفتني هذا كثيرًا بالطبع، كما أثارني سعة خطوات الناس هنا والعجلة التي يبدون عليها في الشارع.



Twitter: @ketab_n

# بين الإسلام والمسيحية

تودّين بالطبع أيضًا معرفة كيف كنت أشعر وأفكر بعد مضي هذا الوقت القصير في البلاد الأوروبية، أليس ذلك صحيحًا؟ نعم، فقد سيطر عليّ تمامًا شعور غريب جدًّا، إذ شعرت بقلق دائم، ولم أتمكن من التحرّر من هذا الشعور المزعج ليل نهار إلا مع وجود زوجي بجانبي، إذ بدا لي كل شيء غريبا ومختلفًا تمامًا عن كل ما عرفته وألفته، كان هناك صوت واحد فقط لا يزال يعتلج في روحي وكنت أسمعه باستمرار: «هل تودين قضاء حياتك كلها هنا؟»، لم أكن أستطيع مطلقًا إدراك وفهم أي شيء. كان يمكنني أن أهب حياتي قبل أن أجيب عن هذا السؤال القاسي بـ «نعم» صادقة، وفوق ذلك أني ظاهرًا «مسيحية»؛ فقد كنت في داخلي مسلمة مثلك أيضًا. وبدا لي مزريًا جدًّا أن أفعل شيئًا آخر مخالفًا عما أنا عليه في الحقيقة. أقول لكِ ذلك بكل صراحة، إياكِ أن تغيري دينك دون قناعة حقيقية، «قناعة»؟ نعم، بمن أعتقد وكيف؟ لم يكترث أحد بعد ذلك لإيماني الحقيقي، كان يكفي القسّ، على ما يبدو، بالدرجة الأولى أن يسمع كلمة «نعم» تأكيدًا على ما قاله لي بلغة لم أفهمها إطلاقًا عند التعميد ثم عند عقد الزواج الذي تلاه، ولا شيء أكثر من ذلك. وبهذا



Twitter: @ketab_n

اعتنقت المسيحية والباقي وجب عليّ أن أكمله بنفسي. في ذلك الوقت لم أكن أعلم من المسيحية في الحقيقة أكثر مما تعلمين. ثم أتى ذلك شيئًا فشيئًا. بعد أن انفصلت عن ديني القديم واعتنقت الجديد بالاسم فقط، بدأت فترة لا يمكن وصفها بالكلمات. إذ لم أشعر أبدًا في كل حياتي لا من قبل ولا من بعد بهذا البؤس المعنوي وفقدان المعين أكثر من الآن، بعد تعميدي.. لو كنتم حينها شهدتم صراعي الداخلي لكان ذلك كافيا لتصديق ذلك بشيء أكثر اعتدالا. كان افتراضي أن كل مسيحي سيتقبلني ويوجهني ويعلمني مسائل الدين ويطلعني على تعاليمه ونصوصه لأصبح جزءًا من هذا الكيان، ولكن أصبت بخيبة أمل كبيرة. وكان ينبغى لي أُن أدرك سريعًا أن سلطة الدين هي الأقوى التي يمكن أن تؤثر مطلقًا في وجداننا وطبيعتنا. فقد بدا لي خطأ مزريًا أن أكون مسيحية ولا أملك فكرة واضحة عما تعنيه المسيحية فعلا، فلم أعلم منها إلا بقدر ما هو موجود في القرآن، وأكثر من ذلك لا شيء. قرّرت أنّ من الأفضل لي أن أظلّ مخلصة لديني القديم في البداية، على الأقل، حتى أشعر بسلام داخلي؛ فلا شك أنّه من الأفضل لي ألفَ مرة أن أكون مسلمة بدلاً من كوني غير مسيحية من القلب ولا مسلمة. وبهذا التصدّع الكبير في نفسي دخلت أوروبا، الحضارة المقدّسة. دخلت مع نفسي في صراع مرير، ولا يدري أحد كم قاسيت في داخلي، فحتى زوجي الحبيب لم أكن أصارحه على الإطلاق؛ فقد كنا مختلفي الآراء في هذه المسألة.



Twitter: @ketab_n

آه لن أنسى ذلك اليوم أبدًا عندما أقمنا في القاهرة عدة أيام ونحن في طريقنا إلى أوروبا، هناك ذهبنا إلى مسجد محمد علي المشهور في القلعة، ووجب علينا في البداية عند دخولنا المسجد لبس شباشب إضافية فوق أحذيتنا، لم أدرِ لِمَ هذا الإجراء، ثم علمت بعد ذلك أنه يُمنع منعا باتا على غير المسلمين دخول المسجد دون أحذية إضافية، هنا بدا لي جليًّا كيف أصبحت في الواقع. في نظري لا تضحية أكبر من تغيير الدين، فلا المكانة ولا الغنى ولا التحضّر الغربي يمكن أن يكون بديلاً عن ديننا المقدّس.. وأخبرك مواساة وتعزية لك أني كنتُ أتلو صلاتي القديمة في السرّ بشكل عفوي في السنوات الأولى بعد تعميدي عندما أكون وحدي..

سرعان ما أصبحت هادئة وقليلة الكلام، وأتعلل دائمًا بكل بساطة بالحنين إلى الوطن للإجابة عن أسئلة زوجي التي كانت تشغل باله عما إذا كان ينقصني شيء. فلماذا النقاش حول مسألة فيها وجهات النظر مختلفة تمامًا حدّ النقيض. وبغض النظر عما سيحدث للمرء في حياته، فالتنشئة التي نشأ عليها في الصغر هي التي تطبع حتمًا هذا الإنسان.



Twitter: @ketab_n

# عالم غريب جديد

قضيت الفترة الأولى في أوروبا وكأني في حلم، وتمنيت أن يكون لي بدل عينين وأذنين، عشرًا منهما؛ حتى أتمكن من استيعاب كل ما هو جديد وعجيب؛ فما يبتكره ويخترعه خيال الإنسان هنا لا بدّ أن يواجهك بشكل كامل ومباشر دفعة واحدة. ومع أني لست ضعيفة بطبيعتي إلا أنني كان يتملكني الخوف قليلًا. فقد بدا ذلك لي مخيفا، كل شيء، كل شيء، مختلف عما عندنا، المنازل والشوارع والملابس والأكل، نعم وحتى الهواء والناس، توجّب عليّ تقبل واستيعاب الكثير بلا حصر ودفعة واحدة. ومع لغة البلد وعاداته وتقاليده الغريبة تمامًا عليّ وغير المعروفة وجدت نفسي في وضع لا أحسد عليه، وخاصة عندما تقرّر علينا بمجرد وصولنا إلى هامبورج أن نزور أقارب زوجي وأصدقاءه. والشيء الأفظع أنه لا يوجد بتاتا ما يعرف هنا بالمجاملة بالإضافة إلى ملازمة النحس لكونك امرأة عربية ولا تعرف كلمة ألمانية. لا، كدت آيس. فتعابير ومعالم وجوه الناس مع جميع أسمائهم التي يصعب عليّ نطقها، بالإضافة إلى لغتهم التي لا أفهمها تمامًا والتي تبدو لي كزقزقة حادة للطيور نتيجة أغلب الأصوات مثل: s (إس)، sch (ش)، t (تي)، tz (تسْ)، كل ذلك



Twitter: @ketab_n

كان مربكًا لي. وما هو عجيب أيضًا وجعلني أبدو كما لو كنت مسحورة تلك الصفة الخاصة للسكان المحليين وهي ابتسامتهم الدائمة. لو جئتِ في أي وقت من أوقات اليوم لوجدت مضيفك أو مضيفتك مبتسمًا على الدوام، يُستثنى، بطبيعة الحال، عندما يتوجب عليك الذهاب للتعزية. في نفسي سمّيتُ الألمان بالأمة الضاحكة، ولكن زوجي أعلمني بعد ذلك شيئًا آخر، وهو أنّ الابتسامة الدائمة، كما قال لي، لايمكن أن أفسرها على ما يبدو لي في الظاهر؛ إذ هي مجرد شكل مستهلك للمجاملة، ولا تعني شيئًا بالمطلق، وقد يوجد البعض بوجوه سعيدة حقًا، وهم في داخلهم مثلما هم عليه من الفرح في الظاهر. يمكنك أن تتصوري كيف كان ذلك مدهشًا لي. فهذا الأمر لن يلقى استحسانًا وترحيبًا وفق سلوككم الطبيعي؛ ويجب عليك أن تلبس بدل القناع المألوف من القماش، والذي هو غير معروف هنا، قناعا طبيعيًا تسمح به عضلات وجهك.. مثل هذه العادات متأصلة هنا ولا يوجد مطلقًا معارضة لها، ولهذا عاجلا أو آجلا ستنحني لهذه العادات السائدة. تتطلب هذه الأشياء أو أمثالها وتُستدعى بالضرورة من قبل السيدة المتزمتة التي تُسمى بالحضارة. ثَمّة شيء واحد لا بد أن أخبرك به، هنا يعرف المرء كيف يُعبّر عن أفكاره ولغته ببراعة. آه يتحتم على المرء هنا أن يتعلم كثيرًا بلا نهاية. وبدا لي الأمر في البداية غريبا، أن أختلط بأناس ناصعي البياض وأعيش أيضًا مع كثير من ذوي الشعر الأشقر! فقد استغرق الأمر وقتا طويلاً إلى أن استطعت اعتياده. وكان التفريق بين الناس ليس أمرًا سهلاً على الإطلاق؛ فالجميع كان يبدو شديد التشابه في عيني التي لم تألف



Twitter: @ketab_n

رؤيتهم. وأغلب الصعوبات بالنسبة لي كان في نطق أسماء الناس في هذه البلاد، وإنْ تجاوزت مرة هذه الصعوبة لحسن حظٍّ اصطدمتُ كثيرًا بأسلوب الخطاب المألوف هنا، فلم يكن واضحا لي في البداية الفرق بين الكلمتين Sie (ضمير المخاطَب الرسمي) وDu (ضمير المخاطَب غير الرسمي)، وكان يقع كثيرًا أن أخلط بينهما في الاستعمال، إذ كنت أقول للغرباء Du ولأقارب زوجي Sie، وكان كثيرًا ما يلفتني عند ذلك الابتسامة غير المفهومة من الأجانب، وخاصة الرجال منهم، حتى صرت حذرة قليلًا بعد فترة قصيرة في التعامل مع Sie و.Du إن عدم معرفة أي من اللغات الأوروبية ولا سيما الألمانية جعلني أعاني في البداية صعوبة شديدة، ولذلك عقدت العزم على ألا أهدأ حتى أتعلم لغة أهل هذه البلاد. تخيلي هذا فقط، أنك في بيتك ولا تستطيعين مخاطبة الخدم، وأنه يجب عليك الذهاب إلى الناس الغرباء وزيارتهم والتحدث معهم بإيماءات اليد فقط. يتكرر ذلك نفسه عندما يقومون برد الزيارة التي لا مفر منها. وتُدعى إلى حفلة كبيرة حيث كل أعين الضيوف تنظر إليك ولا تقرأ من نظراتهم شيئًا آخر سوى الفضول. الرجال والنساء ينظرون إليك طويلًا من رأسك إلى أسفل قدميك إلى أن يتوجب عليك خفض بصرك المندهش تلقائيًا. وإذا احتجت إلى شيء أو رغبت فيه فلا يمكنك الحصول عليه في غياب زوجك؛ لأنه يجب أن يُترجَم للخدم جميع رغباتك واحتياجاتك. وكان لا يمكنني الحديث مطلقًا يوميًا، عدا الأحد، إذ أُصبِحُ من الساعة التاسعة والنصف صباحا حتى الرابعة عصرًا، بشكل اعتياذي، خرساء؛ لأن زوجي يكون في هذا الوقت



Twitter: @ketab_n

في عمله.. أصبحت الحياة على هذا النحو، مثلما ذكرت، لا تطاق أبدًا، وعزمتُ على ألا يهدأ لي بال حتى أتعلم لغة هذه البلاد، ولا سيما لسببين، الأول هو بسبب العجز الذي أعايشه كما ذكرت، والثاني هو حرصي على سُمعتكم لأنني قد أُعتبر ممثلة للشخصية العربية. كما عزمت بكلّ ما أوتيت من طاقة على محاولة تعلم كل شيء سريعًا، تقاليد وعادات البلد الذي أعيش فيه الآن، حتى لا أترك انطباعا فيه شيء من شفقة الجميع على تنشئتنا المتواضعة حسب كثير من الآراء هنا. وبطلب مني خَصّص لي زوجي مدرّسة كانت تدرسني يوميًا من الساعة الواحدة إلى الثالثة بصبر عجيب، درستني أسماء مرفقات البيت في البداية ثم بعد ذلك القراءة والكتابة. وكان في الحقيقة أكثر من مملّ لمدرستي آنذاك أن تتنقل معي من غرفة إلى أخرى، وأحيانًا حتى من المطبخ في الطابق السفليّ (تحت الأرض) إلى الطابق العلوي لتريني بنفسها الأشياء التي لم تكن مفهومة لدي ولم أستطع استحضارها. وقد كان لدي أيضًا صعوبات كبيرة في الكتابة حينها؛ فعهدي السابق بالكتابة من اليمين إلى اليسار ولكن وجب عليّ الآن أن أدير القلم من اليسار إلى اليمين، استغرق الأمر أيضًا بعض الوقت حتى تمكنت من فهم طريقة كتابة بعض الحروف؛ إذ توجد أحرف كبيرة وصغيرة هنا. وتوجب عليّ تعلم الألف باء بالطبع مثل طفل عمره خمس سنوات، لكنني استطعت سريعًا لحسن الحظ حفظ رسم كل الحروف باستثناء حروف قليلة مثل Ö, Ü, Ä. استغرقت الدروس أحد عشر شهرًا تقريبًا، وبعد ذلك استطعت أن أجرؤ على الحديث من هنا وهناك بكلمة. ولم يستغرق الأمر بعد ذلك


Twitter: @ketab_n

طويلاً حتى تمكنت من أن أدير دفتر المصروفات المنزلية بنفسي، طبعًا مع انزعاج خدمنا الذين كانوا إلى هذا الوقت هم المسيطرون. ما هو دفتر المصروفات المنزلية؟ بالطبع ليس شيئًا يرد اسمه عليكِ لأول مرة. فلو كنت قد اعتدت في المنزل أن تضعي دخلك السنوي معدودا في علبة، ولكن دون أن تحسبي ما تنفقينه في العادة، فإن الأمر هنا مختلف تمامًا، فمدخول كل إنسان وما ينفقه له أهمية كبيرة أكثر مما يمكنك أن تتصوري من الوهلة الأولى. ففي الشمال يسير كل شيء بنظام، والوعي بالنظام أمر عجيب. إذ ينبغي أن يوضع لكل شيء حساب دقيق، وويل لمن يعيش يومه بلا مبالاة. حتى الوزراء، الحكومة الفعلية لكل بلد، مسؤولون تقريبًا عن كل ملّيم ينفقونه للحفاظ على الرخاء العام. يطلب الآباء من أطفالهم وكذلك الأزواج من زوجاتهم وضع حساب لما يستقبلونه من مال عندما يتطلب ذلك. ويُعلَّم الأطفالُ الصغار هذه الطريقة منذ بداية ذهابهم للمدرسة بحيث يتعلمون مع مصروف الجيب كيف يستطيعون مستقبلا الاقتصاد والتوفير. أترين إنه نظام رائع لا يسعك إلا الثناء عليه. ويُربّى المرء هنا وينشّأ على الشعور بالمسؤولية، وهذه خصلة لشعب غير مقدّرة بما فيه الكفاية. كما حفزتني هنا نماذج أخرى سرعان ما بدأت بسببها، مثلما قلت، بإدارة شؤون منزلنا بنفسي وتقييد إنفاقنا.



Twitter: @ketab_n

# منزل على بحيرة الألستر

وصلنا إلى هامبورج في صيف (١٨٦٧)، فسكنا في فيلّا صغيرة على بحيرة الألستر الجميلة على نية شراء منزل خاص لاحقًا. في البداية لم تعجبني على الإطلاق الغرف الصغيرة في المنازل هنا؛ لأني شعرت بالانقباض والضيق في الحجر الضيقة والمنخفضة، وكنت أسعد دائمًا عندما أتمكن من تنفس الهواء الطلق المنعش. مثل ما يبدو أن الغرف هنا تكون كثيرة ولكنها ضيقة. وما يزيد الغرف ضيقًا هو توسط الأثاث الضروري وغير الضروري في العادة، وفي كل زواياها، بحيث يواجه المرء عادة مشقة ليجد طريقه وسط جميع الأشياء «الضرورية». كما تغلق أيضًا أبواب الغرف هنا نهارا، الأمر الذي لفتني كثيرًا؛ لأنني حتى الآن لم يكن لي عهد بمثل هذا. واستغرق الأمر طويلاً إلى أن تمكنت من التعود على هذه الضرورة غير المريحة. كما أن أبواب المنزل تغلق أيضًا في النهار؛ إذ لا يوجد هنا بوّابون يجلسون ليل نهار على أبواب المنزل كما هو الحال عندنا، ويُستثنى من ذلك الفنادق. إنّ ما يحتاج إليه المرء لتأثيث بيت أوروبيّ، هو فوق تصوّركِ تمامًا؛ فحينما أثّثنا بيتنا جلبنا مئات من الأشياء التي لا حصر لها. ولم تكن دهشتي قليلة، قبل كل شيء،



Twitter: @ketab_n

وأنا أنظر إلى العدد غير المحدود من مرافق أثاث المطبخ والتي تعد هنا كلها ضرورية، وكنت أفكر في كمية الطعام الذي كان يُطبخ في بيتنا؛ إذ يُطبخ يوميًا، على الأقل، عشرة أنواع من المعجنات وأصناف أخرى من الحلويات، وكل شيء كان يُنجز بأدوات قليلة! هذا الشعور غير المريح بضيق المكان في منزلنا ازداد بمنظر الستائر القماشية الغليظة التي كانت تحجب عني الشمس الحبيبة التي لا تظهر هنا على كل حال إلا قليلًا. وكان الجلوس على الكراسي في البداية شاقًا جدًا عليّ، وكنت أحسدكم في نفسي كثيرًا على المخدات والتكايات. ولكن مع حشوها بالمِشدّ والقماش القطني، مثلما أنا الآن، أصبح الجلوس على المخدات صعبًا عليّ، وأحسّ الآن طول اليوم وكأنني على مِلْزم.

كنت أستحمّ في حوض الاستحمام بنفور كبير في البداية، ولكن وجب عليّ التعود عليه كغيره من الأشياء الكثيرة بمرور الوقت؛ إذ وجدت أنه من القذارة أن أغتسل في ماء غير جارٍ مثلما تعودنا على ذلك في بيتنا، وكان الجواب عن سؤالي: لِمَ لا يوجد هنا مثل هذه التدابير البسيطة؟ أنّ هذا لا يتناسب مع البرودة الشديدة للطقس المحليّ. أعجبتني كثيرًا مرافق تصريف الماء والمصابيح الغازية. إن النظام في المنازل الأوروبية وصيانة الأشياء أمر مثالي، حتى إن الأمر مبالغ فيه في بعض البيوت. ولكن ما يلاحظ بشكل عام هو الميل القليل جدًا للاستحمام الذي هو من وجهة نظري أهم كثيرًا من تنظيف الأرضيات. يُحمّم الأطفال الصغار يوميًا حتى عمر معين، ثم يكون



Twitter: @ketab_n

ذلك مرة كلَّ ثمانية أيام، ولا يمكن السؤال عن أمر الاستحمام لمن هم في عمر متقدم؛ فعندما وُلِدت طوني (أنطوني ١٨٦٨)، كانت لديها مربية وكان لا بدّ قبل أن يُعهد إليها رعاية الطفلة من التفاهم معها من أجل هذه الغاية، وهي ضرورة أن تستحم في الحوض. ولكن الفلاحة الطيبة لم تمتثل لهذا الأمر بسهولة، ولم تدخل حوض الاستحمام إلا على كره وبعد أخذٍ وردّ.. وكان من جملة ما اشتريناه من الأثاث سرير إنجليزي، وقد أعجبني كثيرًا وذكّرني حجمُه بأَسِرَّتنا الهندية. ولكن من يصف دهشتي عندما رُكِّبَ السرير وثُبِّتت عليه الستائرُ وكان بالداخل فراشان من الريش متلاصقان، هكذا وجب أن يُصمّم، مثلما أُخبرت، عندما سألت عن معنى هذه الأشياء الهائلة، والتي لم أعرف منها سوى اللحف والشراشف، ولقلة تَمدُّني كان صعبًا عليّ أن أتغطى بريش الدجاج المريع، مثلما فُسّر لي آنذاك، والذي لم أتقبله.

رأيتُ أن الأكل هنا يطبخ سيئًا للغاية، ولم أستطع بدايةً التعود على الطعام إلا بصعوبة فائقة. وقبل كل شيء كانت فكرة أكل لحم الخنزير مريعة لي، واستغرق الأمر طويلًا، وبعد محاولات إقناع كثيرة، عزمت على استساغة لحم الحيوانات التي تفتح الشهية على الأقل. كان الأكل الذي اعتدنا، ونحن صغار، تصديع الطباخين ليطبخوه، خير عون لي هنا؛ لأنني كنت عندما لا أرغب في أكل كثير من التوافه المحلية - بعد تذوقها- أذهب بكل بساطة إلى المطبخ وأطبخ لنفسي الكاري والبيلاو، وكان ينقصني الأشياء الضرورية لطبخ


Twitter: @ketab_n

شيء آخر والتي في الغالب ليست معروفة هنا. وعندما مرضت لأول مرة ولم أرغب في الأكل، أوصاني الطبيب بأكل المحار. لم أفهم حينها بالطبع ماذا قال الدكتور ولكن عندما ترجم لي زوجي ذلك بالسواحيلية، سخطتُ كثيرًا بسبب هذا الطلب غير المعقول؛ فكما تعلمين لا يُؤكل المحار لدينا، ولا يستسيغه إلا الزنوج البدائيون.

كانت الأيام الأولى هنا مملة بشكل مريع، ولا سيما عندما انتهى العقد مع الإنجليزية المجلوبة، ومن أجل ذلك وجب عليها الرجوع إلى زوجها، كنت أتحدث معها الهندوستانية، وكنا نتبادل الحديث معا في غياب زوجي الذي يستمر عادة من الساعة الثامنة والنصف حتى الرابعة عصرًا، وهكذا أصبحت بعد رحيلها إلى إنجلترا بالكاد أتحدث كلمة واحدة في هذه الساعات السبع يوميًا. ولا شيء مطلقًا يمكن أن أعمله، ومن باب أولى لا شيء لقراءته؛ لأن الكتب العربية، التي أرسل زوجي في طلبها لي من الإسكندرية، قد قرأتها أكثر من عشر مرات وحفظتها عن ظهر قلب تقريبًا. كنت لا أزال لم أتعلم الأشغال اليدوية الأوروبية، وكان يحدث أن أقابل كل خرق في جواربنا بفرحة داخل نفسي حتى أتمكن من رتقه مرة أخرى، ولكنّ هذه الفرحة الغريبة كانت تحدث نادرًا، لأنه لا يلبث الأمر طويلاً حتى أقيّد قدميّ اللتين اعتادتا الحرية بجوارب جديدة.

ولقتل ساعات الوحدة قليلاً، فقد كنت عاجزة عن الكلام فعلا، كان لمجوهراتي وقطع ملابسي العربية أن تعاني كثيرًا؛ إذ كنت أتبادل معها أفكاري بصمتٍ، دون حاجة إلى الكلام. أوليست هي الأشياء



Twitter: @ketab_n

الوحيدة التي كانت تذكرني بكم وبوطني الحبيب؟ ربما ترين هذا الفعل طفوليًا جدًّا، ومع ذلك أعترف لك بصراحة، أنني مع هذا الفعل، الذي كان يحدث فقط والأبواب مغلقة، وليس نادرًا، أقوم بتقبيل ومعانقة هذه الأشياء الجامدة. وكثيرًا ما كان يدخل عليّ زوجي والغرفة ممتلئة بالأغراض المبعثرة فيقوم بمساعدتي في توظيبها. والآن، حيث حولي زوجي وأغراضي التي جلبتها من الوطن، كنت أتمالك نفسي قليلاً، في حين كنت أشعر بلوعة الفراق حقيقةً. يبدو لك مضحكًا بالتأكيد معرفة أني تلك التي كانت وهي طفلة الأكثر تنمّرًا بينكم، والتي لا يعرف الخوف والفزع لها طريقا، قد أصبحت في هذا المحيط كثيرة الخوف على نحو لا يكاد لك أن تتصوريه. ففي كل مرة يغادر زوجي من المنزل ذاهبا إلى عمله تصيبني قشعريرة، إذ يعتريني خوف رهيب لا يوصف من التفكير في أن عليّ أن أعيش في هذا الوسط الجديد تمامًا. وما هو عجيب أيضًا أنني كنت أنتظر وصول زوجي يوميًا من الساعة الثالثة بعد الظهر على الرغم من علمي أنه لا يمكن أن يصل قبل الساعة الرابعة. ونادرًا ما كان يرجع إلى البيت وجيوبه خالية؛ إذ تكون في الغالب محملة بفاكهة استوائية. وفي أحد الأيام أحضر لي فاكهة رمان طازجة، وبرؤيته لم أتمكن من كفكفة دموعي؛ فقد كان أول الأشياء من وطني التي أراها مرة أخرى في أوروبا، وأعاد إلي كثيرًا من الذكريات القديمة.

كانت أول طاهية «بيضاء» لي تُدعى لِينا، وقد كنت أتفاهم معها طبعًا بالإيماءات فقط. وفي أحد الأيام، وكان يوم أحد، اعتاد فيه أقارب زوجي أن يتناولوا الغداء عندنا، نزلتُ إلى الطابق السفلي حتى



Twitter: @ketab_n

أحضر لي شيئًا، فوجدت المحترمة لينا تعد القهوة - شخصيا تجنّبت هذا المشروب تقريبًا أكثر من سنتين من وصولي إلى أوروبا، وتحديدًا لسبب بسيط؛ فما يُدعى هنا قهوة، لا يستحق هذا الاسم في الحقيقة إطلاقا، ولكن، بسبب هذا الموقف، لو كنت مدمنة على القهوة الأوروبية لانصدت نفسي عنها الآن حتما- وجدت الطاهية منهمكة في إفراغ القهوة وتستعمل لذلك جوربا قديما، وعندما أبديت اعتراضي على هذا التصرف برّرت ذلك بسذاجة قائلة: «سيدتي، الجوارب نظيفة بعد غسلها!» ودون أيّ زيادة كلام معها أخذت الإبريق من يدها وألقيته في فوّهة التنور.. سألت زوجي عند بداية تأثيثنا للمنزل عن عدد الطاهيات التي نحتاج إليهن فعلا، فضحك من قلبه. ثم قال لي وسط استغرابي الكبير، بأنه في أوروبا يحتاج المرء إلى طاه أو طاهية، وحتى أيضًا لدى الناس الأثرياء. فقد ظننت أن الأمر مثلما عليه الحال عندنا؛ إذ الخدم لأقل سبب يدّعون أنهم مرضى ومن أجل ذلك ينبغي توفير أضعاف الخدم في هذه الحالة، ولكن ما لبث أن لاحظت أن قدرة خادمة ألمانية خشنة تفوق عشر مرات عبيدنا السود.

لفتني كثيرًا هنا طول النهار في الصيف غير المألوف، فالنهار عندنا اثنتا عشرة ساعة فقط، سواء في الصيف أو الشتاء. ما أطيب أمنا الطبيعة! فقد عدلت بحكمة، فقدّرت ألا يكون المسلمون، مع صيامهم الذي يستغرق ثلاثين يومًا في كل سنة وفي أثناء ذلك يمتنعون عن أي طعام وشراب، مثلاً من سكان جرين لاند أو سيبيريا.



Twitter: @ketab_n

# عادات هامبورج

لم تتوقف زياراتنا بسبب الدعوات من مختلف الأماكن. موائد هامبورج مشهورة في ألمانيا ويعرفها القاصي والداني، وهذا حقيقة، إذ لا يوجد مكان تزخر فيه مائدة أكثر مما عليه هنا. كانت هذه الموائد بكل بساطة معاناة لي؛ إذ كان ينبغي لي أن أجلس مع المضيفين في طاولة واحدة فأكون موضع اهتمام من قبلهم، حتى إنهم يملأون صحني بما لذ وطاب من المأكولات ويطلبون مني أن آكل من جميع هذه الأصناف الطيبة. وكان ليس من النادر أن يجلس المرء على الطاولة من الساعة السادسة إلى العاشرة، أربع ساعات كاملة، ويظل أمام عشر كؤوس إلى اثني عشرة. بالإضافة إلى الحديث الصاخب الكثير الذي كان عادة ما يطِنّ في الرأس.. الكلام الكثير عند الأكل عادة لدى الأوروبيين عموما، ولا توجد هذه العادة لدينا نحن العرب إطلاقا. هنا في ألمانيا تؤدى «صلوات المائدة» في حالات نادرة جدًا، وكل أحد يعبر على الأرجح عن شكره لواهب كل النعم الدنيوية في صمت، هكذا كان ظني آنذاك ولكن بلغني غير ذلك، بأن ذلك شيء ليس دارجًا على الإطلاق، فلا يفعل مثل ذلك حتى على نطاق دائرة الأسرة الضيقة وإنما في الأغلب لدى الناس المتدينين فقط، بدا لي



Twitter: @ketab_n

بالطبع شيئًا غريبًا جدًّا؛ فقد كنت أعتقد بأن جميع البشر بغض النظر عن كونهم متدينين أو غير متدينين، فقراء أو أغنياء، أشرافًا أو وضيعين، يدينون بالشكر لله وحدَه على رعايتهم وإيجادهم.

لقد كان عدم اعتياد عينيّ لتبرجّ النساء يشعرني كثيرًا بحرج شديد، ولماذا يُتعرى في الواقع أمام مئات من البشر من كلا الجنسين، ليُتظاهر بالصدود في مواقف أخرى ربما تكون أقل أهمية؟ ما يزال هذا غير واضح لدي إلى هذا الوقت. والغريب أن النظر إلى امرأة زنجية تكاد تكون شبه عارية هو أقل إحساسًا بالحياء من النظر إلى امرأة بيضاء متبرجة.

أثارت فيّ الحفلة الأولى، التي شاركت فيها كمشاهدة، دهشة كبيرة؛ إذ شعرت حقًا بدُوار من كثرة الناس وحركتهم المستمرة. وعندما رأيت كيف يتحادث الناس مع بعضهم بكل انتشاء، والرجال يدعون النساء المتبرجات بلا استثناء للرقص، لم يسعني أن أظن أي شيء آخر غير أن جميع من في الحفلة كانت تربطهم صداقة منذ سنين، ولكن علمت بعد ذلك وقد بدا لي ما لا يُصدَّق أن كثيرًا من الراقصين هنا يلتقون ويتحدثون للمرة الأولى، عندها شعرت بكل وضوح كيف أننا مختلفون عنهم تمامًا. وفي مثل هذه المناسبات أيضًا يمكن الاستفسار، طبعًا عن طريق الترجمة، وكان يتكرر معي كثيرًا، إن كنت أرقص أيضًا. فيكون جوابي، أنا شخصيا لا أرقص ولكن دعونا نجرب، فيجد الناس هذا مضحكًا جدًّا.

تُقدّم الدعوات في العادة قبل أربعة أسابيع، ما يعني أنه بالإمكان



Twitter: @ketab_n

في أثناء ذلك وبكل راحة أن تحيا وتموت. لم أعرف سابقًا أن السهر طويل في الحفلات وأنك تأوي إلى فراشك فقط بين الثالثة والرابعة صباحًا. ونتيجة لذلك كنت أسعد دائمًا حينما نرجع إلى المنزل. وكنت أعاني في السنوات الأولى بشكل لا يصدق من قلة الأجانب الذين يعيشون في ألمانيا ذلك الوقت بالمقارنة مع إنجلترا وفرنسا. في المأدبات وفي المسرح وفي الحفلات الموسيقية كنت أشعر دائمًا أني محطّ الأنظار، الأمر الذي كان يسبب لي أعلى درجات الانزعاج، ففي يوم من الأيام ذهبت مع زوجي للنزهة، فمرت علينا امرأتان في عربة مفتوحة، ولم تكتفيا بالتحديق فينا بل حينما تلفّتّ بالمصادفة رأيتهما وقد جلستا على ركبتيهما في المقعد الخلفي حتى يتمكنا من رؤيتنا بوضوح! علمت لاحقًا أن هاتين المرأتين تنتميان إلى الطبقة العليا في هامبورج. ومن خلال هذه التجارب أصبحت منطوية على نفسي، فأخرج في عربة مغلقة وأمتنع من تلبية الدعوات قدر ما أستطيع. اعتدت أن ألبس ملابس بألوان الطيف، إذ بدا لي الزِّيّ الأوروبي كئيبا جدًّا، ولكن منذ عدة سنوات تغير الذوق هنا كثيرًا، وفي بعض الأوساط حيث تُلبس الفساتين الرافلة للموضة يُبحث الآن حتى في النمط الشرقيّ لإبراز التأنق. كان يبدو لي، وقبل كل شيء، الأطفال الصغار مخيفين في ملابسهم البيضاء تمامًا بالمقارنة مع أطفالنا الذين يلبسون عند الولادة ملابس ملونة. وحول نظرية «المساواة بين الناس» التي يدعيها أنصارها كثيرًا في الشمال تعرضت مباشرة في البداية لحادثة ملموسة. ففي أحد الأيام كنا نمشي في شارع ضيق، فقابلتنا خادمة تحمل في يدها سلّة، وبدل أن تُفسح لنا


Twitter: @ketab_n

الطريق، آثرتْ أن تصطدم سلتها بي، ونتيجة لذلك أصيبت طرحتي الحريرية الجديدة المرصعة باللؤلؤ ببعض الضرر، دار في خلدي أن ذاك الفعل دليل على مبدأ حرية الخادمات. هذا النوع من البشر - وأعني الخدم الأوروبي- هم كادحون ومفيدون أيضًا، ولكنهم متغطرسون ووقحون بحيث أحاول أحيانًا معاقبتهم على أخطائهم بقسوة. أخبرتُ زوجي بهذه الرغبة فأخبرني أن كل صفعة تعاقب عليها الشرطة بعشرة تالرات (عملة قديمة)، فضلّتُ بالطبع ألا أُشبع بالتالارات العشرة لا الشرطة ولا الخادمة الجاهلة، وأن أتصرف قدر الإمكان بشكل «حضاري»؛ لأنه على أي حال كانت تُذكر القصص الأكثر سخفًا عن المرأة العربية. ومنها، أنني سمينة مثل البرميل على الرغم من أنني كنت في ذلك الوقت نحيفة، ولدي لون وجه وشعر زنجية، وقدماي صغيرتان جدًا كأقدام امرأة صينية، ونظرًا لذلك لا أستطيع المشي بالطبع. فقيام المرأة الصينية المزعومة مشيًا على الأقدام بجولة من راينبك إلى بيرجدورف أو حول بحيرة الألستر، هو شيء لا يخطر ببال الناس المحترمين هنا على الأرجح. ولا أزال أذكر كيف أن رجلا من معارفنا لم يستطع إخفاء دهشته حينما زارنا للمرة الأولى ووجدني مثلما خلقني ربي لا مثلما تخيلني الناس. وقد كلّف زوجي جهدًا كافيًا أن يُفهِم الناسَ هنا في الشمال بأن هناك فرقًا كبيرًا بين الزنوج والعرب وأن هناك شعوبًا أخرى أيضًا غير الزنوج تسكن في أفريقيا الكبيرة. حتى بلغ الأمر في النهاية أن تقوم سيدة ساذجة جدًا بتحسّس شعري الزنجي المزعوم بحرية غريبة! مع أنها كانت المرة الثانية فقط التي أراها فيها!



Twitter: @ketab_n

نالني البرد في الصيف الأول (عام ١٨٦٧) بشكل لا يوصف، وكان يُمكن أن أُشاهَد كثيرًا وأنا أمشي متدثرة في البيت في يوليو وأغسطس. وكان العمل في الحديقة وسقي العشب بخرطوم الماء يمنحني السعادة.. سُرقت منا للأسف القطة البيضاء الجميلة التي جلبها ابن عمنا آنذاك من مكة إلى زنجبار وأهداني إياها لاحقًا مما أثار غَيرتكم كثيرًا. وبهذا الفقد حزنت كثيرًا فقد كانت مخلوقًا حيا من الوطن، وكانت عزيزة عليّ كثيرًا، ولكن ما لبث أن أحضر لي زوجي عوضا عنها كلابًا أليفة، وكنت عندما أنظر إليها أستشعر كثيرًا نفوركم الشديد من هذه الحيوانات الوفية، كما حصلت أيضًا على طير الكناري المغني، وعنزة حلوب، فكنت أزور حديقة الحيوانات الصغيرة هذه وأسعد بها، وصرت أحلب عنزتنا أيضًا مثلما كنّا سابقًا في المزارع نحلب البقر والعنز بولع كبير، ممّا كان يثير استياء مُرافقاتِنا.

كان منظر المنطقة التي حول هامبورج جميلاً، وبخاصة المنطقة التي على نهر إلبه، حيث كانت وجهتي دائمًا، وهكذا كنّا نقضي يوم الأحد هناك كل أسبوعين إلى ثلاثة، وكان لدي شغف خاص بالميناء، إذ كنت أرى هناك السفن التي تذهب إليكم، ومن حين إلى آخر أيضًا الزنوج البحارة الذين يأتون إلى هنا، وكيف كانوا يبدون مضحكين وهم بلباسهم الأوروبي، المساكين يبدون متجمدين وبائسين في أغلب الأحيان.

عادة ما يُخطئ المرء في طريقه عندما لا يفهم لغة البلد، وهذا ما


Twitter: @ketab_n

كان يحصل لي كثيرًا، ولي هنا موقف مضحك، ففي أحد الأيام أخطأت الطريق في المدينة ولم أهتدِ، وبالمصادفة اجتزت الشارع حيث يسكن صانع الأحذية، الذي كان يعمل لنا، ذهبت إليه واستطعت بمشقة أن أقول له باللغة الإنجليزية «show me» بادر الإسكافي على إثر ذلك وأحضر لي كرسيًا وهمّ أن يُمسك برجلي، فحرّرتُ قدمي من يديه مندهشةً من هذا الصنيع فخرج ذاهلًا وأحضر شخصًا تمكّن أن يفهم عبارتي «show me» أفضل، وقد لامني على ما فعلتُ، فالرجل الطيب فهم عبارتي الإنجليزية على أنها طلب لصنع حذاء!

لم أكن مقتنعة بالإغلاق الدائم لأبواب الغرف عند الدخول والخروج، وحتى باب المنزل - الأمر الذي كان لدينا يحدث في الليل فقط - حتى إنني في الشتاء كنت أترك الأبواب مفتوحة في العادة، مما يؤدي إلى انزعاج زوجي، لقد ظلّ لي دائمًا غير معروف سبب وجوب أن تغلق أبواب ونوافذ الغرف الضيقة كثيرًا، وحتى في الصيف. ولأني أصبحتُ أعيش سنوات ليلًا ونهارًا على النوافذ المفتوحة، كنت أتحمل في البداية باستياء الهواء المستهلك والضارّ لجهازي التنفسي، والنتيجة أنني كنت أعاني من الصداع حالما أكون في غرفة ليس بها ما يكفي من الهواء. تخيلي فقط أنني أصبحت بسبب حبي للهواء الطلق دون علم أضحوكة الجيران، خاصة أنني كنت أفتح النوافذ طويلًا أيضًا في أثناء الشتاء، وكان يُشاع أنني كنت أُدفِّئ الشوارع أيضًا!



Twitter: @ketab_n

# شتاء كئيب

كانت مشاهدة الثلج لأولِ مرة شيئًا غريبا لي، ولا أزال أذكر حتى الآن تلك اللحظة التي كنت آرى فيها نُدَف الثلج الأولى وهي تتساقط من السماء بتموّج، كنت أجلس كالعادة بلا شغل ووحيدة في الشرفة الخارجية، أنتظر قدوم زوجي من المدينة، ولكن كلما كنت أشعر بالوَحدة في المحيط الجديد يذهب تفكيري سريعًا إليكم، إذ كنت أعيش في الحقيقة حياتين، روحية محوطة بسماء زرقاء أبدية، تنتعش فيها صوركم الحبيبة، ولكن الحياة الأخرى هي مثلما قُدّرت لي في الحقيقة هنا. بدا لي غريبا أن يُحاوَل نثر القطن الأبيض الخالص هناك من فوق السماء على الأرض المتسخة، عمل يبدو عبثيا تمامًا، لأن الندف البيضاء لا تبقى. في البداية لم أستطع حينها أن أفسر هذا المشهد، حتى بدا لي غير مريح وارتقبت وصول زوجي بعجلة كبيرة أكثر من المعتاد، حتى يُفسر لي هذا اللغز الشمالي. في مثل هذا الوقت تعوّد زوجي الحبيب من أجل العناية بصحتي أن يجعلني ألبس لباسًا دافئًا بما فيه الكفاية، ولكنّ هذا لم يكن يناسبني إطلاقا؛ فهذه الملابس الكثيرة، التي يتطلبها الجو القاسي جدًّا، ثقيلة جدًّا، وليس لديكِ تصوّر عمّا يجب عليّ أن ألبسه هنا، كلّ شيء ودفعة واحدة،



Twitter: @ketab_n

وكان يحدث كثيرًا أن يُسرع زوجي الطيب ورائي بقطعة لباس في يده مناديا إياي: «يا امرأة لقد نسيت شيئا»، عندها تكون إجابتي دائمًا: «لم أنسَه ولكني لا أحبه»، وجدت ذلك فظيعا بأن عليّ أن أربط الوشاح الثقيل حول عنقي، فقد أحسست مع ذلك وكأني أختنق.. وسرعان ما أدركت أنه لا يُغادَر من البيت من دون مِظلّة، فالرجال والنساء والأطفال يسيرون هنا ليلًا ونهارًا متوشحين بهذا الشيء الذي لا غنى عنه. وعند النظرة الأولى للمظلة قد يذهب تفكيركِ على الأرجح إلى البندقية تقريبًا، أليس صحيحًا؟، الأمر مختلف تمامًا عما لدينا، إذ قد يحيى الإنسان ويموت دون مظلة خاصة به. الشتاء في الشمال إحدى عجائب الدنيا الكبرى على الإطلاق، والذي يصيب الناس من المناطق الاستوائية بالذهول الدائم، تخيلي فقط أن البشر والحيوانات كلهم جميعًا يبدأون في الشتاء عند درجات برودة محددة بالتدخين، كيف كان مدهشًا لي عندما رأيت الأحصنة والبخار يتصاعد منها في الشارع، وأيضًا من فمي، يخرج دخان كثيف، وفي إحدى الطلعات في عربة مغلقة في الشتاء رأيت من زجاج النافذة كيف كان سائق العربة يلطم كلتا ذراعيه باستمرار، وخوفًا من هذا المشهد العجيب الذي ظننت فيه أنّ المسكين أصبح مجنونا فجأة، قرّرت طبعًا أن أترك العربة بأسرع ما يمكن، فضحك مني زوجي كثيرًا، وفي نفس الوقت حاول تهدئتي موضحا لي أنّ سائق العربة المسكين لا بدّ أن يفعل هذه الحركة حتى يحافظ على الدفء قليلًا.. هل راودك، ليس في الحلم بل في الواقع، أنه يمكن أن يُتنزّه بالأقدام وبعربة ثقيلة في نهر كبير دون أنْ يلحقك شيء من الماء على الأقل؟ ولكن هذا



Twitter: @ketab_n

المشهد يحدث هنا سنويا وتمتد هذه الحالة كثيرًا، من شهرين إلى ثلاثة أشهر. هُزّي رأسك طويلًا كما تشائين فالأمر حقًا مثلما ذكرت. هل ينبغي أن أعتقد نظرًا لكل هذه الحوادث العجيبة التي كنت قبل وقت قصير أعتبرها غير معقولة تمامًا، أنها ليست سحرا؟

تلعب أداتان هنا، البارومتر والثيرمومتر، مثلما تسميان، دورًا كبيرًا، إذ يرقب المرء الأداة الأولى كثيرًا؛ لأنّ مزاج الفرد يتعلق كثيرًا بحركتها، مع أنها غير متعلقة تمامًا بأمزجتهم، أما الثانية، شريطة أن تكون في غرفة مغلقة، فتمارس نتائجها تأثيرًا لا إراديًا للغاية، وخاصة في الشتاء، فلدى بعضهم تظل مرتفعة ولدى البعض الآخر منخفضة، حتى إنني أيضًا سرعان ما أخذت بملاحظة صديق البيت والمستشار هذا.. آه على الإطلاق لا يمكن أن أنفك عن «التّعَلّم»؛ فما يُمكن تعلمه هنا يكاد لا يحصى، وما يتعلمه الأطفال الصغار هنا منذ المهد ببطء وتدرج، كان يجب أن يتسلل إلى عقلي المسكين بسرعة ومباشرة دفعة واحدة، بحيث إنني، كما قلت، لا أستطيع الانفكاك من التعلم.

ومع الشتاء الكئيب يأتي أيضًا وقت ما يسمى حفلة السمر، فلستة أشهر كافية يجلس الناس هنا بين أربعة حيطان، وفي هذا الوقت كان «الجلوس في الخارج» عادة من الماضي، يُمَتّع الشخص بها قلبه وعينه بمنظر الورق والأشجار، مثلما في الصيف، وهكذا يبدأ مع عدد لا يحصى من الناس، الذين يجدون الأنس المريح مع الأسرة مملًا كثيرًا، وقتٌ مختلف للهاث والمطاردة، مثل هؤلاء الناس لا


Twitter: @ketab_n

يمكن أن يكونوا سعداء، على سبيل المثال، إلا عندما يتناولون فطورهم لدى .A وغداءهم عند .B وعشاءهم مع .C في يوم واحد، كنت أعرف شخصيا امرأة مريضة جدًّا، كانت تمكث في الفراش أغلب اليوم ولكن في المساء كان «يجب» عليها أن تخرج، وكان «يجب»عليها، مثلما ذَكَرَتْ، أن تتناول قبل خروجها بوقت قصير من بيتها عدة كؤوس من الشمبانيا لتنشط قواها الضعيفة. وفي هذه المناسبة يحدث أيضًا كثيرًا بما فيه الكفاية أن تُكلّف المعدة المسكينة ما لا تطيق، ولكن ما الضير في ذلك إذا كان المرء «سيسمر جيدًا» و«يتلهّى»؛ فمن أجل ذلك سيذهب في الربيع القادم إلى كارلسباد. كم هو أمر عجيب كيف يكتفي الناس هنا في الشتاء بنوم قليل في الليل. على كل حال هذه أيضًا واحدة من مكاسب الحضارة!

وكنا من حين إلى آخر نذهب إلى سيرك رنتس، حيث كانت تعجبني كثيرًا الخيول الرائعة. فالعرض الرائع الذي يعرض جميع الحيوانات هناك كان مثار إعجابي كثيرًا، ولكن كان الظهور العجيب للنساء أقل إعجابًا لي، إذ يظهرن بملابس قصيرة جدًّا، فما يسميه الناس بقطع الملابس كان في الحقيقة بالكاد يحمل الاسم! لم أستطع أن أفهم كيف يمكن أن يُعجَب المرء بالتمثيليات الإيمائية التي لا طعم لها والتي قد يحدث فيها الصراخ والصخب. ومع أني لم يكن لديّ معرفة بالموسيقى الأوروبية إلا أنه كان ينبغي لي أن أحضر الحفلات الموسيقية الكبيرة، ولهذه الغاية أشير عليّ أن ألبس على كتفي الشال الأحمر المطرّز بالذهب، والذي، كما قد تذكرين، كان هدية من



Twitter: @ketab_n

أخي الحبيب ماجد، جلبه لي من رحلته إلى شرق الهند، ولكن كم ندمتُ على هذا الفعل؛ فما إن دخلنا القاعة الكبيرة المكتظة بالناس حتى اتجهت كل الأنظار والمناظير إلى شخصي تعيس الحظ، لم يكن لديّ علم بأنّ الشال سيسبب كل ذلك وإلا لما ارتديته إطلاقا! يمكنك أن تتخيلي سعادتي حينما غادرنا القاعة في النهاية.

وبعد وقت قليل الوقت توجب عليّ أيضًا أن أزور مسرحا. مسرح؟! سألت زوجي ما معنى المسرح؟ فأجابني بأن المسرح هو بيت كبير تُعرض فيه مختلف التمثيليات، واليوم مثلاً سيعرض شيء يُذكّركِ بوطنكِ، مسرحية «المرأة الأفريقية». ذهبنا إلى هناك وكنت أرتقب بفارغ الصبر. ذكرني قدوم وخروج الناس الكثيرين في المسرح بذكرى غير سارة وهي مساء الحفلة الموسيقية مع شالي الأحمر، حتى إنني دخلت بتردد ولا سيما أنني لبست اليوم مرة أخرى شيئًا شرقيًا، بناء على رغبة زوجي، سترةً مطرّزةً بالذهب، وحتى أتمكن من مشاهدة كل شيء بطريقة أفضل جلسنا في مقاعد الباركيه بجوار الأوركسترا، لم يسبق أن جلست في حياتي بهذا القرب من الآلات الموسيقية الأوروبية، وهكذا كان رأسي غير الموسيقي في هذا المساء ملخبطا. رُفعت الستارة أخيرًا وتمكنت الآن من رؤية الممثلين بشكل جيد جدًّا، وبسبب أنني لم أكن أفهم أي كلمة من كل ما قيل فلم يكن لي خيار إلا أن أشاهد الزيّ الخياليّ والإيماءات العجيبة للممثلين، كل شيء بدا لي جديدًا وغريبًا وبعيدًا عن الواقع، ولم أجد تفهمًا للأمر برمّته عندما سألني زوجي إن كانت المسرحية قد


Twitter: @ketab_n

أعجبتني، لأجيبه فقط بـ«لا»، فرددتُ عليه سائلة إن كان الممثلون أيضًا مجانين، «لا، أبدًا!» ردّ عليّ ضاحكًا.. ولكن لماذا يفعلون هكذا إن كانوا في الحقيقة ليسوا مجانين، كان هذا سؤالي غير المثقف. «بذلك يود الناس أن يحاكوا الحياة في أفريقيا»، ماذا يُجاب على ذلك من جهتي؟ لا شي على الإطلاق! من المعلوم أن أفريقيا كبيرة جدًا، ولكن بدا لي الخيال الأوروبي أكبر، ، ربما لحسن الحظ لم يُقدّر للمغفور له مايَربير (مؤلف المسرحية، ١٧٩١-١٨٦٤) في حياته أن تشاهد امرأة من أفريقيا مسرحيته، لا تملك إلا فهمًا قليلاً جدًا عن فنه؛ لأنه قطعًا كان سينظر بشفقة كبيرة إلى قلة ثقافتي وأيضًا بعدم ارتياح لرؤيتي أخرج من المسرح مبكرًا في الساعة التاسعة في طريق العودة إلى البيت. بعد هذه التجربة من زيارتي لمسرح «تاليا»، ومثلما توقعت، بالكاد كان هناك أمل في أن أدرك الكثير من المعرفة في ذلك، والتي نُصحت بها كثيرًا لاحقًا، فنحن الشرقيين لا تؤثّر فينا المسرحيات ذلك الأثر الذي تحدثه في الأوروبيين، وعلى ما يبدو ينقصنا الفهم الضروري لفن الأداء الذي يُقدَّر هنا كثيرًا، وكمثال على ذلك تحدثت لاحقًا مع عربي سبق أن كان في أحد المسارح، وكانت إجابته على سؤالي ما أكثر شيء أعجبه في المسرحية التي شاهدها؟: أجابني: «بالطبع وبكل بساطة مشهد الغروب؛ لأنه تمامًا كما في زنجبار»! لم يتغير كثيرًا ذوقي غير المثقف للمسرحيات لاحقًا، على الإطلاق، فعندما كنت أرى مسرحية الكاهن، باستخفاف واستهجان لاحظتِ المرأةُ التي تجلس بجانبي استيائي من ذلك، فقالت لي باقتضاب تامّ: «ولكن أنت بروتستانتية، فما شأنك بالكاهن



Twitter: @ketab_n

الكاثوليكي؟» هل الكاهن الكاثوليكي ليس عابدا جيدًا مثل الكاهن البروتستانتي؟ كان هذا سؤالي الوحيد لها كرد عليها. ومن وجهة نظري التي لا وزن لها أرى أنه لا يتناسب بالتأكيد ربط كل شيء يمتّ إلى الدين بالمسرح ولاسيما عندما يُجسَّد بشكل ساخر. كان عقلي غير الناضج في معرفة المسيحية غير مشجع لما كنت أسمعه وأراه، وكنت أرجع إلى البيت أكثر غمًّا، الأفكار التي كانت تشغلني كثيرًا جلبت على نفسي المسكينة صراعًا صاخبًا؛ إذ لم أجد مثالا طيبا وجيّدا لدى بعض المسيحيين أنفسهم، كنت أشعر بعدم الاستقرار على دين منذ انفصالي عن معتقدي القديم، ولا أزال لا أجد بديلاً حقيقيًا عنه، فأنّى لي أن أشعر وأنا مسلمة إلى الانجذاب إلى الاعتقاد الجديد إذا كان الناس أنفسهم الذين ولدوا على المسيحية وتربوا عليها يتعاملون مع دينهم بلا تقدير؟! إنّ قلبك الطيب لا شك أنه سيتألم عندما يُلقي نظرة على نفسي المضطربة بالصراع، وعن حكمة وتفكير أقلعت عن الكتابة عن هذا، لم أُبدِ، حتى لأختي الحبيبة خولة، شيئًا عن هذه النقطة الحساسة، فلم تكن تهتم إلا بتكرار ندائها الملحّ للرجوع إلى الوطن . سأكتب لك عن هذا أكثر في وقت لاحق.


Twitter: @ketab_n

# قيود الحفلة

بعدما لبّينا دعوات عديدة من العزائم والمأدبات حان الوقت الآن لنردّ الجميل، لم يكن هذا هلعًا قليلًا بالنسبة لي؛ لأنني سأقوم بدور المضيفة للمرة الأولى في حياتي العائلية أمام حشد كبير من الضيوف، إن ما تعنيه هذه المهمة بالكاد أن تفهميه، كان هناك سبب لتعجيل الحفلة وهو أنه يهوّن عليّ ساعات الوحدة التي كنت أعيشها آنذاك، ومن المصادفة أنْ وصَلت إلينا قبل أربعة عشر يومًا من موعد الحفلة سلحفاة ضخمة مباشرة من زنجبار، في سفينة شراعية، وكانت توضع في حوض الاستحمام مع أننا كنا نستعمله مرات عدة في الأسبوع، الحيوان الضخم كان يخرج ويرجع، وفي كل مرة كان يجلب شغلا كبيرًا للخدم، وكنت أجلس ساعاتٍ مع السلحفاة في الحمام، وأفكاري في هذه اللحظة تبعد مئات الأميال عن المكان الذي رمانا القدر إليه، أنا والسلحفاة. تملكت النظرات الحانية قلبي عندما كنت أرى السلحفاة جالسة في الماء هادئة لا تحرك ساكنًا، وسرح بي الخيال أن تكون جليستي الخرساء قد قرأت أفكاري ومشاعري، ومنذ أن كانت بيننا أحسست بشعور أقل بالوحدة، وكنت حزينة كثيرًا عندما



Twitter: @ketab_n

كان يجب أن تموت حتمًا، فلحمُها سيُقدَّم بالتأكيد حساءً يُسمّى «حساء السلحفاة».

ومن أجل مأدبة الحفلة استُجلبت أيضًا طاهية خاصة ونادلان، وكنت من الصباح الباكر أمشي طول الوقت صاعدة ونازلة للإشراف على الخدم الذين أصبحوا ستة أشخاص الآن، وكنت أقوم بنفسي بالمساعدة إذ بدا لي ذلك ضروريا، كنت في المطبخ أقوم بالمساعدة في غسل الخضار وتجفيف الصحون والكؤوس، وبعد الظهيرة قمت بمساعدة الخدم المستأجَرين في تجهيز مائدة الطعام، كما أعددتُ خصيصًا طبق الكاري؛ فقد كان من الضيوف المرتقبين من سبق له السفر إلى الجنوب، وبدا على الطاهية الاستغراب حينما وجدتْ مذاق الطبق غير المعروف لديها حارًا جدًّا. سيطر عليّ شعور لا يوصف بالانزعاج حينما اقترب موعد قدوم الضيوف، وكنت متأكدة تمامًا أنني سأتلقى في هذا اليوم نقدا كبيرًا ولأجل ذلك كان عليّ أن أبذل كل ما في وسعي حتى أتجنب الفشل من أول مرة، وقد كنت الآن في مقام يصدُق عليه مَثَلُنا المُعبّر: «إذا فتحت أبوابك فأظهر أنك كفء لذلك وإلا فأغلقها واستر نفسك». دار بذهني حينها، نعم، لو كان النقد سيحلّ على شخصي فحسب لكان الأمر ليس بهذا السوء، ولكن ربما سيكون أكثر من ذلك؛ إذ سأُنتقد بسبب عدم مهارتي وأيضًا لسذاجة جنسنا. كان القلق الأكبر لي، عندما كنت أفكر ما أسهل أن أرتكب خطأ في العادات والسلوكيات الأوروبية دون أن أملك أدنى معرفة بها، في هذه اللحظة كنت في موقف لا أُحسد عليه



Twitter: @ketab_n

حقيقة.. بدأت الأبواب تُفتح لأول الضيوف وسرعان ما لحقهم الباقون، يجب عليّ الآن أن أكون مستقبلة للضيوف بصفتي مضيفة ولأقوم بتعريف النساء بعضهن ببعض، تدرّبتُ لبضعة أيام سابقًا لأنطق الأسماء بشكل صحيح، الأمر الذي لم يكن سهلًا عليّ، لأنّ هؤلاء الناس لم يكونوا مألوفين لديّ، حتى إنني كنت في البداية أخلط دائمًا بين الأسماء، وعندما حان وقت تناول الحساء؛ مدّ الرجال أيديهم للنساء العزباوات اللواتي كنّ طبعًا غريبات تمامًا عنهم، شكلنا لمثل هذه الغاية صفًا مختلطًا كما هي العادة، بمعنى أن يكون الرجل بجانب المرأة عند الجلوس، لدى هذا النمط من الحياة، المختلف تمامًا عن الذي ألفته، كنتُ أحس في كل مرة باستنكاركم ولومكم، ويمكنكِ أن تصدقيني أنني كنت أُحسّ في داخلي كل مرة بمثل ذلك، ولكن هل ستفعلين شيئًا آخر لو كنت في هذه الحال؟ هكذا وجب عليّ أن أعوي مع الذئاب، فلو مشيتُ عكس التيار لفُهم ذلك، ومن يدري كيف، ولربما كنت زوجة غير مريحة.. وضعت بيدي أمام كل امرأة كأسًا فيها باقة أزهار صغيرة قبل ساعة. من يصف لي شعوري عندما سألني الخادم: «سيدتي! حساءَ البوليون أم حساء السلحفاة؟»، كان ذلك قاسيًا جدًّا، كيف أملك قلبا يجعلني أستمتع بلحم جليستي الخرساء؟! بالطبع فضلتُ البوليون.. ولو كان هناك شيء ما ثقيل عليّ جدًّا في هذه الحفلات، لكان أمرين: أولا الكلام الكثير والعالي عند الأكل، بحيث يَشقّ عليك كثيرًا أن تفهم كلام جارك، وثانيا كثرة الشرب. فليس لديكِ فكرة عن



Twitter: @ketab_n

كيف يشرب المرء كل شيء هنا مرة واحدة، كان الأمر بالنسبة لي مقزّزًا كثيرًا، كم هي عجيبة عادات الناس هنا والتي لا حصر لها! يأكل المرء في البلدان الاستوائية وجبته إلى النهاية أولا ثم يشرب قليلاً من الماء بعدها، في الشمال عكس ذلك، فقد بدا لي وكأنّ الناس يشربون أكثر مما يأكلون، وبدا لي أيضًا غير طبيعي إطلاقًا كثرة شرب النبيذ من دون عطش، فلا عجب أن الناس بذلك يرفعون أصواتهم ويبحث كل منهم أن يسابق الآخر في الحديث، تُدعى هذه الحالة هنا بـ«نشوة» الحفلة، أشك في أنك ستفهمين ما يعني ذلك!.. نال طبق الكاري الذي أعددته إعجاب الناس كثيرًا وأعني الذين كانوا في الشرق وتعرفوا على هذا الطعام، ولحسن حظي استطعت أن أتحدث اليوم كثيرًا بالهندوسية مثلما أيضًا بالسواحيلة؛ لأنه كان هناك بعض من الضيوف من يفهم هذه اللغة.

حان الآن وقت تبادل الأنخاب الذي لا مفرّ منه. تودين بالطبع أن تعرفي ماذا تعني هذه الكلمة، أليس صحيحًا؟ لم أكن في البداية أيضًا أكثر ذكاء منك لأعرف ما كانت تعنيه. تقريبًا عند كل وجبة يبدأ رجل فجأة بالطرق على كأسه بسكين ويقف لأجل ذلك لكي يلقي خطابًا مطولاً، يصغي إليه بانتباه كل الحاضرين، وقد تعوّد المتحدثون في هذه المناسبة أن يترنموا بعبارات المديح لمضيفيهم، وإن كان ذلك صوابًا أو خطأ، فهو متروك في العادة لكل مستمع ليقرر ذلك في نفسه. في خاتمة الحديث يأتي مشهد في العادة لا يكاد كل غريب مثلي يصفه، إذ تُدفَع الكراسي إلى الخلف، ويقف جميع الحاضرين



Twitter: @ketab_n

وكأنهم امتثلوا لأمر عسكري، ليتبادلوا بينهم ملامسة كؤوس النبيذ، يقوم المرء بهذه الحركة في العادة كثيرًا، بحيث لم أكن في البداية أفهم ماذا يُقصد بهذا المشهد. يجب الآن على المضيف الممدوح والمجامَل أن يقوم بنفس الصنيع طبعا، كما وصفتُ سابقا، للتعبير عن شكره. كان مثل هذا الأمر يُحدِث لي في كل مرة بلبلة واضطرابًا في نفسي، وأكون سعيدة جدًّا دائمًا عندما أقوم عن المائدة وأذهب إلى غرفة أخرى.

عندما ذهب ضيوفنا وقال لي زوجي إنه قد تم الإشادة والثناء على حفلتنا الأولى، أصبحت أيضًا مطمئنة إلى حدّ ما، أننا لم نُسوِّد الوجه كثيرًا مثلما خشيت في نفسي طوال اليوم، ولذلك كنت سعيدة جدًّا من قلبي أن أجتاز بسلام مأدبتي الأولى في بيتي، في هامبورج، المدينة صعبة الأسلوب. توجّب عليّ أن أقول في نفسي لو كان في هذا المجتمع فقط قلة من الناس، الذين لا ينتقدون الآخرين ويتجاوزون، على الأقل، عن هفوات امرأة عربية غير متهذّبة بتقاليدهم وآرائهم.

لا تعرفين كم كانت في البداية صعبة ومعقدة الحياة الأوروبية، صادفت عقبات كثيرة في كل مكان، فقد ساقتني قدماي غير المتمرستين في مثل هذه الظروف إلى كثير من العثرات. أن يأتي إلينا الأوروبيون في زنجبار، حيث يمكنهم أن يتمسكوا دائمًا بأسلوب حياتهم، هو أمر بدا لي سهلاً بالمقارنة مع وضعي، كانوا يضعون أمامي عوائق في كل مكان، وكان يجب عليّ أن أحاول التعامل معها بصمت رغبة مني في أن أَظهر في أعين هؤلاء الناس أنني لست قليلة


Twitter: @ketab_n

الحيلة.. الانطباعات التي كنت أحسّ بها باستمرار أثرت سريعًا وبشكل متلاحق في نفسي التي كأنها انتبهت من نوم، فقد كنت أشعر في داخلي كأنني في حلم. كان هناك كثير من الأشياء التي كان لا بدّ عليّ أن أدركها وأفهمها بسرعة قدر الإمكان، إذ كان يجب عليّ أن أتحمّل الحياة في المحيط الغريب عني تمامًا، لم تجد لي الأوضاع الراهنة معنى للشفقة والتساهل، وهكذا لم يبقَ أمامي أي خيار سوى أن أتحمل نتيجة هذه الأوضاع، كل شيء بدا لي في البداية صعبًا ومنيعًا على الإطلاق، ولا سيّما أنني لم أستسغ شيئًا، ومع ذلك كان يجب عليّ أن أقلّد وأحاكي، آه كم تمنيتُ لو أني بقيت في مارسيليا الجميلة، حتى أكون مطمئنة بالقرب من مدام .M وابنة أخيها. ليس هناك أصعب شيء لتحمله أكثر من أن يتصارع الانسان مع نفسه. ولكن من الجيد ألا نُسلِم أنفسنا المتأزمة كلّ يوم إلى الشك والحيرة؛ لأن العالم الذي لا مشاعر له ليس لديه تفهم صحيح لما نشعر به ونحسه في أعماقنا. فمن يحس بأتراحنا وأفراحنا هم أصدقاؤنا الحقيقيون فقط، وليس العالم الأجنبي، وفي ذلك الوقت كان أصدقائي، باستثناء زوجي، تقريبًا مختلفين عني. لو كنت وُلدت مثلاً في القسطنطينية أو القاهرة وتربيت فيهما حيث الثقافة الأوروبية قد توغّلت فيهما منذ زمن، لما أحسست، ربما، بتباين الشرق والغرب بهذا القدر، ففي كلتا المدينتين توجد منذ وقت طويل عادة أن يُعهد بتربية البنات الناشئات إلى مربيات أوروبيات، والعادة أيضًا أن يُعلّمنَ الموسيقى بجانب اللغات الأوروبية المختلفة، وكذلك الأكل على النمط الفرنسي، أي الأكل على الطاولة وبالسكين والشوكة، أما ما


Twitter: @ketab_n

يتعلق بالتزيّن والتجمل فلا يوجد في القصور بالكاد فرق بين المسلمة والباريسية، فلو قدّر لمسلمة أخرى من القسطنطينية أو القاهرة تحت الظروف نفسها أن تعيش في أوروبا لما احتاجت كثيرًا أن تكابد ذلك التباين الذي أُجبرتُ على معايشته آنذاك، فقد كنتُ ألبس حتى وقت قريب زيّ أسلافي القديم منذ آلاف السنين، وكنت أستخدم أصابعي الخمس كسكين وشوكة طبيعيتين. ولنفاد صبري كان تعلم اللغة الألمانية يمشي ببطء شديد، وكنت أقول في نفسي إنه سيسهُل عليّ كثير من الأشياء حالما أستطيع أن أتفاهم قليلاً مع الناس، قبل كل شيء كنت أحسد الناس، الذين يذهبون بكتبهم الإنشادية يوم الأحد في الصيف إلى الكنيسة، في الوقت الذي تعودنا أن نقوم فيه بجولة، كنت متلهفة ومتشوقة أخيرًا إلى التعرف كيف يصلي المسيحيون، فطلبتُ من زوجي أن يصحبني إلى الكنيسة. وفي يوم من أيام الأحد ذهبنا إلى هناك وعندما كنت أمام الباب أنوي الدخول خالجني شعور كأنني أوشك على ارتكاب خطأ ما، ولكن الآن لا أستطيع فعل أي شيء سوى الدخول، حتى لا أحرج زوجي، وعندما جلست على مقعد بين أناس آخرين أصابني ضيق صدر لا يوصف، وأخذ يزيد باستمرار عندما رأيت أن الصلاة قد طالت على غير توقعي، لم أفهم بالطبع كلمة واحدة من كل ما أُنشد ووُعظ به، ولكن الشعور أنني في حضرة قدسية سرعان ما هدأني. لم تعجبني الصور في الكنيسة؛ أولا لأنه محرّم لدينا بشكل صارم أن توجد أي صورة في المكان الذي نصلي فيه، وثانيا وجدت أن الصور تتعارض مع الخشوع، الأمر الذي اعتبرته معصية. ووجدت عدم إظهار المصلين للخضوع الظاهر



Twitter: @ketab_n

أمام الله تعالى، أعني أنهم لا يسجدون، غريبا جدًّا وتكبّرًا وكان أمرًا غير مريح لي على الإطلاق، وأَحَسّ أيضًا قلبي غير المثقف تمامًا بآراء الغربيين أنه تدنيس وانتهاك أن يُتَسوّل المال في أثناء الصلاة. أعترف بصراحة أني اعتبرت أمرًا دنيويًا للغاية أن يُطلب المال في بيت الله وفي أثناء الصلاة، لأنه بمجرد أن يدخل الإنسان إلى بيت الله وجب أن تسود لديه فكرة وحيدة فقط، وهي أن كل نفس ينبغي أن تستمسك بمطلق العبودية لله والتسليم له، وليس أن يتذكر المرء في مثل هذا المكان متاع الدنيا. كما كان جديدًا عليّ تمامًا أن أصلي بين مئات من الناس.



Twitter: @ketab_n

# أعياد الميلاد في ألمانيا

لم أكن على ما يرام في أول شتاء لي في الشمال، فقد أصابني سُعال لازمني أكثر من نصف سنة، وفي أثناء مرضي هذا عرفت قيمة المناديل التي يحملها الناس هنا في هذا البلد، مَثَله مَثَل التميمة عندنا. عيد الميلاد على الأبواب وهذه الأيام بكثرة ضبابها وعتمتها تبعثُ فيَّ الكآبة إلى حدٍّ لا يوصف، وحتى الآن- وبعد عدة سنوات- لا يزال المناخ يؤثر في صحتي تأثيرًا كبيرًا، وقد كنت أشعر بارتياح في الشتاء في الأيام المشمسة والمعدودة جدًّا. أدركت لاحقًا أيضًا، لماذا يعاني الإنجليز من «لوثة»، مثلما يشاع عنهم، في شهر نوفمبر وديسمبر. إن يومًا ضبابيًا كئيبًا كان يسبب لي اكتئابًا حتى إنني أرغب في البكاء كأفضل حلّ.. لفتتني عجلة الناس في الشوارع كثيرًا بطرودهم التي لا تُحصى عندما دنا عيد الميلاد، حتى إنني كنت أثقل على زوجي دائمًا بالأسئلة، فقد بدا لي الأمر جديدًا تمامًا أن يَسأل هنا كلُّ أحد الآخرَ ماذا ينبغي أن يُهديه، على سبيل المثال: «فريدريك ابني! ماذا تتمنى في ليلة الميلاد؟» أو مثلاً: «الحبيبة أنّا! ماذا يُمكنني أن أهديك؟» ... ولذلك كنت مندهشة كثيرًا عندما سألني زوجي في أحد الأيام عن أفضل ما أحبّ؛ إذ لم يكن لدي رغبات معينة، فلديّ كل شيء



Twitter: @ketab_n

أحتاج إليه. في هذا الوقت كنا نذهب كثيرًا إلى المدينة لنشتري الهدايا لأقارب زوجي ولخدمنا، أعجبتني هنا كثيرًا فكرة أن الناس، من أدناهم إلى أعلاهم، يمكنهم أن يختاروا مشترياتهم بأنفسهم، هذا الأمر بدا أفضل بكثير وأكثر راحة مما لدينا إذ يُعتمد على فطنة العبيد وذوقهم. تعودت إلى الآن أن أوفر مشترياتنا فقط بمعية زوجي، ولهذا كان صعبًا عليّ جدًّا أن أشتري له شيئًا بمناسبة العيد من دون أن يعلم، فأتى لي أن أعمل شيئًا آخر؛ فقد كنت لا أفهم اللغة الألمانية ولا أتحدث بها، وددت أن أهديه ساعة جيب ذهبية فأقاربه لم يعودوا جيدين معه. وفي أحد الأيام تجرأت وذهبت بمفردي إلى المدينة في وقت تأكدت فيه أن زوجي في العمل وأنه لا يمكن أن يصادفني بسهولة في الشارع، وبعدما عاينت من الخارج المتاجر الجميلة في شارع يونج فيرن شتيج، وفي نوي فال، وقلبي يرتجف، تسللت إلى أحد متاجر الساعات ووقفت أمام صاحب المتجر الذي انحنى لي بشكل مهذب وبدأ الحديث معي، بالطبع لم أكن أفهمه، كانت حيلتي فقط أن أشير بإصبعي إلى الساعات الجميلة التي لديه في الصندوق، المسكين كان ينظر إليّ متعجبًا، ولم يعرف، على ما يبدو، كيف يتعامل معي، هزّ رأسه وهمّ أن يجلس مرة أخرى. ولكن هذا التصرف غير المهذب لم يعجبني على الإطلاق، وأشرت بإصرار وبجدية إلى الصندوق، وأخيرًا كلّف نفسه وفتحه لي، بدأتُ في اختيار ساعة، وفي أثناء ذلك كنت أحسّ أنه كان يراقبني بحدة، فمن يدري لعله كان يعتبرني في هذه اللحظة لص متاجر، وعندما وجدت ساعة أعجبتني نشأت صعوبة كبيرة عندما حان الدفع؛ إذ لم نستطع


Twitter: @ketab_n

أن نتفاهم في النهاية أبدًا، نفد صبري فأمسكت ذراع الرجل الذي كان مندهشًا كثيرًا وفركت إبهامي بسبابتي، حيث كنا نتعارف بذلك على الدفع لدينا، وفي الوقت نفسه أشرت إلى الباب، بالقرب منه كنت أعرف بائع مجوهرات معروفًا وكنت آمل أن يُخلّصني من هذا الوضع المحرج، فذكرت له اسمه وما دريت إلا ووجهه يتهلل بعد أن كان ينظر إليّ قبل وقت قليل بريبة شديدة، وهكذا ذهبنا معًا، وقد أخذ الساعة التي اخترتها معه، إلى بائع المجوهرات المعروف الذي أثق فيه وأصدق كلامه، حتى يتخذ التدابير لإنهاء قضيتي مع صاحب الساعات! لاحقًا أخبر الجواهري زوجي عن هذا الموقف المميت من الضحك، وود الإكثار منه إلى حد التخمة. ذهبت إلى البيت بعدها وفي نفسي كنت شامتة بخصمي، بعدما اشتريت مجوهرات صغيرة لسلسة الساعة من بائع المجوهرات، منقذي من الموقف المحرج، ولكن وأنا في الطريق إلى البيت ساورني خوف أن يصادفني زوجي، وعند ذلك سيكشف مفاجأتي في الوقت غير المناسب، وسيكون عليه من السهل تخمينها، فقد كنت لا أخرج من دونه إلا على مضض. في ليلة الميلاد وبعدما قدمّنا لخدمنا الهدايا، توجهنا بعربة بهدايانا إلى والدَيْ زوجي؛ حتى نقضي الليلة معهما، كان عيد ليلة الميلاد الأول الذي أحتفل به، وكان حتى الآن غير معروف لدي تمامًا كيف يحتفل المسيحيون بأعيادهم، ولذلك كنت في لهفة شديدة للتعرف على الطقوس الغربية. ولأنني قد رأيتُ الصور في الكنيسة دون أن أعرف غرضها ومعناها الفعلي، ولم أُرد أيضًا أن اسأل زوجي عن ذلك، احترامًا لمشاعره تجاهَ دينه من جهة (فما الذي كنت أعرفه آنذاك من


Twitter: @ketab_n

الطوائف الكثيرة للمسيحية؟)، ومن جهة أخرى، وهذا كان لي السبب الأهم، حتى لا يظهر لي أنّ الدين المسيحي في الحقيقة هو مثل ما كان يعتبره المرء أحيانًا لدينا أنه كفر، لأن هذا سيكون مباشرة ضد اعتقادي، ولهذه الأسباب المذكورة تجنبت أي سؤال يخص العيد الذي على الأبواب. عبرنا في طريقنا أحد الشوارع الأكثر اكتظاظًا، حيث السائرون بالكاد كانوا يمشون، كل الناس بدوا لي في هذه البطء الذي كنت لا أعرف سببه إطلاقا، ولا يمكن أن أنسى أبدًا تأثر رجل أطلق رجليه للريح وهو يحمل بكلتا ذراعيه بمشقة ساعة بندولية، حيث أفسح جميع الناس له الطريق. عندما توقفت العربة رأيت أشخاصًا يُطلّون علينا من الطابق الأول للبيت، أتى إخوة زوجي الصغار وساعدونا في حمل الهدايا، وعندما صعدنا إلى الأعلى وجدت كل شيء مبهما وغامضا والهمس بدا على الإطلاق ليس له نهاية، لم يسمح لي بالدخول إلى غرفة الطعام، الأمر الذي زاد فضولي أكثر، الآن أمكنني أن أسمع قرع جرس من غرفة الطعام الغامضة، وعلى إثره ركض الأطفال مبتهجين، «بيبي» ناداني زوجي، «إميلي» ناداني الآخرون فذهبت إلى هناك، في ذلك المكان وقفت أمام شجرة تحمل مصابيح مضيئة كثيرة، وعُلّقت فيها مختلف الحلويات. أُخِذت بعدها إلى طاولة بها كل الأشياء التي أعدت لي، نسيتُ تمامًا أمر الهدية الرئيسية، فقط حينما قال لي زوجي الطيّب: «بيبي! هذا أيضًا لكِ»، نظرت من قرب إليه، كان معطفًا مخمليًا كبيرًا مُبطّنا بالفرو، وقد طُرّز من الأعلى إلى الأسفل بما في ذلك الكمّ بنوع آخر من الفرو، يمكنك أن تتصوري دهشتي أيضًا عندما نظرت



Twitter: @ketab_n

إلى المعطف الذي يُعدّ ثمينا جدًا بالمفهوم الأوروبي. ماذا - دار في نفسي-: هل ينبغي لك هنا أيضًا أن تلبسي الفرو الذي لا يرتديه عندنا إلا الزنوج البدائيون؟ لا، هذه إساءة لي من زوجي، لم يسعني إلا أن أقول له بالسواحلية: «هل يمكن أن ألبس هذا الشيء أيضًا؟ لتهديني الآن إياه؟»، «بيبي، بيبي، هذا من الدرجة الأولى؛ لأن الفرو الخارجي يسمى هنا الهِرملن، ولا يلبسه في أوروبا إلا الأمراء» - «الأمراء يلبسون مثل هذا؟! ولكن لماذا؟ هل الأمراء هنا فقراء إلى هذه الدرجة مثل زنوجنا في زنجبار؟» - «لا، ليس هكذا على الأرجح» وهو يضحك، ولكن الهِرملن هنا شيء نفيس جدًا.. يجب أن أعترف بصراحة أنني احتجت إلى وقت طويل لأعتاد زيّ الأمراء الأوروبي هذا، ففي ذلك الوقت، كانت قيمة هذا الفرو (هيرملن) بالنسبة لي كقيمة فرو القِطّ.

هل ينبغي لي الآن أن أفصح عن رأيي في عيد الميلاد الأول؟ الآن نعم، ولكن الكلام عن العادات والتقاليد لأمم مختلفة هو أمر له حساسيته، فقد يُتعرض للإساءة إلى هذه الأمم من دون قصد، أود أن أصف لك انطباعي الشخصي فقط، الذي كنت أحسّه، ولكن لا شيء أكثر من ذلك. كنت أعتبر الدين البروتستانتي، إلى هذا الوقت، هو الأكثر قربا إلى نفسي، وتمنيت لشخصي شيئًا أكثر من الرسميات، ولكنني وجدت في ليلة الميلاد أن المرء يتجاهل تمامًا، وللأسف، غرض العيد الحقيقي، دهشت عندما علمتُ أنه يُحتفل بمولد المسيح ولكن دون التفكير مع ذلك، على الأقل، في الصلاة. هل يمكنك أن


Twitter: @ketab_n

تتصوري ذلك؟ بالتأكيد ليس بتلك السهولة، ولكن الأمر هو كذلك! كنت، كما قلت، محبطة كثيرًا، وفضلت هدايا قليلة من أجل أن أحظى بعيد دينيّ بعض الشيء، بالطبع لم أرغب في معرفة شيء من ذلك، ولكن كان يكفيني فقط رؤية صلاة دينية، لتبعث في نفسي الخشوع.. ومن الآن بدا لي واضحا كم هو نسبيّ أن تكون مسيحيا، ولذلك كان صراعي مع نفسي يصبح يومًا بعد يوم أكثر إيلامًا، فكرت في أعيادنا وتلاحقت إليكم الأفكار سريعًا، كرمي السهام، وكأنني أبحث لديكم عن المفقود. في الصباح التالي (٢٥ ديسمبر) لم يكن استغراب زوجي قليلاً حين رآني نازلة من غرفة النوم على الدرج في الساعة العاشرة صباحا وأنا رافلة في حُلّة كاملة، فواجهني بهذا الكلام تقريبًا: «يا إلهي! بيبي ماذا هناك وإلى أين تودين الذهاب؟!»، دلفت نازلة بكل هدوء، أجرّ ذيل الفستان الطويل، ثم سألته إن لم يكن هو بنفسه من قال لي إن اليوم وغدًا هما يوما عيد! - «نعم، بيبي، مثل هذا يُفعل لديكم ولكن الأمر هنا مختلف».. أمة غريبة هنا في بلاد الشمال! ثم ذهبت لأغير ملابسي وألبس الملابس العادية. ومثلما لدينا، تُعدُّ هنا في الأعياد أنواع خاصة من الأطعمة والكعك.

وحتى لا يأخذ زوجي في خاطره توجّب عليّ أن ألبس معطف الفرو الشنيع عند خروجنا القادم، ولكن بأي شعور فعلتُ ذلك؟! يمكنك أن تتصوري ذلك بكل سهولة. وقد كنتُ أتمنى أن يأتي إلينا لص لطيف ليلاً ويسرق هذا المعطف، كنت سأتركه يُنجز عمله بكل راحة ودون أن يعوقه شيء.



Twitter: @ketab_n

أصابني ليلة رأس السنة ذعر كبير بسبب خادمة قد سكرت غاية السكر. كانت العادة الألمانية المألوفة هنا أن يُعدّ زوجي نبيذ رأس السنة، الذي لا مفر منه، له ولإخوته، ويحصل الخدم في هذه المناسبة على كأس ممتلئ بالنبيذ، لم أستلذ الجرعة الأولى على الإطلاق كحال سائر الأشربة اللاذعة، وهكذا بقيت غير مشاركة، وعندما أردت الذهاب إلى النوم في الساعة العاشرة كالمعتاد استدعيت الخادمة بالجرس حتى تنير لي الطريق إلى الأعلى، ظلت طويلاً على غير العادة، وهكذا مشيت إلى الممر لأنادي عليها من القبو، وأخيرًا أتت وهي تصعد الدرج متثاقلة وبلكنة مخمورة كانت تقول لي مرارًا: «سيدتي لا تزال تفصلنا بعض الدرجات» ثم تهاوت ثَمِلةُ النبيذ من على السلم - ولأنه لم يحدث حتى الآن لحسن الحظ أن أرى سكران قريبًا مني كهذا القرب ولكن سمعت فقط بمثل هذا «الكافر»، مثلما يسمى السكران عندنا- صرخت لهذا المشهد بحيث هُرِع إليّ زوجي من غرفة الطعام. ومنذ ذلك الحين صرت أنتبه لمقدار النبيذ الذي يصلح لكل خادمة في ليلة رأس السنة؛ فقد نبهتني هذه الصدمة لأخذ الحذر.. ما رأيك بهذا العطش، وأكثر، بهذا الولع بالشرب؟!

كان تزحلق مجموعة كبيرة بالآلاف على النهر المتجمد مدهشًا جدًا لي في البداية، وكنت لا أتمكن بما فيه الكفاية من مشاهدة الناس من الحديقة أمام منزلنا، الذين بدوا وكأنهم يحملون نوعا من الأجنحة غير المرئية. ولم يسعني إلا أن أشبه فتاة من معارفنا، كانت بارعة جدًا في ذلك، بقارب شراعي صغير يتراقص مع الريح. بُذل



Twitter: @ketab_n

جهد شاق لتعليمي التزحلق على الجليد ولكن للأسف كان عبثا؛ فأقدامي غير الماهرة والتي إلى هذه الأيام لا يمكن أن تتحرك على سطح الثلج إلا بخوف شديد، لم تستطع أن تتعلم هذه المهارة. قال لي ذات مرة رجل ولكن بعد وقت طويل عندما لاحظ عدم براعتي، هكذا إذن لا يمكن أن تُقادَ حضرتك إلى الثلج بكل بساطة. كم بدا هذا الرجل بارعا بهذه التورية!



Twitter: @ketab_n

# الأسرة ملاذًا

أخيرًا أتى الصيف، ولكن ليس بتلك الحرارة، لكنه مناسب للعجلة الدائمة وتكالب الناس هنا، كنت أُسَرّ كالطفل بالأوراق الأولى للأشجار التي تبدو خلال ستة أشهر تقريبًا كالمِقَشّة، فيظن غير العارفين بأن هذه الأوراق كلها مرة واحدة قد يبست وجفت وتوجب قطع الشجرة.. كنت في غاية السعادة عندما تمكنا من الجلوس مرة أخرى في الحديقة، في الهواء الطلق، فالجلوس طيلة أشهر في الغرف المُدفأة، التي لا يلحقها الهواء إلا أحيانًا، كان لي بما فيه الكفاية، وكثيرًا ما كنت أشعر في مثل هذه الغرف بضيق الصدر حتى إنني كنت أخرج رأسي كثيرًا من النافذة وفي البرد القارس حتى أتمكن من استنشاق الهواء قليلًا، كنت أمارس هذه العمل فقط لبضع دقائق، فالهواء البارد الذي لا يوصف كان يدفعني سريعًا إلى أن أكفّ عن ذلك، وكان التعطش للهواء الطلق يؤذيني كثيرًا.

في مثل هذا الوقت كان الناس يتبادلون بينهم هذا السؤال: «أين ستسافر في هذا الصيف؟»، وكذلك الأمر بالنسبة لنا، إذ يُطرَح على زوجي هذا السؤال، وعندما يُترجم لي، تصيبني دهشة غير قليلة لسماعي أن كل الناس، طبعًا بشرط أنهم يملكون المال الكافي،



Twitter: @ketab_n

تعودوا كثيرًا أن يتركوا المدينة لعدة شهور، وعلى سؤالي إن كان يجب علينا أن نسافر أيضًا فقد أجابني زوجي طيب القلب والمتسامح دائمًا لحسن حظي بإجابة مطمئنة بأننا سنمكث في البيت في حال لم تكن لدي الرغبة في السفر. تودين بالطبع أن تعرفي لماذا يترك الناس المدينة في الصيف؟ وأيضًا على الأرجح إلى أين يذهبون؟ في هذه المدن الأوروبية الكبيرة، بيوت وشقق لا يُرى فيها لا شجرة ولا شُجيرة. نعم، ويوجد حتى ما يسمى بالقبو (طابق تحت الأرض)؛ حيث بالكاد يمكن للساكنين البائسين رؤية السماء بشكل كافٍ، ومثل هؤلاء الناس هم فقراء ومحتاجون حكم عليهم القدر أن يحيوا ويموتوا في مثل هذه البيوت. إذن يذهب الأثرياء من السكان إلى الريف أو إلى شاطئ البحر حتى يشعروا بالصيف قليلًا ويسترخوا من الشتاء، مثلما يقول الناس هنا. لاحقًا حصلت على فرصة للقيام برحلات استجمام، مثلما تسمى هنا. وكان وقت الرحلة في عطلات المدارس هو الأفظع، مثلما يمكنك أنت تتصورين. وفي رحلات الذهاب والإياب يكون المرء محظوظًا، إذا لم يُفعص ببساطة في قاطرة القطار، وفي هذا الجو السائد نفضل الصمت كثيرًا. يسود في هذه الأوقات في محطات القطارات هرج ومرج الناس، هذا المشهد يذكر كثيرًا بيوم القيامة مثلما تعلمناه في القرآن.

بدأت تدريجيًا بعد أحد عشر شهرًا من الدراسة، في كل يوم ساعتان، أفهم قليلًا اللغة الألمانية، حيث إنني إثر ذلك بوقت قصير توقفت عن الدرس؛ ولكن درس القواعد الذي كان بالنسبة لي عائقًا


Twitter: @ketab_n

لا يمكن التغلب عليه فضلت إعفاء معلمتي المتفانية منه. اللغة الألمانية من أصعب اللغات وقواعدها كالجوزة الخشنة على الغريب، يحتاج المرء كثيرًا من الوقت للتغلب عليها. وبسبب قلة معرفتي بالظروف المحلية واللغة كان من المتوقع أن يحاول خدمنا المحترمون أكل أموالنا قدر طاقتهم، إذ كنا تقريبًا طوال سنتين كاملتين تحت تصرفهم، وعشنا في شقتنا الخاصة حياة فندقية كان من النادر علينا أن نعرف ما يمكن أن نحصل عليه من الأكل، وعند المائدة فقط نرى ما رآه هؤلاء جيدًا ليكون طعاما لنا، ولأن الباطل نادرًا ما يُفلح فقد تبين لنا مع الوقت كيف كان يستغلنا هؤلاء الخدم كثيرًا، وعندما علمتُ بذلك رأيتُ من واجبي أن أرعى شؤون البيت وأقوم بأموره بنفسي، وكان أول شيء فعلته أن قمت بتغيير جميع الخدم القدامى، فقد أثبتوا عدم إخلاصهم بما فيه الكفاية، وهكذا لم أسمح لأي منهم بالبقاء، حتى لا يكونوا قدوة سيئة للخدم الجدد، ومن الآن فصاعدا تدبرت أيضًا دفتر ميزانية البيت، طبعًا باللغة الألمانية ولكن لا تسأليني رجاءً «كيف»! الأخطاء الكثيرة التي لا تحصى والخط غير الواضح، يمكنك أن تتخيلي ذلك. لقد توليت مصروف البيت، وأنفقت بنفسي على كل شيء، ونظمت أيضًا الرصيد الضروري، وقمت بنفسي بعمل قائمة الطعام اليومي، وبوظيفتي الجديدة هذه نمت مقدرتي تدريجيا على معرفة نظام المعيشة، وبالكاد تمضي نصف سنة من بدئي بالمنصب الجديد حتى استحققتُ ثناء زوجي، فقد أصبحنا نأكل أفضل من السابق، وكانت المزيّة أننا وفرنا نصف ما كنا نستهلكه حينما كان يتحكم بنا الخدم.



Twitter: @ketab_n

في الصيف الثالث (١٨٦٩) من إقامتنا في هامبورج ارتأى زوجي أن نقوم برحلة إلى كوبنهاجن، قطعًا لم أكن مرتاحة لذلك، لأنه كان ينبغي لنا أن نسافر من دون طفلينا. بدا لي غير منطقي أن يترك الأطفال الصغار، وعمر الأصغر منهم أربعة أشهر فقط (سعيد ولد ١٨٦٩)، دون سبب موجب، فقط من أجل التنزه، كانت سذاجة مني، أعترف لك أنني ذرفت الدموع ولم أنم تلك الليلة التي سبقت رحلتنا «للنزهة». سنبتعد عن الأطفال أربعة عشر يومًا فقط، ولكن بدت لي المدّة طويلة جدًّا، وبدا لي أن أترك الأطفال من أجل أن أتلهى شيئًا عديم الشفقة، وعلى سؤالي ماذا يجب علينا أن نفعل في كوبنهاجن، فقد أجابني زوجي إجابة لم أستسغها: «لا يمكن أن تكوني دائمًا مع الأطفال لأنك ستتركينهم على أي حال في وقت ما»، هل يمكنك أن تتصوري مثل هذا؟ أنا بالطبع لا. وكذلك، عندما أخبرني زوجي الطيب عن المرأة .C التي غادرت منذ وقت قريب مع زوجها إلى الصين، وتركت أولادها الصغار باطمئنان في هامبورج لعدة سنوات. رأيت أنه لن يجدي شيء مع زوجي، خاصة وأنني لاحظت أنه كان مصرًا جدًّا على أن أصحبه في الرحلة، وهنا اتهمني مازحًا أنني أحب الأطفال أكثر منه، بالطبع لم يكن الأمر كذلك. وهكذا وصلنا إلى كوبنهاجن، وكان أول شيء نزوره متحف تورفالدسن، كل الأشياء الجميلة التي رأيتها هنا لأول مرة لم تحرك فيّ أي شيء، وحتى الحفلة الموسيقية في كلامبنبورج التي حضرتها الأسرة المالكة، لم يكن لها تأثير فيّ، فقد كان فكري دائمًا مع أطفالي، وفي نهاية المطاف بدل أن نظل أربعة عشر يومًا مثلما نوينا،



Twitter: @ketab_n

رجعنا إلى البيت بعد أقل من ثمانية أيام. أعتقد أنني كنت أسعد إنسان في ذلك اليوم، فقد تمكنت من احتضان أطفالي الصغار مرة أخرى.

كانت أول قراءاتي في اللغة الألمانية هي إعلانات الجرائد، وكنت فخورة كثيرًا بهذا الإنجاز؛ لأنني في البداية ظننت أنه من غير الممكن أن أتعلم اللغة. مرّ الوقت عليّ دون أحداث جديرة بالذكر، ولكن مرة أصابني شيء من القلق، والذي مر لحسن الحظ سريعًا، فقد أوشكنا على الانتقال إلى فالبارايسو، وسيكون عليّ صعبًا جدًّا التواصل معكم من أمريكا، فضلاً عن أن انتقالي إلى ألمانيا مؤقتا كان فيه كفاية، مع أن الطقس في تشيلي سيكون أفضل لي بكثير، وهكذا بقينا في ألمانيا. وفي ربيع ١٨٧٠ توجّب على زوجي أن يسافر إلى إنجلترا لمهمة عمل لبضعة أسابيع، وبطبيعة الحال كان يجب عليّ أن أبقى في البيت؛ لأن طفلتنا الصغرى روزالي (ولدت ١٦/ ٤/ ١٨٧٠) لم يكن قد مضى على ولادتها ستة أسابيع، ولكن التفكير في البقاء هو أسهل من تجربته، فَأنْ أظل هنا في الغربة لوقت قصير وحيدة تمامًا هو بمثابة رعب لي، توسّلت إلى زوجي أن يصطحبنا معه، «لا بيبي، هذا لا يمكن؛ لأنه يتوجب عليّ أن أزور مدنا كثيرة في إنجلترا حيث لا يمكنكم أن تأتوا معي إلى كل مكان، ولكني بعد أربعة عشر يومًا أوعلى الأكثر ثلاثة أسابيع سأكون معكم»، حاول زوجي بطريقته أن يهدئني بسبب خوفي من أن أظل وحدي في هامبورج من دونه.

ستتعجبين بلا شك من أنني احتجت إلى وقت حتى اعتدتُ الظروف الجديدة، ولكن أرجوك لا تتعجلي في الحكم عليّ،



Twitter: @ketab_n

وصدقيني قد يبدو لك أن الاندماج في أمة مختلفة جدًّا بهذا القدر سهل، ولكن في الحقيقة هو ليس كما تتصورين. في الظاهر وبقدر ما أستطيع أظهرتُ تصرّفًا مغايرًا قليلًا عما أنا عليه في الواقع، فمن دون زوجي كنت أشعر دائمًا في نفسي أنني وحيدة وبحاجة إلى المساعدة. والدليل على ذلك أنني في هذا الوقت كانت أفكاري دائمًا معكم؛ مع أنني كنت خالية الهمّ وعوملت بكل حبّ وإخلاص من قبل زوجي، فقد كنت حقًا لا أرى أحدًا في المنام سواكم ليلة إثر ليلة. آه كم مرة مازحني زوجي عندما كنت أحيانًا أذهب إلى النوم مبكرًا، إذ كان يقول لي دائمًا: «هكذا ببيبي، هل ترغبين بالسفر غدًا باكرًا إلى زنجبار؟ إذن سلمي على أصدقائك الذين هناك».. مرت الأسابيع الثلاثة عليّ ببطء شديد، وفرحت حينما عاد زوجي من رحلته إلى البيت مرة أخرى.



Twitter: @ketab_n

# الحرب بين ألمانيا وفرنسا

بعد بضعة أسابيع اشتعلت الحرب الكبيرة بين ألمانيا وفرنسا، وجعلت الناس في هلع كبير، تقرّر أن نؤوي بعض الجنود لوقت قصير ولكننا آويناهم في نزل بسيط، نظرًا للمتاعب المرتبطة بذلك. قامت الآن بين الأمتين حرب لا يمكن لكم في جزيرتكم الآمنة تصورها، فمئات البشر يُضحّى بهم من الجهتين، تقريبًا مثلما يُضحي المسلمون الأضاحي الكثيرة التي لا حصر لها في جبل عرفات، حيث، وكما يُزعم قديما، وجد أبونا آدم وأمّنا حواء أنفسهما بعد إخراجهما من الجنة. وبنشوب الحرب كان الناس هنا متكهربين، فكل العالم لا يتحدث بشيء أكثر إلا عن الحرب، ويتعجب المرء من وطنية الألمان، فتضحيتهم بالنفس والنفيس ذلك الوقت لا تحد بحدود. إن ما تستنزفه مثل هذه الحرب من الخسائر البشرية والمالية يفوق كل وصف، وللانجرار إلى مثل حرب الإبادة هذه، وبالمناسبة المسيحيون ضد بعضهم، يَبدأ المرء في أوروبا في وقت مبكر جدًّا بتربية الأولاد على هذا الأمر. وجميع الدول الأوروبية واقعة من قريب أو من بعيد في داء عضال، هو الغيرة، لا أحد يبخل على الآخر بها، وكل دولة تسعى دائمًا إلى أن تنافس الأخرى بأي ثمن. كل دولة،



Twitter: @ketab_n

ولو كانت صغيرة، تملك جيشًا كبيرًا من الجواسيس، لديه مهمة استطلاع الجار القريب، وبالطبع يسعى رجالات الدولة أيضًا بين بعضهم إلى تأكيد أنهم ليس لديهم علم بوجود مثل هؤلاء الأشخاص، وبشكل عام يُجتهد في اختراع آلات القتل الجماعية المريعة حتى يجعل الجار في الفرصة القادمة يُحسّ بشكل دقيق بالقوة التي يملكها، دون المساس بالكلام الرنان الذي يؤكد به رجالات الدولة حسن النيات المتبادلة. وويل في هذه الأيام لأمة حلت عليها كارثة الهزيمة في الحرب، فعلاوة على خسارتها في المال والنفس، تُهدّد بتطبيق الضرائب التي ترفع حسب الحاجة. وفي هذه الظروف كان يبدو لي دائمًا أن ما يسمى بمبادئ الإنسان في أوروبا يُطبق ويدرس على الأكثر من أجل تحرير الرقيق فقط، وإلا فما الذي يعني أن تغزو وتنهب دولة زنجية دولة أخرى، مقارنة مع حرب واحدة في الشمال، هنا عندما تخسر أمة الحرب قد تُقطع في الوقت نفسه أجنحتها، فتصاب بشلل تكابده على الأقل عدة سنوات.. وإلا فلماذا يُدقّ ناقوس الخطر عندما يملك المرء عندنا العبيد الذين حالهم أفضل بكثير من بعض الناس هنا. أنت تعلمين نعم، أننا لسنا من أتباع الاشتراكية الديموقراطية، ولكن كنت كثيرًا ما أعتقد أنه سيكون من الأنسب أن تنفق الحكومات الأوروبية المختلفة المال على شعوبها الجائعة، وخاصة في الشتاء، بدل أن تصرفه لما يسمى «تحرير» الزنوج، ولكن يُقرّ كل هذا في الغالب نظريًا من قبل أناس لا يعلمون عن الزنوج في أفريقيا واحتياجاتهم إلا كما نعلم أنا وأنت عن


Twitter: @ketab_n

سكان الكواكب الأخرى.. لا يوجد في أي مكان مثل هذا التباين بين الأغنياء والفقراء وبهذا الوضوح مثلما هنا في الشمال البارد، حيث يوجد مثل هذا البذخ والترف ولكن يوجد من جهة أخرى الفقر الذي يمزق القلب. عاينت ذات مرة حالة من الفقر لدى أسرة من سائقي عربات الأجرة التي لا تملك على الإطلاق أكثر من أطفال صغار متجمدين من البرد وجياع، عندما رأيت هذا البؤس الذي لم يتح لي للأسف أن أفرج عنه كثيرًا، تأثرت طوال اليوم ولم يسغ لي الطعام. ودار في خلدي تلقائيًا أنه بالطبع لا يوجد إثنان من مائة من عبيدنا يرضيان بالمقايضة بهذه الحرية. وهل الخدمة العسكرية الإجبارية شيء آخر عن الاستعباد، التي تعدّ في أوروبا بأكملها، باستثناء إنجلترا، أمرًا متمدنًا كثيرًا، إذ يُتطلّب عند اندلاع الحرب في دولة يسود فيها نظام الخدمة العسكرية الإجبارية، أن ينزل الذكور من الشعب إلى الميدان، من سن السابعة عشرة حتى الخامسة والأربعين، ولكن هذا النظام أيضًا يعني عدالة كبيرة فلا يوجد فرق بين الغني والفقير، ولا بين ابن الأمير وابن الإسكافي، وكذلك اليهود يجب عليهم تمامًا مثل المسيحيين أن ينزلوا إلى ميدان المعركة. من خلال هذا التسلح المستمر والاقتناء المتجدد للجيش يزيد على الدولة عبء مثل هذه النفقات التي تفوق تمامًا تصوراتك. وسيبدو للناس البسطاء جدًّا، الذين ليسوا على صلة وثيقة بالمسيحية وتعرفوا على تعاليم عيسى الوعظية الوديعة والخيّرة من خلال الكتب والقصص فقط، بالطبع غامضا وفاجعا كيف يتنافس معتقدوها فيما بينهم أيُّهم يستطيع أكثر أن



Twitter: @ketab_n

يخترع الأسلحة المميتة والمبيدة للحياة بكميات كبيرة. ولكن شيئًا مثل هذا يسمى هنا تقدمًا! ولكن أنا متأكدة أنكم ببساطتكم ستعتبرون كل هذه المعارف التي تدعى هنا بالتقدم وكل ما ينتمي إلى ذلك، عند معاينتها، بكل بساطة أمرًا شيطانيًا.



Twitter: @ketab_n

# فاجعة

في هذا الوقت العصيب من الحرب بين ألمانيا وفرنسا وقع - كما تعلمين - المصاب الجلل في حياتي. نزل عليّ هذا القدر بقسوة عندما كنت في هذه الفترة قد بدأت تدريجيا أعتاد قليلاً الجوّ والبشر والطعام والظروف المختلفة عني تمام الاختلاف، وكأنها سماء صافية قبل عاصفة، هكذا أحسست حينها بفترة قصيرة قبل مصيبتي حيث كنت في الفراش من أثر حمّى ألمّت بي، وكان يجب عليّ باستمرار أن أضع كمّادات ثلج على رأسي حتى أقاوم الحرارة التي اعترتني نتيجة فطام طفلتي الصغيرة، وعدا ذلك لم يكن هناك أي علامة أخرى للقادم.

في هذا اليوم كنت أَفْضَل قليلاً، فأراد زوجي زيارة أبيه المريض في شقته الصيفية، ولوصول إلى هناك كان يجب على المرء أن يستعمل عربة القطارات. عند الساعة الرابعة عصرًا أتى كعادته إلى المنزل، وبعد نصف ساعة ذهب عني إلى الأسفل ليتناول غداءه وحده، وبسرعة غادر المنزل ولم يمكث طويلاً، فغرقت في سبات عميق، وعندما استيقظت كان كل شيء مظلمًا، في هذه الأثناء أحضرت لي المربية الأطفال لأتمنى لهم ليلة سعيدة. حتى الساعة



Twitter: @ketab_n

التاسعة ليلاً كان كل شيء هادئًا لأنني في هذا الوقت كنت أتوقع رجوع زوجي، بدأ يساورني بعض القلق وأخذ يزداد دقيقة بعد أخرى إذ تعودت كثيرًا على دقته الصارمة في مواعيد الرجوع، وأيضًا كان بالكاد يأكل طعام العشاء خارج المنزل، مثلما يفعل كثيرون. كنت أستمع بنَفَس مضطرب إلى الصفير المستمر للباخرة في بحيرة الألستر التي كانت تمر قريبًا من حديقة منزلنا، فقد كنت أتوقع أنه ربما يكون قد استعمل القطار للوصول إلى المدينة ومنها ركب الباخرة إلى هنا، ولكن ظل كل شيء هادئًا ولم يطرق أحد جرس باب المنزل حتى يريح قلبي من الوساوس التي كانت تعتمل في قلبي ولو للحظة. عند الحادية عشرة أحسست بحمّى باردة فلم أستطع أن أقوم بجولة وبالكاد كنت أستطيع مخاطبة مربية الأطفال، الساعة عند منتصف الليل وزوجي حتى الآن لم يَعُد. بدأت آلاف الأفكار تحلّق في نفسي المضطربة بالحمى في صورة مصيبة تطارد أخرى، وبدأ إحساسي يزيد بأن كارثة ستقع، حينها كانت الحمّى قد بلغت أشدها، ومعها بدأت مخيلتي ترسم صورًا فظيعة؛ كنت أعرف زوجي جيدًا فهو لا يمكن أن يضعني في موقف مخيف كهذا خاصة وأنني مريضة، كل لحظة كنت أرغب أن أقوم، على الأقل، أن أنزل إلى الشارع لعلي أصادفه، كنت أحاول جاهدة أن أبعد هذه الأفكار عني.. ستظل هذه الليلة في ذاكرتي، فقد بدت طويلة كأنها سنوات من عمري.. أخيرًا طرق أحد جرس المنزل بلطف، الحمد لله، خالجني شعور في نفسي أنه قد أتى، وبالطبع تعمّد أن يقرع جرس المنزل بلطف حتى لا يزعجني ويوقظني من نومي، هكذا ظننت، وبأعصاب مشدودة كنت أنصت


Twitter: @ketab_n

إلى خطواته التي أعرفها جيدًا، مضى تقريبًا خمس دقائق على ذلك وكانت بالنسبة لي طويلة جدًّا، لم أتمكن من سماع أي شيء، كان هذا غريبا بالنسبة لي؛ فقد تعود دائمًا حالما يصل إلى البيت ويضع قبعته ومعطفه في الخزانة أن يبحث عني من غرفة إلى أخرى حتى يجدني، ولكن في هذه الحالة كان سيقصد مباشرة غرفة النوم لأن الليل قد انتصف، هكذا خلتُ الأمر في نفسي، ولكن ظل كل شيء هادئا، بدأ يساورني قلق لا يوصف مرة أخرى، وفجأة قفزت من سريري وأنا بقميص النوم، ومشيت إلى الرواق، ثم انحنيت إلى الأسفل وبدأت أنادي زوجي بصوت مرتفع من الدرابزين، علّه يسمعني، وإذا بي أجد نفسي ممسكة بالخادمة التي هبّت إليّ مسرعة وهي تصعد السلم، «أين السيد؟ أين زوجي؟ أنّا، أين زوجي؟» وكان يبدو عليها الاضطراب جدًّا. وددت أن أتحرّر منها وأرمي بنفسي من فوق السلّم، إذ بدا لي واضحا أن هناك شيئًا ما قد حصل لزوجي، بدت لي هذه الفكرة من أول وهلة وقد سلبت عقلي تقريبًا، وفي هذه الأثناء جاءت المربية والطاهية وحاولتا بكل ما أوتيتا من قوة ثنيي عن رمي نفسي من فوق السلم، وإذا بأحدهم يقول لي مواسيا: «سيدتي، زوجك لا يزال حيا ولكنه مريض جدًّا»، كان وقع هذه الكلمات فوق ما تحتمله قواي الخائرة بسبب الحمّى، هنا كدت أوشك على الانهيار، ولكني تمالكت قليلًا أعصابي لبعض الوقت فقط، وفي خضم ذهولي بدا لي أن شخصًا غريبًا يقف أمامي وبصوته المضطرب يقول لي: «سيدتي، استجمعي قواك فزوجك لا يزال حيا، وهو بنفسه من أرسلني إليك»، «أين زوجي؟ أريد أن أراه» سألت في تتابع



Twitter: @ketab_n

سريع، فلا أزال غير عالمة بحجم مصيبتي، «سيدتي، هل عرفتني؟ أنا .R، طبيب جارك»، ولكنه كان يتهرب من الإجابة عن سؤالي المتكرر، تردده لم يعنِ لي إلا كارثة، توسلت إليه بقدر ما عندي من كلمات ألمانية أن يقول لي كل شيء بسرعة وبصدق. عندها أخبرني بالمصيبة، فزوجي كان في الطريق إلى البيت عائدا من زيارة أبيه المريض بالقطار، وحينما كان على بعد مسافة تقريبًا من البيت، قفز من العربة من المنصة الأمامية، كما يفعل وقتها معظم الرجال للأسف، ولكنه لسوء الحظ وقع والقطار لا يزال لم يتوقف بعد فدهسه. ومع أنه قد تعرّض لإصابة قاتلة إلا أنه لم يفقد قواه مباشرة، بل مشى بنفسه إلى محطة عربة الأجرة وأرسل للدكتور .R الذي كان بالمصادفة يسكن قريبًا، فأخذه إلى أقرب مستشفى، بعد أن وصلوا إلى المستشفى وتلقّى الإسعافات الأولية طلب من الدكتور .R المجيء إليّ لإعلامي بالحادث وبلطف قدر المستطاع، وفوق ذلك كان الوقت منتصف الليل لإعلامي بالمصيبة. لم يخبرني الدكتور، بطبيعة الحال، عن مدى إصابة زوجي وحالته الخطيرة ولكنني أدركت من كلامه أنه يريد مواساتي، وذلك كان كافيا لأن أدرك هول المصيبة. تملكني خوف لا يوصف وطلبت فورًا الذهاب إلى زوجي. «لا سيدتي، لا، هذا لا يمكن؛ فالوقت متأخر ولن يُسمح لك بالدخول إلى المستشفى»، هكذا أجابني الدكتور ولكنني رددت عليه أنه في حال لم يصطحبني إلى زوجي فسأقطع الطريق البعيد بنفسي مشيا على الأقدام، وإذا لم يُسمح لي بالدخول إلى المستشفى فسأبقى في الخارج عند باب المستشفى بدلا من الانتظار هنا في البيت، وعندما



Twitter: @ketab_n

أدرك الطبيب المشفق أنني لن أتراجع قال لي أخيرًا: «ولكن الآن، سيدتي، وقبل كل شيء، يجب عليك أن تلبسي جيدًا، فالجو شديد البرودة»، فلبست على عجل الملابس الضرورية ونزلت من الدرج، وذهبت إلى المستشفى برفقة الطبيب والمربية، يا إلهي ما هذا المسير؟! بدا لي كل شيء يسير ببطء، الحصان، والعربة، وحتى سائق العربة بدا لي نعسان، فروحي قد كانت منذ وقت طويل في المستشفى؛ وخيالاتي المنهكة ترسم لي بقسوة أمام عيني صورًا فظيعة لا أستطيع التعبير عنها بالكلمات، فهناك آلام كنت أشعر بها لا يمكن للكلمات أن تصفها، أدعو الله الرحيم أن يحفظ كل أحد من مثل هذا المسير الذي أنا فيه الآن. وأخيرًا بعد حوالي نصف ساعة وصلت العربة إلى مكانها المحدد، أخذني الدكتور .R إلى الداخل ثم ذهب ليبحث عن المفوّض، أتى الأخير وبدا أن دخولي غير ممكن، وعندما لاحظت ذلك جثوت على ركبتي ورجوته: «يا سيدي المفوض، ارحمني ودعني أدخل إلى زوجي» - «هذا ممنوع، ولا يُسمح بالزيارة إلا في الأيام والساعات المحددة»- «كيف؟ ألا يمكنني أن أرى زوجي المسكين الآن؟» يا الله! ما أشدّ قسوة الناس هنا، ثم ما هذا التدخل في خصوصية الآخرين؟! أناس غرباء يحولون فجأة بيني وبين زوجي الذي على فراش الموت غير مكترثين لبؤسي الذي لا نظير له! التصريح والقانون! في هذه اللحظة لا قيمة لهاتين الكلمتين عندي، فقد أحسست في مثل هذا اليأس أنه لم يعد للقانون والسلطة وكل العالم أي وجود على الإطلاق في نظري. أوشكت أن أفقد عقلي في هذه الليلة، وقد أخبرتني لاحقًا مرافقتي أنني نتيجة


Twitter: @ketab_n

فقدان صبري كنت أقطع رواق المستشفى الممتد ذهابًا وإيابًا وأشكو بؤسي بلغة غريبة وبصوت عالٍ، وهو ما لم أعد أتذكره.. الآن لا رجعة إلى البيت حتى أرى زوجي ولو لوقت قصير، فلا يعلم غير الله إن كنت سألقاه على قيد الحياة بعد أن يسمح لي البشر القساة وقوانينهم التي لا حصر لها برؤيته، كانوا يحاولون ثنيي وإبعادي عن المستشفى، ولكنني بالتأكيد لن أذهب طواعية. إن المرء هنا في أوروبا يولد ويربى لكي يخضع ويستسلم لآلاف القيود التي تمسّ الحرية الشخصية وتجعل من الفرد مجرد رقم. لا يتناسب معنا، نحن الشعوب التي تعيش بالفطرة، هذا التقييد، فالقلب لدينا يأتي أولا ثم تأتي بعده القوانين الباردة. وفي النهاية أشفق عليّ المفوّض فوعدني بأن يسمح لي بالدخول إلى زوجي بشرط أن أمكث هناك ربع ساعة على الأكثر وأن أتحلى بالصبر، فإذا اتبعت تعليماته فسيسمح لي غدا بزيارة زوجي مرة أخرى، انتظرت طويلاً حتى يأتي الجرّاح الأول في المستشفى الدكتور .S ليفحص زوجي بعناية ويضمّد الجروح القاتلة التي لا عدّ لها. وفي هذه الأثناء كان المفوّض الطيّب يحاول مواساتي، ولم يكن ذلك سهلاً عليه فيما يبدو؛ فهو نفسه كان يملك قلبًا رقيقًا طيبًا؛ وقد رأيته مرارًا كيف كان يجفف دموع عينيه خِفية. وعندما انتهى الدكتور من معالجة المريض المسكين، وقد كان وقتا طويلاً جدًّا عليّ، أتى المفوّض مرة أخرى ليصطحبني إلى غرفة المريض. الغرفة تكاد تكون مظلمة، وعندما دخلت ارتعدت أطرافي وتوقف نفَسي فجأة، في هذه اللحظة شعرت وكأنني أُصبتُ بشلل في كياني ولم أستطع أن أتفوّه بأي كلمة، اقتربت بمشقة من سريره الذي انبعث منه صوت لا يمكن


Twitter: @ketab_n

أن أنساه أبدًا: «بيبي روحي حياتي أنفاسي»، وقبل أن أسترجع نفسي، «لماذا جئتِ والوقت متأخر، تمالكي نفسك حياتي ولا تبكِي هكذا»، تمكنت من قول بضع كلمات فقط:

- هل تحس بألم شديد؟

- نعم كثيرًا.

- أين؟

- على صدري.

- كيف حدث ذلك؟

- مشيئة الله.

وبالكاد تجرّأت أن أسأله، ثم توقفتُ بعد أن رأيته يجيب بمشقة.

وهكذا جلست بجانبه هناك في الغرفة شبه المظلمة وبجهد كبير تعرفت عيناي على ملامحه الحبيبة، فإحدى يديه كانت تمسك يدي بقوة دون أن أدرك أن ذراعه الأخرى، والتي كانت مغطاة، متهشمة تمامًا.. في اليوم التالي مكثت عنده أكثر، تقريبًا نصف ساعة، حتى أتى المفوّض ليخرجني لينام المريض قليلاً. وبأي مشاعر ودعته، لا أستطيع التعبير عنها بالكلمات، تبادلنا كلمات الوداع وكنا بكل ما أوتينا من قوة نرفض بداخلنا الفراق، خرجت بتثاقل وأنا أمسك بذراع المفوضّ، وفي الخارج عند الرواق أخبرني المفوض الطيب أنه سيسمح لي بالبقاء مع زوجي طوال الوقت وسنتمكن من الحصول على غرفة خاصة. شكرت الرجل الطيب الكبير على ذلك ببالغ الامتنان.



Twitter: @ketab_n

# بين الأمل واليأس

بلغ جسدي من الإنهاك غاية بالكاد كنت أستطيع معها الحراك، ثم أخذت أفقد قوتي تمامًا، فقامت المربية والمفوّض بحملي تارة وبجري تارة أخرى إلى العربة. قضيت بقية الليلة في الشرفة في الهواء الطلق، لم أحتمل البقاء في الغرفة الضيقة، فقد شعرت بالاختناق، وعلى الرغم من أننا كنا في الصيف إلا أنها كانت ليلة باردة، تلحفت بلحاف وجلست هناك غارقة في بؤسي حتى تلاشت النجوم المتلألئة، نجما بعد آخر، إيذانا بيوم جديد، تسللت بعدها إلى الداخل وانتظرت حتى يصحو الأطفال واحدًا تلو آخر، شعرت بحزن كبير وأنا أنظر إليهم وأذرف الدمع كسيرة النفس، وجال في خاطري أنهم عما قريب سيفقدون نعمة الأب. وبعد أن ساعدتُ المربية في تحميم الأطفال وإعداد الفطور لهم، ذهبت في الساعة التاسعة إلى المستشفى، كان يجب عليّ أن أنتظر تقريبًا ساعة في غرفة المفوّض حتى يحضر كبير الجراحين ليقوم بتغيير رباط المريض، اتجهت إلى باب الغرفة وقلبي يرجف وتوجب عليّ أن أقف طويلًا قبل أن أملك الشجاعة للدخول، وأخيرًا دخلت ووجدت زوجي قد غادرته الحمى وكان بكامل وعيه، ولكن كيف كان يبدو المسكين، ففي وضح النهار



Twitter: @ketab_n

(يوليو ٣/ ٨/ ١٨٧٠) تمكنت من رؤية مالم أستطع رؤيته في الليلة الماضية، كان هناك جرح كبير يغطي طول جبهته، والأنف كان متضررا، وعند أسفل الرأس كان هناك جرح أكبر وأخطر من الذي على الجبهة، وكانت إحدى أذنيه مفقدودة تمامًا، أما الجرح القاتل فكان في صدره الذي كان مع الذراع في حالة تهشم كامل، وكانت ساقه أيضًا قد تضرّرت ضررًا جسيمًا! كان يجب عليّ أن أستجمع قُواي حتى لا أظهر له هلعي وألمي. وجال في خاطري كيف يمكن أن يحدث له مثل هذا التشوه في هذا الوقت القصير.

بدا لي كأنه ليس بوعيه الكامل بسبب حالته الميؤوس منها، فقد كان يتحدث عن أشياء ثانوية، الأمر الذي أذهلني، أوهمت نفسي أن كل شيء بخير، وجعلت أستمع إليه، وتمالكت لأجل ذلك نفسي، كان الوقت نهاية يوليو وكان اليوم حارًا فجلبت المروحة التي أهداني إياها بنفسه في وطني حتى أكش الذباب عنه، وبها تَذَكّرنا بعض الأيام الماضية التي جعلتنا نحلّق إلى زنجبار، جلست بجواره وللحظة شعرنا فيها بالسعادة حتى الساعة الثانية بعد منتصف النهار عندما عاودته الحمّى مرة أخرى، وفي المساء بدأ بالهذيان، وتحت هذا الوضع رأى الأطباء أنه من الأفضل أن أعود إلى البيت لأنني شعرت بشيء من البؤس، لأعود في اليوم الثاني، وبقلب حزين استمعت إلى نصيحتهم حتى لا أخسر الميزات التي حصلت عليها بمشقة، ولكي يُسمح لي بزيارة زوجي مرتين في الأسبوع لفترة قصيرة مثلما تنصّ عليه الآن القوانين القاسية، ورغبت كذلك في رؤية أطفالي. عندما


Twitter: @ketab_n

عدتُ إلى البيت كان الثلاثة قد ناموا فجلست بالقرب منهم لأطمئن عليهم. بدا لي البيت مقفرًا وموحشًا، أحسست وكأني في بيت غريب تمامًا ولم أستطع أن أظل هادئة، وأخيرًا لذت إلى غرفة الأطفال لأبقى هناك.

في الصباح التالي ذهبت مرة أخرى إلى المستشفى وصادفت في الطريق إلى هناك في ذلك الوقت القدّاس، فقد كان يوم أحد. رأيت كثيرًا من المتعافين من المرضى يذهبون إلى الكنيسة الصغيرة، امتلأ قلبي في هذه اللحظة وخلص شعوري أن يمنح زوجي الصحة ويتمكن من شكر الله في الكنيسة ذاتها، كان ذلك بالنسبة لي في وقت قريب عزاء أكبر عندما كنا معا في الكنيسة قبل وقت قصير من الحادث، ومع أنني كنت لا أفهم الموعظة، إلا أنه تملكني بمجرد أنني في بيت الله شعور بالارتياح يبعث فيّ الأمل.. لقيني المفوّض الطيّب اليوم بوجه متهلّل، فقد أخبرني أن زوجي قد نام تقريبًا بشكل جيد وأنه قد طلب شيئًا ليأكله، نعم هكذا كان، فقد وجدته ولم تغادره الحمى فحسب بل كأن روحه ردّت إليه، وكان لا يشكو ألمًا أبدًا، الأمر الذي بدا لي غريبا جدًّا وتمنيت أن يتعافى قريبًا، مع هذا التحول الجيّد تجرأت فطلبت من الطبيبين المشرفين عليه أن يتم نقله إلى البيت؛ لأن النقل لن يضرّه، فقد لاحظت أن هناك قناة في البحيرة تفضي مباشرة إلى المستشفى بحيث يمكن نقله عن طريق قارب مثلاً دون مشقة كبيرة إلى حديقة المنزل، ولكن الطبيبين رفضا وقالا ذلك لا يمكن أبدًا؛ لأن زوجك لا يتحمل أن نقوم بنقله،


Twitter: @ketab_n

وكذلك لم يودا الحديث في موضوع حلق لحية زوجي التي كساها الدم وكانت تضايقه، «لا تزال هناك بضعة أيام وسيحدث ذلك» كانت تلك إجابتهم. عند المساء تغير وضعه مرة أخرى سريعًا إلى حدّ أني لم أستطع الذهاب عنه إلا بقلق متزايد لأرجع إليه في اليوم التالي.

عندما عدتُ في اليوم الثاني وجدته مريضا جدًّا فقد عاودته الحمّى وقد كان يهذي طول الليل. في ذلك اليوم كنت ألبس بلوزة بيضاء مطرّزة، مثلما كانت الموضة في ذلك الوقت، وعندما رآني زوجي تعرّف إلي من الوهلة الأولى وسألني بشكل جادّ إن كنت قد لبست لاصطحابه للخروج، ثم كرّر هذه العبارة مرار: «انتظري قليلاً بيبي، سأبدل ملابسي في الحال». حالته بدأت تزداد سوءًا بشكل ملحوظ، فجاء ثلاثة رجال محاولين بجهد إبقاءه في السرير، فقد حاول باستمرار أن يقوم من السرير، بكى قلبي من الألم حدًّا لا يوصف عندما رأيتُ كيف كان الرجال وبلا شفقة يحاولون تثبيته دون أن أتمكن من مساعدته، فلو كان الأمر بيدي لمنحته ذلك، فضرر منعه من ذلك أشدّ من تركه يمشي حرًّا في الغرفة وتحت رعاية كافية حتى يشعر بنفسه بالتعب في النهاية ويرجع إلى سريره. رأيت أن ذراعه المتهشمة وساقه قد أصبح لونهما أزرق داكنا، ولكن لم يكن لدي فكرة أن هذا يعني أنه قد بلغ من السوء مبلغه؛ لأن هذا كان في الحقيقة، مثلما يُعرف هنا، الغرغرينا، لم أسمع أبدًا به إلا هذا اليوم. كان جهلي به يُبقيني مطمئنة، وأتفاءل مثلما أريد. ولكن مَن لي كي يُعدّني تدريجيا للقادم؟ إطلاقًا لا أحد. العجيب أيضًا أني كنت أرى


Twitter: @ketab_n

ازدياد زُرقة الأعضاء المصابة دون قلق كبير ولا أعلم مدى الحالة الميؤوس منها للمريض. بعد ظهر هذا اليوم طلبتُ من الأطباء أن يسمحوا لي بالبقاء هذه الليلة مع زوجي فليس من الممكن أن أنام وأشعر بالراحة وأنا في المنزل بعيدة عنه، ولكن كان ذلك عبثا للأسف، فالأطباء الحكماء لا قلب لديهم ولا شفقة، وبشعور لا يوصف من الحزن العميق وجب عليّ أن أغادر المستشفى هذه الليلة، وفي الطريق إلى البيت أوقف عربتي رجل لا أعرفه مع أن العربة كانت مغلقة وكنت بداخلها، أراد الرجل الطيب العجوز الاستعلام عن حالة زوجي، وعندما فتح باب العربة رأيت كيف كانت تتلألأ الدموع على وجنتيه.

كانت نفسي تُحسّ في هذه الليلة بكل شيء في العالم إلا حلول البركات على العاملين في المستشفى والمسؤولين فيه، ومنذ ذلك الوقت صِرتُ أشمئز من كل ما يُسمى مستشفى واحتجت إلى سنوات للتغلب على عقدة الذهاب إلى المستشفى. في هذا المساء أتاني طبيب الأسرة ليبلغني شيئًا على الأرجح؛ فلم أكن قد طلبته، ولن يأتي هو من تلقاء نفسه أبدًا، أتى مثلما أخبرني من طرف زوجي. الرجل المهذب الذي ألفنا منه الظرافة، إلا في غير هذا الظرف، كان حائرًا وبدا لي وكأنه يتهرب من نظراتي ولا يريد الإجابة عن أسئلتي المتعلقة بالظرف الصحي لزوجي. كل هذا أيقظ فيّ قلقًا متزايدًا، وعندما ألححت عليه ليخبرني الحقيقة حول الحالة الصحية لزوجي ورأيه الخاص فيها قال لي أخيرًا بمشقة واضحة: «تمالكي نفسك سيدتي،


Twitter: @ketab_n

فلا أمل»! كان ذلك كافيا لي، استأذن الطبيب منصرفًا وهو يعزّيني، وبقيت وحيدة إلا من شقائي وبؤسي، جلستُ ساعات طوالا غير منتبهة إلى أن الوقت صار متأخرًا، وأخيرًا دعوتُ الله أنه إذا كان كلام الطبيب صادقًا وأنه لا أمل فعسى الله أن يعجل في نقله إلى جواره حتى يتحرّر بأسرع ما يمكن من عذاباته. هذه المرة استُجيب لي سريعًا، فعندما ذهبتُ إلى المستشفى في صباح اليوم التالي كان التغير كبيرًا وعدم استقرار حالته كان متوقعا في كل ساعة، ومع أنه تعرّف عليّ ولو بشكل غير دقيق، من خلال مخاطبته لي بهذه الكلمات: «كيف حالك بيبي؟» إلا أنه سرعان ما غاب عن وعيه مرة أخرى، ثم عاد له الوعي مرة أخرى عند الظهر تقريبًا لفترة قصيرة، تعرف عليّ وطلب فاكهة الكرز، لم يكن في المستشفى كله في هذه الساعة حبة كرز واحدة، وكان الوقت للأسف قد تأخر كثيرًا حتى يُحضر الكرز من المتجر. لقد كانت تلك آخر مرة يعود فيها إلى وعيه في هذا الدنيا.. منذ ذلك الوقت احتجت بضع سنوات حتى أستطيع أكل هذه الثمرة المحببة لي في غير هذا الظرف. في السابق كنت أوزع سنويا تباشير الكرز على الفقراء، تمامًا مثلما - كما تعرفين أيضًا - كانت العادة عندنا مع الأكل المفضل لدى الموتى. آه كيف لم أستطع في تلك اللحظة أن أعطي حفنة من الكرز؟! تمنّيتُ بعد ذلك عدة سنوات من حياتي أن أفعل ذلك باستمتاع ولكن ذلك بالتأكيد لم يكن لي ممكنا.



Twitter: @ketab_n

جلست ساعات بجانبه وحاولت أن أبرّد جبهته المستعرة بماء الكولونيا الذي أحضرته معي..

في تمام الساعة الخامسة والنصف مساءً أراح الله زوجي المسكين من عذاباته.



Twitter: @ketab_n

# ألم الفراق

آثرت الصمت عن الحديث عن هذه اللحظات من عمري فلا طاقة لي بالحديث ولا أجد الكلمات المعبرة حتى أعيد ما عانيته. بين الحين والآخر كنت أفقد فجأة عقلي، إذ أعرضت عن الله - سبحانه وتعالى - في هذه الحالة فقط . وشكوت إليه بمرارة كيف سمح لمثل هذا البؤس الشديد بأن يحدث. بفقد زوجي فقدت كل شيء، نعم كل شيء، حتى تذكّر أولادي الثلاثة لم يكن يعزيني، وقفت فجأة واهية ضعيفة وانفتحت أمام عيني هوّة بدت وكأنها تجذبني إليها بكل عنف، ومع أنني طلبت الخلاص لزوجي من عذاباته إلا أنه تبيّن لي أن هذه الساعة أتت مبكرة، إذ تبدّدت فجأة كل الاستعدادات، من هول الصدمة التي هزتني. لم أحسّ في هذه اللحظة بوجود السماء والأرض، فقد غَشِيت روحي أرضٌ مقفرة لا يمكن اجتيازها، آه أي نعمة عظمى كان الموت لي؛ فقد كان الموت بالمقارنة مع آلام نفسي وعذاباتها التي لا حصر لها لا يعد شيئًا على الإطلاق.

لم يكن أحد في المستشفى يفهم رغبتي في أن أظل مع الميت. ووجدت هذا عديما جدًا للشفقة، رجعت إلى البيت شبه غائبة عن الوعي، حيث ازداد شعوري بالفقد المرير، رأيت من على السُلّم



Twitter: @ketab_n

أشياءه في الخزانة ومعطفه وقبعته وهي لا تزال معلقة، لم يكن أحد يظن أنها ستغادر الخزانة للأبد، أخذتُ أفتش عنه ذاهلةً في البيت كله من أعلاه إلى أسفله وأناديه بصوت عالٍ، وتبدّى لي موته وذهابه عني إلى غير رجعة أكثر حينما أدركني يأسي الذي كان لا حدود له.. أجهدني الشك إن كان قد مات فعلا، إذ كانت الأوهام تراودني باستمرار: «اذهبي إلى المستشفى وأحضري زوجك، فهو لا يزال على قيد الحياة! لا..لا يمكن أن يتركك وحدك للأبد في هذا البلد الغريب، اذهبي بسرعة»، آه ما هذا الجنون؟! ما هذا اليأس؟! كنت أعتقد بكل تأكيد أن كل الأطباء في المستشفى قد أخطأوا، وأن زوجي قد مات في الظاهر فقط، وماذا سيقول عندما يستيقظ ولا يجد أحدًا معه؟ ألن يشعر بالاستياء من خيانتي له بتركه في مثل هذه اللحظة؟ آه هذا لا يمكن تحمّله.. بقيت أتخبط طوال الليل في الشرفة وكنت لا أدخل إلى الغرفة إلا حينما لا أستطيع أن أتمالك نفسي في إخفاء تنهدي العالي.. كنت عاليًا في سماء الخلد أبحث عبثا عن آية، معجزة، تُمدّني بشيء من السلوى لروحي اليائسة، كان يزعجني الليل بهدوئه وسكونه، وأوراق أشجار الحديقة بحفيفها، وحتى النجوم المتلألئة في السماء كانت تؤرق مشاعري في هذه الليلة، كل شيء في الخارج على حاله ولا شيء قد تغير، فقط في داخلي بدا كل شيء مختلفا، تمنيت كارثة أو مصيبة تحلّ عليّ وعلى أولادي فلا تبقينا. كيف سأعيش من الآن مع أطفالي الصغار في الأرض الغريبة من دون زوجي، كان التفكير في هذا يهدد بسلب ما بقي لدي من عقل، آه والحقيقة المؤكدة أنه ليس لدي في كل ألمانيا، بل في كل أوروبا،



Twitter: @ketab_n

نفس واحدة يمكنني أن أعتمد عليها! ومع ضعف ألمانيتي أيضًا. إن فقدي للوطن والأهل والثروة الذي تكبدّته في غضاضة شبابي، لم أدرك فعلا مدى فداحته الحقيقية إلا الآن. لم أحسّ مطلقًا بمثل هذا الحنين الحارق إلى الوطن، في هذه اللحظة شعرت فجأة بأني لا أهل لي ولا وطن. كانت الأفكار الموحشة تأسر روحي وتعذبني ليل نهار.

حُدّدت ساعة الدفن في اليوم الثالث بعد الوفاة. ففي هذا اليوم أُحضرت الجثة في نعش مُسمّر إلى البيت في وقت مبكر، حتى تُقام من هنا باقي مراسم الدفن. وقد آلمني كثيرًا تسمير غطاء النعش الاستبدادي بحيث لم أتمكن من رؤية الجثة، وكنت أود أن أذهب لتشييع جثمانه ولكن شيئًا كهذا لم يكن مألوفًا في هامبورج، ولكن ماذا بقي لي في هذه اللحظة من عادات وتقاليد هامبورج؟! لا شيء على الإطلاق. فآلامي كانت عميقة جدًا لأبالي بالمظاهر الجوفاء والمصطنعة. كل شيء حولي، نعم حتى العالم بأجمعه، لم يعد شيئًا أكترث به، ترددت في طلب عربة لي وكان الوقت متأخرًا أيضًا لإصدار تعليمات، ولأجل ذلك اتخذت قرارًا أن أمشي بقدمي بجانب عربة الموتى، ولكن عندما علم القس الطيب .T برغبتي، كان بغاية اللطف إذ عرض عليّ أن أركب عربته فقبلت ذلك مع عميق شكري، وهكذا بدأنا مسيرنا الحزين، يرافقني بعض المعارف. ومع أن الوقت بداية أغسطس إلا أن الجوّ كان ماطرًا ومعتمًا، لا شمس تُرى والطبيعة قد اتشحت سوادا في سواد. اليوم فقط - وربما لأول مرة في حياتي، كنت أفضّل أن يفتقر كل شيء إلى الشمس المنعشة، فقد كان



Twitter: @ketab_n

الجو المعتم أفضل لمشاعري في هذا اليوم من يوم مشرق.. أُفَضّلُ أن أبقى صامتة عن الحديث في تفاصيل الساعة القادمة؛ لأنني لا أملك الكلمات لوصفها. عندما انتهت مراسم التشييع ورأيت كيف تأهب الناس ليلقوا كلّ ما لدي في القبر، استولت عليّ أمنية واحدة، وهي أن أكون من تلك الطائفة التي تحكم على الزوجات بالحرق في كومة الحطب، حتى تلحق مباشرة بالزوج! فماذا يمثّل إحراق الجسد بالنار والعذاب القليل مقارنة بالآلام المستمرة والتي لا حصر لها للنفس البشرية. هذه الأفكار أفكار وثنية، قد ترين ذلك بالتأكيد، وهي بالطبع أيضًا لا تتفق لا مع الإسلام ولا مع المسيحية، ولكن هل العذابات المضاعفة التي نلقاها على هذه الأرض هي أخفّ عذابًا من موت سريع بالنار؟!

احتضنت النعش وجاهد الناس بمشقة لنزعي منه. أوليس قد ضمّ هذا النعش كل ما أملكه؟! أولادي؟ في هذه اللحظة لم أكن أجد عزاء فيهم، بالعكس، فقد بدا لي أنني أستطيع من دونهم أن أتحمّل قليلًا بؤسي، شعرت بالغربة والوحشة، وربما لم أجد في أولادي عزاء لأنه من دونهم سيكون طريقي من المقبرة مباشرة إلى القطار ومن هناك إليكم، فماذا يمكن أن يقيدني هنا أيضًا؟ لا شيء على الإطلاق.

وفي طريق العودة تمنيت في نفسي ألا أصل إلى البيت، فقد كنت أخاف من رؤية الناس الذين أراهم يوميًا، البيت، الأثاث..، كنت بكل بساطة أخاف من كل شيء، وعندما وصلت إلى البيت كان



Twitter: @ketab_n

أطفالي ينتظرونني وهم يلبسون ملابس الحداد حسب التقاليد المألوفة هنا، الأمر الذي أثّر فيّ حزنا بالغا. كل شيء في البيت كان يذكرني بفقيدي، كل مكان حيثما أذهب، بدا لي البيت وكأنه ميت على الرغم من نقص شخص واحد فقط من الساكنين، لم يكن هناك مكان أشعر فيه بالراحة، وكأنما شبح يطاردني ويتنقّل من غرفة إلى أخرى. كنت ساخطة من قضاء الله وقدره، فأحسست بالجفاء من خالقي ولأجل ذلك كنت في منتهى الضعف والوهن، ومع أن الصلاة كانت هي الوحيدة التي ستواسيني إلا أني للأسف لم أكن أؤديها في البداية. كانت روحي تعيش نوعا من الثورة وكان يجب أن تقتحم الطريق الآن، وعندما تمكنت أخيرًا من الصلاة بيقين وإيمان مثلما تعلمت في شبابي (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) حمدت الله إلى الأزل. وأصبحت أشعر في داخلي بالراحة قليلاً.

ولكنّ وحشتي كانت دائمًا في ازدياد.



Twitter: @ketab_n

# صراع المشاعر

سكنتْ كلّ رغبة أخرى في نفسي، واستولت عليّ فقط فكرة: هيا هيا إلى الوطن، سيطر الحنين إليكم على كل كياني، على تفكيري وشعوري. وكنت من دون انتظار لرسالة خولة العزيزة، أدرك أن كل تفكيركم سيكون معي بعد خبر وفاة زوجي، فقد كان يشغلني الرجوع إليكم عاجلا، أكثر منكم، ولن تحول محيطات العالم العظيمة بيننا، وكنت أحدّث نفسي أنني حرّة من أي التزام أخلاقي وأنه لو وجب عليّ أن أقطع الطريق إليكم مشيا على الأقدام لما ترددت لحظة، نعم هذا ما كان.

توفي زوجي دون أن يترك وصية، ولا حتى كلمة واحدة حول مستقبلي ومستقبل أولادي ولم يتحدث عن مسألة تربية الأولاد، ولهذا فأنا حرة، يمكنني أن أذهب حيث أشاء، فأطفالي لا يزالون صغارا، لا يقعون تحت الإلزام العسكري أو المدرسي، المعروف هنا.. كان عليّ وحدي أن أمضي في هذا الجهاد الكبير، الذي استغرق سنين حتى اتخذت القرار. كل كياني معلق بكم وبوطني، فردوس الأرض، ولكن بينهما كانت تقف ذكرى زوجي التي كان يجب عليّ أن أقدرها، وبقلب كسير تراجعت عن اللقاء المنتظر،



Twitter: @ketab_n

قررت أن يتربّى أولاده في بلده، إخلاصًا لذكراه، كانت هي رغبته بالتأكيد، وقلت في نفسي أيضًا إنه في حال تغيرت الظروف فأتمنى على كل حال أن أنشئ أولادي تنشئة عربية. وهكذا اتبعت نداء الإحسان إلى المتوفى فقط، غير مكترثة بكل الألفاظ المنمقة التي تُسمّى هنا بالثقافة والتحضّر، فقد كان لا يروق لي كثيرًا هذا التعليم الإلزامي وخصوصًا حين يُهمَل معه جانب التهذيب الحقيقي. وكنت سأقوم أيضًا بنفس الطريقة لو كان زوجي صينيًا أو يابانيًا، وبذلك أردت أن أبيّن لك أن ما فعلته وقتها كان فقط إكرامًا لذكرى المتوفّى وليس هناك أي دافع آخر، فأنا ابنتكم ولا يمكن أن أكون قد فعلت ما فعلت من أجل سبب آخر، قرّرت آنذاك أن ينشأ أبنائي في وطن أبيهم دون أن أفكر على الأقل في نفسي، ولكن بطبيعة الحال سيتعلم الأطفال عادات البلد وتقاليدها في حين سأظل أنا بالطبع عربية أصيلة، صحيح أني ظاهرًا أوروبية ولكنّ داخلي ظل عربيا. ولم يكن من السهل تغييره. أعترف أني ترددت في الطريق الذي أوشكت أن أسلكه، فقد كان مجازفة كبيرة، ولكن كان يكفيني أنني كنت أملك عزيمة لا بأس بها لفعل ما أعتبره التزاما أخلاقيا أمام المتوفّى. والآن يمكنك أن تتفهمي كيف كان من الصعب جدًّا عليّ أن أتخلى عن فكرة الرجوع إليكم، حيث يهفو قلبي.

ولو كنت أتوقّع هذه السنين المضنية التي كانت تنتظرني، لما ملكت الجرأة اللازمة على الأرجح لتحقيق ما عزمت عليه.. عزلتي الداخلية ووحشتي الشديدة في البيت التهمت روحي بلا انقطاع،



Twitter: @ketab_n

وكنت أشعر في الغالب وكأنني في عالم آخر، وكنت أنتبه بعد مشقة لما كان يقال لي. ظلت غرفة تدخين زوجي سكناي الدائم، والتي كنت منها أنظر إلى الحديقة وبحيرة الألستر. الآن وبعد مضي ثلاثة أسابيع من حلول القدر الأليم جلست كالعادة أحملق بصري في الأفكار الحزينة، وفجأة قفزت متجهة بسرعة إلى باب المنزل لأفتحه مثلما تعودت سابقًا عندما مجيء زوجي إلى المنزل ولكني رجعت هذه المرة بخيبة أمل شديدة بعدما انكشف لي وهمي. كان ابني الصغير الذي بالكاد يبلغ من العمر سنة ونصفًا ينادي طوال اليوم «بابا»، كان ذلك يحطّم قلبي كثيرًا، وكانت ابنتي الكبيرة التي لها من العمر سنتان ونصف تلاحظ ذلك فتهمس لأخيها الصغير ألا ينادي أباه حتى لا تبكي «ماما»، وكانت تقوم بمسح دموعي باستمرار بمنديلها الصغير. في هذه الأثناء كان شهر أكتوبر، وكان الجوّ، حسبما أذكر، باردا رطبا ومعتما جدًّا وكان وقت الغداء في حدود الخامسة، الطعام كان جاهزا، وأتذكر أني ذهبت إلى الطاولة ولكن دون أن ألمس الطعام قمت سريعًا ومن دون قبعة أو معطف تاركة البيت بسرعة إلى الشارع، فأدركني الناس عند محطة الباخرة «فال هالا» وأرجعوني إلى البيت، وكنت في هذا الوقت أعاني من صداع شديد كان ينتابني ليل نهار، وكنت أحسّ باستمرار وكأنّ نملا يمشي تحت فروة رأسي، وكان رأي الطبيب أنّ الأعصاب القحفية هي التي تُحدث هذا الألم.

وفي هذه الأثناء من الحزن تلقيت خبر وفاة أخي النبيل ماجد، وكان وقع النبأ عليّ كالعاصفة، وكان كفيلاً بإطلاق الرصاصة



Twitter: @ketab_n

الأخيرة، فأنت تعلمين ما معنى فقدي له. حزنت حزنًا عميقًا على فقد أخي الكريم السمح الذي كان متسامحًا معي وحانيًا عليّ، وكان جديرًا وكفئًا لا نظير له لخلافة سمو أبينا العادل.

وقد ظهر أثر نبل ماجد وشهامته عندما أتى برغش بعده إلى السلطة ونادى في هذا المحفل في وجهاء البلد: «أبي كان أباكم وماجد كان أخاكم، أما أنا فسيدكم ورئيسكم»، ربما لا تزالين تذكرين كيف أثار ذلك استياء الناس. لم يكن لدي علم بمرض ماجد بسبب المواصلات البريدية الضئيلة ذلك الوقت بين زنجبار وألمانيا، ولهذا فقد داهمني خبر وفاته على حين غرة، لم يزدني هذا النبأ الحزين إلا شوقًا وحنينًا إلى وطني الحبيب. شعرت هنا الآن بغربة مضاعفة فلم يكن لدي نفس واحدة أستطيع معها الحديث باستفاضة عنكم وعن أوضاعنا، آه لا تدركين كيف أثر فيّ هذا الشعور الآن بعمق وزادني إحساسًا مستمرًا بأني غريبة، ولو كان أطفالي أكبر قليلاً، لربما لم أحسّ بهذه العزلة الروحية بهذا القدر الذي أحس به الآن. وبالكاد ستتعرفين على سالمة المغرورة قبل بضع سنوات إذا رأيتها الآن في ساعة غير مرتقبة. إنه شيء عجيب كيف يمكن أن يتغير الانسان سريعًا تحت ظروف معينة، كانت مشاعري تجاه الأولاد الأحبة باردة بسبب حزني في الأشهر الأولى، فكان حضورهم وغيابهم عندي سواء. كان التغير في داخلي عارما، إذ مررت بوقت عصيب حتى استعدت صوابي المفقود إلى حدّ ما، وكان الأسوأ التفكير في أنني لن أملك الثقة الكافية لإتمام الطريق إلى نهايته لبلوغ تقدير واحترام زوجي، بدا



Twitter: @ketab_n

لي مستقبلي ملبدا بضباب كثيف، ولم أكن أعلم في البداية فعلا كيف أجد طريقي، ولكن ثقتي وإيماني السابق بالله القدير حماني وجعلني في هذه اللحظة أتمسك ببصيص من الأمل.



Twitter: @ketab_n

# اضطراب نفسي وعوز مادي

مثلما يقال في هذه البلاد قلما تأتي مصيبة وحدها، كان هذا أيضًا يصدق على حالتي، فقد كنت لا أزال تحت تأثير فقدان الوعي والذهول عندما نُقل إلي الخبر السيئ بأن أعمال التصديرِ بين هامبورج وزنجبار نتيجة الحرب بين ألمانيا وفرنسا ستتدهور كثيرًا وتنتظر خسارة كبيرة، وفوق ذلك ظهرت النوايا السيئة لوكيل أعمال زوجي في زنجبار، الذي كان صديق شبابه وابن أحد القساوسة الكبار. ولأجل ذلك وجب عليّ أن أستعد للأسوأ، فالوكيل الخائن حاول بأسرع ما يمكن أن يأكل أموال أيتام وزوجة صديقه المتوفى، خاصة أنه كان من المستحيل تقريبًا تصفية أعمال زوجي في هامبورج، لذا أحكم سيطرته على هذه الأملاك. ونتيجة لهذا الوضع كان من المستحسن أن أستعد للتقليل كثيرًا من مصروفاتي من اليوم فصاعدا، وبدا أنني لن أتمكن من العيش بالطريقة الحالية أكثر من الآن، هذا الخبر لم يؤثر فيّ كثيرًا، فنفسي غير متعلقة بطبيعة الحال بالغنى والترف وما شابه ذلك بل هي راضية أكثر بالحياة الوسط، وكنت أشعر في نفسي أني غير موفية شكر واهب جميع النعم الدنيوية على نعمة الكفاف في اليوم، لذلك كنت غير مكترثة أبدًا بهذا النبأ السيئ



Twitter: @ketab_n

الجديد. في ظل هذه الظروف كنت أستحضر بشكل تلقائي المثل العربي الذي يقول: «لا يمكن أن يشعر المرء بالفقر والعوز والحاجة أكثر من الشعور بذلك في الغربة».. نعم في الغربة التي أحسّ بها كثيرًا، يا الله لا شيء سيغير وحشتي وعجزي ولو كنت في القمر أو في أي كوكب آخر .. إذا كان المرء في كل مكان من هذا العالم يحتاج في هذه الحياة إلى المال، فإن حاجة ذلك تختلف بحسب المكان الذي يعيش فيه. قد تعلمين على الأرجح ما يقال عن غلاء المعيشة هنا في أوروبا مقارنة بوطننا المبارك، فما يسمى عندنا بوفرة المال والغنى هو الحد الأدنى للمعيشة هنا وقد يكون غير كاف أيضًا. إن نفقات الأسر الأوروبية ذات الدخل المحترم في المتوسط بالكاد يمكنك أن تتخيليها، فالحاجات التي لا حصر لها تزداد من سنة إلى أخرى بحيث لا يمكنك أن تتصوري الأمر.

تزداد الأفكار المؤلمة لديّ؛ فما الذي يتوجب عليّ فعله الآن؟ وما الذي ينبغي لي البدء به على الإطلاق؟ أن أول شي يجب أن يحدث هو بطبيعة الحال إنهاء عقد الفلّا التي نسكن فيها حتى الآن والانتقال إلى شقة أرخص، وأيضًا تسريح الخادمة التي تعوّدتُ عليها كثيرًا؛ فيجب أن تكون لديّ من الآن فصاعدًا خادمة لكل شيء ومربية أخرى للأطفال، وكنا إلى هذا الوقت نرسل جميع ملابسنا التي تحتاج إلى الغسيل خارج المنزل، ولكن الآن اتفقت مع امرأة لتغسل الملابس كل ثمانية أيام في البيت، وبذلك نقلل قليلًا من مصروفنا الأسبوعي، وأيضًا قررت ألا أشتري شيئًا بالدَّين عندما لا أملك المال



Twitter: @ketab_n

نقدا لدفعه، ففي ذلك الوقت نشأت هنا في هامبورج عادة تأخير دفع الدين إلى بداية السنة الجديدة باستثناء البقال والخباز والجزار وبائع الحليب، حيث يُدفع لهم كل أسبوع، كنت بالكاد عاجزة عن متابعة المدخول والمصروف بشكل صحيح نتيجة عدم درايتي القديمة بعلم الحساب. وكان الأسوأ أنني لم أكن أعلم مطلقًا كم تبلغ ميزانيتنا وما الذي يمكنني إخراجه، هذه الحالة المقلقة استمرت للأسف ليس أقل من ثلاث سنين كاملة. عانيت كثيرًا في ظلّ الظروف الراهنة، فقد أحسست بضعف تام وكنت تحت رحمة الناس الغرباء تمامًا. إن وضع الأرامل والأيتام بشكل عام هو أفضل عندكم، اللّهم قد توجد هنا دور للأيتام والتي توجد بالضرورة للعدد الكبير لسكان المدن الأوروبية، ولكن يدفع لأجلها الشعب ضرائبهم التي هي غير معروفة لديكم.

إن كنت لا أرتاح بطبيعتي لشتاء الشمال البارد وأفرح دائمًا عندما يأتي الصيف فكذلك أحسست أيضًا بهذا الشتاء وبشكل لا يطاق أكثر من غيره، فبرودة الطقس وضبابيته وعتمته في نوفمبر وديسمبر كانت عبئًا ثقيلاً عليّ، وكانت وحشتي وعزلتي الروحية الرفيقتين الدائمتين لي إضافة إلى ليل الشتاء المبكر. فلا يوجد في أي مكان بصيص أمل، لا في الخارج ولا في داخلي أيضًا.

وفوق ذلك استولى عليّ شعور بالخوف لا يوصف ليل نهار، ولم أستطع الخلاص منه. كانت هناك فكرة تلاحقني كثيرًا وهي أن حياتي وحياة أطفالي بعد موت زوجي لم تعد آمنة في هذا المحيط الغريب.



Twitter: @ketab_n

وبسبب ذلك كنت غالبا ما أجمع أطفالي الصغار حولي وأغلق عليهم باب الغرفة وأجلس معهم لساعات طويلة، ظللت محتفظة بهذا الشعور والإحساس في داخلي، إذ كان يجب عليّ أن أكتمه؛ لأنني كنت أخشى أي سوء فهم أو ربما أي تقييم خاطئ. فمن كان لديّ حتى يستطيع فهمي؟ لا أحد على الإطلاق، لا أحد. وحتى لا أُظهر ضعفي أمام هذا العالم غير المكترث والبارد ولا أجعل من نفسي أضحوكة حاولت إخفاء ذلك. هل كان من الصعب أيضًا على أحد لم يمرّ بتجربتي أن يفهمني؟ فقد كان لا يوجد، مثلما اعتقدت، الكثير من الذين عايشوا الشقاء والبؤس بكل ألوانه مثل ما لاقيته. كان هناك أحيانًا أناس يقصدون الخير لي ويحاولون مواساتي بطريقتهم، فكنت أبدي انفعالا من طريقتهم، وكنت وقتها في كامل يأسي: «آه، لو لم أكن أعلم أن الله هو الذي أرسل لي ذلك، لما ظللت صامتة أبدًا!»، ويُحاوَل وعظي بشكل مختلف أيضًا من خلال تقريري إن كنت أومن في الحقيقة بأن الله قدّر مصائرنا وكل ما يقع على هذه الأرض. لا تعلمين ما مقدار الغيظ الذي كنت أشعر به عندما أُسأل مثل هذا السؤال، فجميع الكتب المقدسة تعلمنا بكل وضوح أن الله يعلم عدد شَعْرنا وأنه لا يسقط عصفور إلا بإرادته. كان يُشعرني سؤالهم أن علم هذا هو حِكر على فئة قليلة من المسيحيين، عند هذا كنت أشعر أني لن أوفّي حق شكر الله كما ينبغي أن أتيتُ إلى هذه الدنيا وأنا مسلمة. وكان يجعلني ذلك دائمًا أفكر في قلة تفقّه المسلمين عموما في أمور دينها، ومع ذلك فلديهم إيمان راسخ في عقيدتهم، في مقابل ذلك يلقَّن الأطفال المسيحيون أمور دينهم في المدارس، بدا لي كأن الدين



Twitter: @ketab_n

هنا ليس أكثر من مجرد علم يُدرس ثم يُنسى عند أول فرصة سانحة أو يَتعرض للنقد كثيرًا، أدركت هذا مرارًا للأسف، وإلا فكيف نفسّر هذا العدد الهائل من حالات الانتحار إذا كان الناس فعلا يؤمنون بقضاء الله وقدره، فعند أي مصيبة كموت في أسرة أو خسارة في تجارة أو في أحيان كثيرة لمرض عارض تمامًا ولأسباب تافهة كثيرة أخرى يلجأ الناس هنا مباشرة إلى الانتحار، نعم حتى الأولاد المراهقون، إذا توقعوا عقابًا في البيت هم يستحقونه فإنهم يفضلون الانتحار حتى لا يتعرّضوا لعقاب الوالدين. هل كانوا سيفعلون كل هذا لو أن لديهم فقط ذرة من الدين في نفوسهم؟ بالتأكيد لا.

قَدِمَتْ في هذا الشتاء أيضًا سفينتكم الحربية «المَجِيدي» في البرد القارس إلى هامبورج، بدعوى إصلاحها من قبل شركة ويليام أوسفالت في هامبورج التي كانت عدوّة صريحة لزوجي لسبب بسيط هو أنه كان يزاول التجارة نفسها تقريبًا في زنجبار، كنت أتعرض كثيرًا لجعلي أشعر بأن كوني أرملة للمنافس المتوفى هو ذنب لا يغتفر، تعلمين أن هذه الشركة تقود راية القنصلية الألمانية، وأكثر في ذلك الوقت راية القنصلية في هامبورج، فإذن كان لديها مسؤلية أخلاقية في أن تحمي قدر الإمكان تركة من هم تحت حمايتها، في وضعي لم يحدث ذلك أبدًا، حتى عندما ذهبت إليهم بنفسي إلى مكتبهم بهامبورج راجية منهم دعمي في تصفية حسابات زوجي في زنجبار، لكن ذلك لم يحصل أبدًا. ولذلك ترين كم هو محبط لكم عندما اعتقدتم أنني لن أفتقد في المستقبل إلى المساعدة والعون لكوني


Twitter: @ketab_n

متزوجة رجلا مسيحيا، آه، أيّ وهم! صدقيني كان لا شيء لي أكثر من وهمكم البسيط، فكوني عربية متزوجة بألماني، ومسلمة أصبحت مسيحية، هو أمر لا يكترث له أحد هنا. أنتم بعيدون جدًا عن المشهد الأوروبي حتى تحكموا على الأوضاع الحقيقية، فهنا في كل مكان يُعامل الشخص حسب أصله، ولن تساعدك جنسية زوجك. ولكن بالنسبة لبلادنا وتقاليدها فإن المرء يفضل بشكل عام الجنسية الإنجليزية أكثر، فالإنجليزي من خلال مستعمراته الهندية يستطيع التعامل مع الشرقيين وخاصة العرب بشكل أفضل من باقي الجنسيات الأوروبية الأخرى.



Twitter: @ketab_n

# زيارة من زنجبار

عندما رست «المجيدي» في ميناء هامبورج كان ماجد العزيز قد مات منذ وقت، وكان لخليفته حق التصرف بالسفينة، ومثلما يخيب أمل الضعفاء دائمًا في العالم فهنا أيضًا يحدث ذلك. في ذلك الوقت كان كافيا لي ما آلت إليه أموري، فلم يكن يشغلني وصول السفينة كثيرًا. وفي أحد الأيام خرجت لأتزود بشيء، فشاهدت على طول الشارع الرئيسي للمدينة مائة، على الأقل، من الناس يسيرون معا، حاولت المرور وسط الناس وإذا بي فجأة أقف متحجرة أمام مجموعة من البشر، ماذا أرى! يقف أمامي بحّارتنا، الذين كنت لا أزال أتذكر بعضهم. كان شعوري في هذه اللحظة لا يوصف أبدًا، وكنت في البداية أود الذهاب إليهم والتحدث معهم ولكني فكرت سريعًا في الناس الذين يحيطون بنا، والذين يعرفونني بالتأكيد وسيتعاملون معي بفضولهم المعتاد لمعرفة ما يدور. وأيّ مادّة من الأخبار المحلية ستكون للجرائد - مع الكثير بالطبع من المبالغات؟ بالنظر إلى كل هذه العواقب فضّلتُ متأثرة للغاية أن أركب عربة وأتجه إلى البيت، ولو كنت أعرف سابقًا حصول هذا اللقاء لما خرجت في هذا اليوم، غذّت هذه الأحداث شوقي ألعارم إليكم، وأنعشت الأفكار الكامنة في نفسي



Twitter: @ketab_n

للعودة إلى الوطن. كان الذين رأيتهم اليوم هم عبيدكم فقط، ورغم ذلك أيقظت رؤيتهم لديّ عالما من الذكريات مرة أخرى، لم يكن بإمكانهم التعرف عليّ أبدًا بطبيعة الحال بسبب ملابسي التي أرتديها، وكنت من هذه الناحية واثقة. ودار في خلدي أن هؤلاء الناس على الأرجح سيسألون عني وسيزورونني. وفعلا بعد أربعة عشر يومًا تقريبًا من مصادفتهم في الشارع كنت أجلس وحيدة في غرفتي أتذكر الماضي بحزن وأفكر في المستقبل بتردد؛ إذ دَخَلَت عليّ الخادمة وأبلغتني أن عشرين من الرجال السود تقريبًا يودون رؤيتي، عرفت دون مشقة من هم زوّاري، ولذلك أذنت لهم بالدخول. ينبغي لك أن تشاركيني في المشهد الذي سيأتي الآن، فما إن تبادلنا السلام باللغة العربية حتى ارتمى الرجال جميعهم بين قدميّ يقبلون الأرض تبجيلًا، وهم يبكون بحرارة! أريد أن أزعم غير الحقيقة أن عينيّ في هذه اللحظة لم تدمعا لهذا المشهد، ولكن كيف يمكن لذلك أن يكون! في هذا الموقف اختفى المعنى التقليدي للطبقية لأنني كنت أرى في أولئك الناس شيئًا واحدًا فقط، هو أنهم من زنجبار. أعترف لك بكل صراحة أن وقع زيارة مئات من الرؤساء المتوجين الغرباء ليست بذلك الأثر في نفسي مثل ما لهذه الزيارة الحالية لهؤلاء الناس البسطاء. قال الرجال بصوت واحد بالعربية: «الحمد لله أننا وجدناك مرة أخرى، سيدتنا، فقد كنا نبحث عنك منذ مدّة». كان هذا أول كلام الناس البسطاء الطيبين، وكان لقاؤنا مؤثرًا جدًّا إلى حدّ أن كلتا الخادمتين الألمانيتين الجالستين على الباب أخذتا تبكيان بصوت عالٍ دون أن تعرفا أي كلمة من كل الكلام الذي نتحادث به.. لم يكونوا كلهم


Twitter: @ketab_n

زنوجا، مثلما أخبرتني الخادمة، بل كان نصفهم عربا، لم يرغبوا في الجلوس على الكراسي، فتجمّع كلهم حولي وجلسوا القرفصاء على السجاد مثلما اعتادوا في بيوتهم، وعن سؤالي لهم كيف استطاعوا أن يجدوني، فقد أخبروني بالآتي: «مباشرة عندما وصلنا إلى هامبورج سألنا كل أوروبي على السفينة بلغة إنجليزية - لم يكونوا يتحدثون الألمانية - ليخبرونا عن مكان إقامتك، ولكن لا أحد منهم استطاع أن يخبرنا بشيء، فمعظم الرجال المحترمين الذين أتوا لرؤية المجيدي كانوا يهزون أكتافهم دائمًا عند سؤالنا، ويقولون إنهم لا يعرفون مكان إقامتك، ولكن أخيرًا بالأمس، عندما ذهب رجلان منا لشراء التبغ إلى أحد المحلات، حاولا أيضًا الاستفسار عن عنوانك، فقال لهما بائع التبغ أنه قرأ عنك كثيرًا في الأيام السابقة في الجرائد، وأخذ يبحث عن عنوانك من كتاب كبير - على الأرجح دليل العناوين - ثم كتب لنا شيئًا على قطعة ورق، ما لم يمكن لنا أن نقرأه بطبيعة الحال، وقال: «بهذه الورقة التي لديكم سوف تجدون سيدتكم». وهذا ما كان. أَخْبَرنا الزميلان بما حدث وأعلمانا بنجاح بحثهما، رغبنا جميعًا في المجيء حالاً، ولكننا لم نحصل على الإذن، ولذا كان علينا الآن أن نتبادل المجيء حتى يتمكن جميعنا من رؤيتك، سألنا الناس عن العنوان المكتوب على هذه الورقة، وأخيرًا قادونا إلى بابك فحمدنا الله على ذلك».

ومع أن المساكين كانوا يتدثّرون بملابس البحّارة الأوروبية الثقيلة إلا أنهم كانوا متجمدين من البرد القارس بحيث يُشفق المرء عليهم



Twitter: @ketab_n

تلقائيا، وفي أثناء الحديث وبعدما نقلوا كثيرًا من التحيات من الوطن، بحيث إني لم أفوّت أي أسئلة مثلما يمكنك على الأرجح أن تتصوري، هتف كثير منهم «سيدتي، كيف تستطيعين العيش في بلد كهذا؟ نرجو منك أن تعودي معنا، فالجميع هناك يسأل عنك»، هذه الكلمات حطّمت قلبي، ولم أستطع إلا أن أهزّ رأسي للإجابة عن سؤالهم، وبحزن قلت لهم: «ليس بعد، ليس بعد» - «لكن متى سيدتي؟» - «عندما يكبر الأطفال قليلًا».. لست بحاجة لأؤكد لك أنني كنت أود أن أتبع نصيحتهم بكل ما لدي من قوة، إلا أن الالتزام الأخلاقي تجاه زوجي، بأن ينشأ الأولاد في وطنه ومع أسرته قدر الإمكان، كان يمنعني وبكل قوة من ذلك. أما عتابكم ولومكم أني بقيت هنا في ألمانيا بسبب قلة حبي لكم ولم أستعجل الرجوع إليكم بعد وفاة زوجي مباشرة مع أطفالي، كان أمرًا قاسيًا عليّ، وكنت أطلب من الله الرحيم دائمًا أن يساعدني ويعينني في وضعي الصعب، وكنت في داخلي دائمًا غير مقتنعة، نعم كنت في غاية الحزن والأسف، وأكرر لك أن ما فعلته آنذاك كان بدافع رغبتي في أن أبرهن للمتوفى عن حبي له إلى آخر لحظة، ولا توجد هناك أي اعتبارات أخرى على الإطلاق.

أصبح البحّارة من الآن وحتى وقت مغادرتهم، والذين يأتون غالبا بزيهم العسكري، هم زوّاري اليوميين. وبعضهم كان يلعب مع الأطفال ويذهب لتمشيتهم، بالطبع كانوا يفضلون سعيدًا في الغالب؛ لأنه كان يحمل اسم سمو والدي، وكان أكثر شيء محبب إليهم أن


Twitter: @ketab_n

يقودوا عربة الأطفال الكبيرة نوعا ما، التي يحملون فيها الأطفال الثلاثة، وقد صُمّمت في الأساس لهذا الغرض، لتمشيتهم في الحديقة، وكأن المشهد في موكب! كنت أقدم إليهم القهوة في الطاسات الأوروبية المألوفة هنا، إذ لم أكن أملك ما يكفي من الفناجين العربية الصغيرة، التي كنت أفتقدها، ويبدو أنها كانت غريبة عليهم، فقد كانوا يسمون طاسات القهوة الغربية بالطاسات الكبيرة، وعندما قدّمت لهم الطعام لأول مرة ترددوا طويلاً في تقبله أول الأمر، وكان عليّ أن أكرّر عليهم طلبي ليأكلوا وإلا برد الطعام، ونتيجة لذلك قال لي أحد العرب، وبطبيعة الحال كان السؤال ليس سهلاً عليه: «سيدتي، أليس صحيحًا أن الخادمة لم تضع في الطعام أي لحم خنزير؟»، وبعد تأكيدي لهم فقط اطمأنوا ومدّوا أيديهم إلى الطعام. وكان يجب عليّ في كثير من الأحيان أن ألعب دور الصرّاف؛ لأنني مثلما يقولون لم أكن فقط سيدتهم بل بمكانة أبيهم وأمهم وأقاربهم في هامبورج، وبعض منهم كان يترجاني تقريبًا كل يوم ويبقى بجانبي طول الوقت وكأنه حاضن أطفال، للعودة معا إليكم. كنت أرغب في أن يظلوا معي بكل سرور، هذا أمر يمكنك أن تتصوريه، ولكن الرغبة والاستطاعة هما شيئان مختلفان لا يمكن الجمع بينهما في نفس الوقت، إلا لمن أُتيح له ذلك من البشر المفضّلين، ولأني كنت مجبرة في هذه الظروف أن أسرح خادمة وأن أعيش على الكفاف مستقبلاً بدا لي من سخرية القدر أن يكلفني الناس الأبرياء بأن يبقى أكثرهم عندي كخدم، لابد من إفهامهم هذه النقطة



Twitter: @ketab_n

أن ذلك ليس ممكنا، فليس بإمكانهم البقاء هنا مع هذه الحياة المكلفة في أوروبا ولاسيما في هامبورج، مقارنة مع جزيرتنا. وعندما حان الوقت أن تعود المجيدي مرة أخرى إلى الوطن، أخبرني الناس الذين أصروا على البقاء معي بأنهم هربوا قبل أيام من الخدمة العسكرية، حتى يتمكنوا بهذه الطريقة من البقاء عندي، فاعتبرت من واجبي أن أخبر قبطان السفينة حتى يتمكن من إرجاع البحّارة في الوقت المناسب إلى متن السفينة..

مثلما تعلمين أن المجيدي وطاقمها جميعًا غرقوا لاحقًا بعد سنوات.

الناس المساكين!



Twitter: @ketab_n

# تغيّر الحياة

كان علينا في الربيع (١٨٧١) أن ننتقل أنا وأبنائي إلى شقة أخرى بسيطة ورخيصة. لقد كانت الشقة الجديدة أصغر كثيرًا من الفيلا الحالية، ولذا وجب عليّ أن أبيع أشياء مختلفة من الأثاث دون أن يطاوعني قلبي، وكان ترك الفيلا القديمة أمرًا ليس سهلاً عليّ، آه، نعم، كان صعبًا جدًا، ولا يمكن أن أصفه لك على الإطلاق، وليس ذلك فقط بسبب الذكريات الكثيرة التي ربطتني بالبيت الذي عايشت بين جدرانه السعادة ولحظات الحزن الكثيرة، ولكن لأني أحسست مع هذا الانتقال وللمرة الأولى بشعور جارح بقدوم الفقر، ولكن هذا التغير كان حتميا، ولم يكن بمقدوري دفعه. وبجهل تام مني بمفهوم ربة البيت المجتهدة هنا، سعيت بما أوتيت من طاقة إلى أن أقتصد في العيش. وتفرغت، دون اكتراث لشيء آخر، بالتفكير فقط في الماضي الذي انقضى سريعًا، آه سريعًا جدًا، وبالاهتمام بأطفالي.

وفي هذا الارتباك النفسي والشعور بفقدان النصير والمعين، كنت أسعد في ذلك الوقت بالرسائل التي تصل إليّ من قبلكم بين الحين والآخر. وقد كتبت لي .M رسالة ودّية تستعجلني فيه أن أقوم بزيارة أنا وأولادي في أقرب فرصة إلى الوطن. كل شيء سيكون جيدًا حالما



Twitter: @ketab_n

أقرّر الرجوع ...، كانت مساندتكم هذه تسّري عني كثيرًا، وكنت في قرارة نفسي كثيرًا ما أفكر بالرجوع إليكم في حال أنني عجزت عن مواصلة الطريق الذي قررت أن أسلكه، ولكن ينبغي لي قبل ذلك أن أحاول قدر ما أستطيع.. إن هذا الإباء، مثلما تعلمين، هو الذي جلب عليّ سخط برغش الذي لا هوادة فيه، فكل المحاولات الأخيرة لاسترداد شيء من تركتي قوبلت من قبله بالرفض التام. وقد ازداد لي وضوحا بمرور الوقت أنني لو كنت مواطنة إنجليزية لكان وضعي أفضل من ذلك؛ فبرغش كان في أيدي الإنجليز تمامًا، وكان سيفعل ما يطلبه منه الإنجليز، ولذلك كان متعاطفًا مع الإنجليز أكثر من باقي الأمم الأوروبية الأخرى. وقد كانت لديه في الواقع رغبة لاحقًا أن يضع زنجبار تحت الحماية الإنجليزية، ولكن لم يلقَ استحسانًا آنذاك من قبل أصحاب الشأن من الإنجليز، وهكذا ظلّ الأمر على ما هو عليه. نُصحت من قبل أصدقائي الإنجليز عام ١٨٧٥ بتغيير إقامتي عاجلا من ألمانيا إلى إنجلترا، الأمر الذي كان لا يمكنني فعله، بالنظر إلى الأسباب التي تعرفينها، والتي أبقتني أيضًا بعيدة عنكم. هل كنت من هذه الناحية قد فعلت الصواب أم لا؟ يجب عليّ أن أصارحك أنني طالما عرضت هذا السؤال على نفسي. وعلى العموم أعتقد أنني تعاملت مع هذه القضية آنذاك بكثير من المثاليّة. فقد كان هناك سنويا ما يزيد على مائة ألف شخص من ألمانيا، ينتقل البعض منهم إلى أمريكا ومنهم إلى إنجلترا. وهم أيضًا ألمانيون خُلّص أكثر من أطفالي. فلم أتعامل في ذلك الوقت على الأرجح بحذر كافٍ، وتعلّقت كثيرًا بمثالية تجشمتها بمشقة وحرمان كبيرين.



Twitter: @ketab_n

إنها حالة غريبة جدًا أن يحيا المرء في مكان ما كان يجد فيه قبل وقت قصير اليسر ورغد العيش ليجد نفسه فجأة في ضيق وعسر شديد. وليس ذلك مثلاً لأنني كنت أسعى إلى الترف وحب المظاهر، لا، هذا لحسن الحظ ليس هو الحال. ولكنّ الحرص المخيف على القرش الحقير، ليَتكفّف الإنسان به، كان شيئًا مذلا ومهينا لي، بالكاد يمكن أن أصفه لك. وزاد الطين بِلّة أن المال في هامبورج كان له كل الاعتبار، فكان على سفينة هنائي أن تغرق، ولم يكن قليلاً أن أُحسّس بطريقة مؤلمة بمأساتي.. كانت رغبتي بالطبع هي أن ينشأ الأطفال في مدينة أبيهم على الرغم من أني كنت غير مرتاحة للجوّ في المدينة ذات الضباب الكثير. ولكن الظروف الحالكة كانت تطالبني باستبداد أن أبدأ حياة جديدة تمامًا، متحملة فاتورة الأوضاع، لأغطي نفسي بلحاف أصبح قصيرًا جدًا عليّ. ورغم ذلك لم يكن من السهل عليّ أيضًا أن أعيش بهذه الطريقة في هامبورج، مثلما بدا لي مؤكدًا.. تعودنا منذ صغرنا أن نخضع حقًا لله تعالى، بمعنى أننا تربّينا على ذلك، ومع ذلك فإن قومي لا يستكينون أبدًا للذلّ والمهانة. ولكن كان يجب عليّ من الآن أن أعيش حياة مختلفة تمامًا. فقد كنت حتى وقت قريب إذا قمت، بسبب الملل، بشيء من أعمال البيت أو اشتغلت بالأطفال، فسأكون واثقة دائمًا من سماع لوم وعتاب زوجي الحبيب، لأنه كان يكره كثيرًا أن يراني وأنا أعمل، فكان يقول لي دائمًا: «بيبي، لا يصح لك أن تعملي»، أو أيضًا: «لا تحملي الأطفال دائمًا في ذراعك، ارتاحي، فهناك من الخدم من يكفيك ذلك» ومثل ذلك كثير.. آه ماذا كان سيقول عندما يراني وأنا منذ عدة



Twitter: @ketab_n

سنوات لاحقًا وفي برد الشتاء القارس كيف يجب عليّ دون أي مساعدة أن أعمل كل شيء بنفسي، كل شيء. أو يراني على جانب الموقد البارد دائمًا أذرف الدموع المرّة نصف ساعة قبل أن أتمكن من إشعال النار فيه! وفي الوقت نفسه كانت الطفلتان تعانيان من حمّى قرمزية شديدة. لو كان وجب على زوجي في حياته أن يمرّ بوضع صعب، وفَقَدْنا في هذا الحال كل شيء لوقفت إلى جانبه بلا شك وتحملت كل الصعاب وعملت، لو تطلّب الأمر، العمل الأدنى جدًّا لأجله ولأجل الأطفال.. كان التفكير في أنه يتوجب عليّ أن أواصل العيش في الظروف الأوروبية المعقدة جدًّا وتذكر فقدي الذي لا يعوض، يسلبني ما بقي لي من رمق في الحياة. وقبل كل شيء كان الشعور المؤرق بالوحشة يحطم قلبي دائمًا. وفي ظل هذه الظروف كان كل شيء فوق ما أحتمله فأخذت قدرتي تغرق شيئًا فشيئًا.. «يا الله، امنحني القوة والصمود»، ظل هذا دعائي الدائم طيلة سنوات. وكان من عناية الله الكبيرة عليّ رغم كل هذا أني بقيت محتفظة بحواسي الخمس؛ لأنني أقول لك بكل صراحة أنني كنت على وشك أن أفقد عقلي. نصحني الطبيب أن أخرج من البيت كثيرًا حتى أستطيع الحركة بشكل أكبر. وأخذ ألم الصداع يشتد أكثر وكنت أحس كما لو أن آلافًا من النمل تتحرك تحت فروة رأسي، مما كان يثير أعصابي كثيرًا. وكل الأدوية لم يكن لها أي جدوى. وكان المشي بشكل عشوائي ووحدي أيضًا؛ لأن الأطفال كانوا لا يزالون صغارًا حتى يرافقوني، مخيفًا لي جدًّا. ولذلك قررت أن أتبع تعليمات الطبيب وأن آخذ دروسًا في الكتابة عند مدّرس يسكن بعيدًا عن المدينة، حتى


Twitter: @ketab_n

يكون بهذه الطريقة لخروجي من البيت هدف عمليّ. فكنت أذهب مرتين في الأسبوع ذهابًا وإيابًا مشيًا على الأقدام في ذلك الطقس البارد والماطر من شارع بلوش إلى مكان قريب من مسرح تاليا حيث كان يسكن المدرّس.



Twitter: @ketab_n

# وداع هامبورج

في هذه الأثناء فكرت جديا بترك هامبورج في المستقبل القريب والبحث عن مكان آخر تكون فيه الحياة أرخص، فقد تبيّن لي بوضوح أنه ليس بإمكاني البقاء في هامبورج طويلاً.. أم يتوجب عليّ قبل ذلك أن أنتظر حتى يذهب الأطفال إلى المدرسة، ويشعروا بالخذلان من مصيرهم حينما يتعاملون مع أطفال هذه المدينة الذين تربّوا على الترف؟ قطعًا لا، عليّ أن أجنّبهم هذا، ولكن إلى أيّ مكان يتوجّب عليّ أن أوجه خطاي لأجد مبتغاي؟ كان هذا ليس هيّنا عليّ. لم يعجبني عدم تفهم وجهة نظري من قبل الدائرة المقربة من المعارف والأصدقاء، ومن خلال تجربتي وجدت أن الناس يتصورون أن بإمكانهم تقييم الوضع أكثر من المعنيين أنفسهم، فقد سيقت لي مئات من الأمثلة لنساء أرامل ظروفهن أصعب مني، ومع ذلك استطعن أن يعشن الحياة هنا في هامبورج. ولكن مثل هذه المقارنات بدت لي غير منطقية؛ فأولئك النساء والأرامل هنّ من أبناء هامبورج ولذلك كان من الطبيعي أن يبقين في بلدهنّ، بيد أنني ولكوني غريبة لا يقيدني شيء في مدينة هامبورج، وأستطيع أن أنتقل كيفما أشاء. وكان يتسلّل إلي أيضًا انطباع دائم أن معظم الناس هنا، على الرغم



Twitter: @ketab_n

من تسطيرهم لكلمة الحرية على أعلامهم إلا أنهم على استعداد قليل بالاعتراف بنفس الحرية لمن يعيشون معهم من الغرباء. يجب عليهم أولا وقبل كل شيء إدراك التعامل مع الناس كبشر وليس كآلات، مثلما يحدث هنا كثيرًا. .

أخيرًا وجدت امرأة منصفة أصلها من وسط ألمانيا، نصحتني أن أذهب إلى دارمشتات حتى أعاين المكان، وإذا أعجبني فسأنتقل إليه، فالجوّ هناك أدفأ قليلاً والحياة أرخص من هامبورج. ولكن لن يكون سهلاً عليّ، على الإطلاق، أنْ أرحل وحيدة وأتعامل مع أناس غرباء، ولكن لم يبقَ لي شيء آخر سوى أن أعمل وحدي، مهما كلفني الأمر. أم ينبغي عليّ أن أنتظر حتى يزيد تردّي أوضاعنا المالية يومًا بعد يوم، ومن ثّمّ أتعرض لمواقف غير محمودة وبلا حصر وبالكاد يمكن التعامل معها؟ لا، هذا مخالف تمامًا لطبيعتي، وهكذا عزمت أخيرًا على السفر وحددت موعد رحلتي إلى دارمشتات. سينطلق القطار الذي سأذهب فيه في الساعة السادسة صباحا، ولذلك طلبت عربة تقلّني في الساعة الخامسة صباحا إلى محطة القطار نظرًا لبعد المسافة، وعندما أشارت الساعة إلى الخامسة والربع والعربة لم تأتِ بعد، حملتُ مع الخادمة حقيبة اليد الجلدية وحقيبة السفر واتجهنا معا إلى المكان الذي يسكن فيه سائق العربة والذي لم يكن بعيدًا جدًّا من منزلنا، وعندما وصلنا كانت دهشتي ليست بقليلة حين وجدت كل شيء صامتا كصمت الأموات، هنا توجب عليّ إيقاظ سائق العربة من سباته العميق، وأخيرًا أطلّ علينا الرجل من النافذة


Twitter: @ketab_n

بعد نداءات كثيرة وهو لا يزال نعسان بملابس النوم، ناديته: «سيد هينركس، هل أساعدك في تجهيز الحصان؟» آه من أين لي أعرف شيئًا عن تجهيز الحصان، مثلما يُسمّى هنا. كانت الساحة التي تقف فيها العربة بعيدة عن الشارع، وحينما بدأ سائق العربة بتجهيز الحصان بمساعدة الخادمة سحبتُ أنا العربة بمفردي إلى الشارع لتعجيل وصولنا إلى القطار قدر الإمكان، وفي كل الأحوال سنصل متأخرين عن الرحلة، حان الوقت لكي ننطلق في المسير الجنوني إلى محطة القطار، عندما وصلنا صاح بي هنركس الأمين مرارا: «استعجلي سيدتي إن كنت تودين أن تلحقي بالقطار!» كيف هرعت أركض إلى شباك التذاكر لأقتطع تذكرة لي ومنها مباشرة إلى العربة لأصعد والقطار قد بدأ يتحرك! وبينما كنت لا أزال في انهماكي التام من تلك العجلة غير المألوفة إذ بدأ محيطي يذكرني بواقع حياتي الجديد من غير هوادة؛ فالجدران العارية والمقاعد غير المنجدة كانت تنظر في وجهي متسائلة بشفقة عارمة، حيث لم أتمالك نفسي وأخذت أبكي بكاء حارّا، كنت أحسّ طويلاً أن قواي قد خارت، ولكنني لا أستطيع عمل أي شيء آخر نظرًا للأوضاع الاضطرارية سوى أن أقوم بالرحلة رغم ألم الصداع الفظيع الذي صرت أعاني منه أكثر من سنة. ولأول مرة في حياتي أجدني في عربة من الدرجة الثالثة في القطار، ولحسن الحظ كنت وحدي في المقصورة بحيث استطعت أن أطلق العنان لمشاعري. كانت هذه إحدى الجرعات المُرّة الكثيرة التي قُدّر لي أن أتجرعها كثيرًا. يجب عليّ الآن أن أعيش على الكفاف. وكان هناك أناس يُسمّون «أصدقاء»، كانوا يغتابونني لمقتنياتي الرخيصة، فقد



Twitter: @ketab_n

ارتكبت منذ وقت ليس بالطويل شيئًا من الحماقة عندما توجّب عليّ أن أرتدي نظّارة بسبب إجهاد عينيّ وأخذًا بمشورة الطبيب. فاشتريت نظارة بإطار ذهبي، الأمر الذي جلب عليّ غيبة «أصدقائي»، عندها تبيّن لي معنى المثل المعروف هنا: «إلهي احمني من أصدقائي وأنا كفيل وحدي بأعدائي».. قطعت الآن حيث أنا وحيدة تذكرة الدرجة الثالثة لأحتمل ذل المصير وحدي، وبعدما أجتاز التجربة سآخذ أطفالي معي لاحقًا. صحيح أن أطفالي لا يزالون صغارًا على فهم ذلك وليست لديهم أية معرفة بتقسيمات القطار إلا أنني لا أريدهم أن يعرفوا أنهم في الدرجة الثالثة الكريهة من القطار، هذا بالطبع شعور الأم التي تريدهم أن يتعودوا على الحياة الجديدة تدريجيًا. استغرقت الرحلة وقتا طويلاً تقريبًا وكان الوقت متأخرًا من الليل عندما وصلت إلى دارمشتات، فقصدت فندقًا بسيطًا لأمكث فيه إلى صباح الغد، وقمت باكرًا لأجمع معلومات في أسرع وقت، حول الشقق وأسعار المواد الغذائية وما شابه ذلك، ولكن من دون أن أهتدي بهدى. كانت صاحبة الفندق هي مصدر معلوماتي الوحيد؛ لأنني لم أكن أعرف أحدًا في هذا المكان، ولكن صاحبة الفندق المحترمة، والتي بطبيعة الحال ليس لديها وقت للذين قد ولدوا بالقرب من المناطق الاستوائية مثل حالتي وكان لون بشرتهم أسمر، تطلّعتْ إليّ بفضول سافر تمامًا، وبدلا من الاهتمام بأسئلتي والإجابة عليها رأت من المناسب أن توجه بعضا من الأسئلة، على سبيل المثال: من أيّ بلاد أنت؟، وهنا احتجت إلى تلفيق شيء من خلال تسمية منطقة في جنوب أمريكا، وكذلك إن كان لديّ زوج وأطفال، وحين أجبتها بأنني أرملة ولديّ



Twitter: @ketab_n

أطفال بدأت بالإشفاق عليّ، وعلى ضوء نصيحتها أخذت عربة لمعاينة الشقق، ولكن يا للنحس! في كل مكان الأسئلة نفسها، من أين أنت سيدتي؟ هل لديك هنا معارف؟ من كفيلك؟ إلخ، لا يوجد ترحيب بالغرباء هنا على كل حال، مثل هذه الأسئلة وما شابهها كانت مثبّطة جدًّا لنفسي الغريبة والمحبطة عن التفكير بالاستقرار هنا، وهكذا قررت الرجوع في الصباح التالي إلى هامبورج. هذا النوع من فقدان الثقة بمن ليس ألماني الأصل عايشته لاحقًا مرارًا في ألمانيا، كنت أفكر كثيرًا بشكل لا إرادي كم هو شعور جارح عندما يُضمر لشخص من أول الأمر عدم الثقة (مثلما يؤكده الحال بشكل كاف في دارمشتات)، ولاحقًا شكت لي امرأة مَجَرِيّة في دريسدن وأيضًا امرأة روسية من هذه المعاملة. الوضع لديكم مختلف تمامًا حيث يُبدي المرء لكل أوروبي، ما دام لم يظهر أمرًا مريبًا، الثقة التامة سواء أكان رجلا شريفًا في بلده أم محتالاً، فليس من اللطف أن يُنظر إلى غير الألمان أنهم أناس موضع ريبة وشك من دون أي سبب يدعو إلى ذلك. رجعت إلى هامبورج محبطة، وفي أثناء رحلة العودة تذكرت امرأة أعرفها معرفة سطحية أخبرتني كثيرًا عن دريسدن حيث تسكن الآن، فقررت أن أبعث برسالة إلى هذه المرأة وأستفسر لديها عن الأوضاع في دريسدن عن قرب، كتبت رسالة آنذاك بنفسي، ولكن لا تسأليني كيف! على كل حال يبدو أن السيدة المحترمة استطاعت أن تفكّ طلاسم الرسالة؛ لأنها أجابت على جميع أسئلتي باستفاضة، ولأجل ذلك قررت بنفسي أن أرحل إلى دريسدن وربما سأستأجر شقة في الحال، فقد بدا لي أن الحياة في دريسدن بالمقارنة مع هامبورج



Twitter: @ketab_n

ستكون أرخص بشكل ملحوظ، وكنت أتمنّى قدر الإمكان أن أظلّ في عزلة وهدوء، وأن أكرس نفسي فقط للاهتمام بأطفالي. أعجبتني دريسدن في الحال وخاصة أني وجدت ترحيبا من أسرة صديقتي (أسرة ضباط من هانوفر)، ذهبنا معًا للبحث عن شقة، فصرنا بين صعود ونزول، ولكن لحسن الحظ كنا لا نزال شبابا، وإلا لأجهدنا الإعياء. كانت صديقتي امرأة ذات خبرة بحيث لا يمكن أن تنخدع أو تنطلي عليها الحيلة فلم أحتج إلى الحديث مطلقًا مع كثير من المؤجرين وكنت شاكرة لها كثيرًا هذه المرة، لأنني لم أسمع شيئًا من العبارات السخيفة «من أين أنت سيدتي؟» وغير ذلك، ولو كنت آنذاك أفهم اللغة الألمانية مثل الآن لقلت لأهل دارمشتات المحترمين بهدوء: «أنا من القمر أيها الناس الطيبون»، ففي ذلك الوقت كان الألمان الذين هم في داخل البلاد لا يعرفون عن زنجبار كما أنكم إلى هذه الأيام لا تعرفون عن سيبيريا والمناطق دائمة الثلج، وقد كنت أضطر إلى خوض مناقشة طويلة حتى أؤكد لهم وجود جزيرتنا الحبيبة. وكنت أتساءل إن كان الناس قد صدقوني بعد هذا النقاش، وكنت أستحضر كثيرًا المثل المعبر لدينا «من لا يعرفك قد لا يقدرك أيضًا».

كانت رغبتي أن نسكن وحدنا في بيت صغير به حديقة صغيرة، ولكن للأسف لم أجد؛ لأنني لم أكن أملك السعر المطلوب، وكانت فكرة أن أعيش في طابق من بناية كبيرة ومع أناس آخرين ثقيلة جدًا عليّ، بحيث كنت أستمع للنصائح العملية من قبل صديقتي



Twitter: @ketab_n

بامتعاض، كان لا بدّ أن أستأجر في الطابق الأول الجميل في شارع ...، ولأن هذا الطابق كان فوق ما تحتمله أوضاعي المالية سيتوجب عليّ تأجير بعض الغرف المؤثثة، وكانت هذه الفكرة في البداية مزعجة جدًّا لي، من الآن لا أستطيع أن أعيش وحيدة في طابق مثل عصفور في قفص، بل عليّ الحصول على شقة واسعة، وهكذا وجب عليّ في كل الأحوال أن أؤجر بعض الغرف حتى أتمكن من دفع الإيجار المرتفع، أتيت إلى دريسدن في الوقت غير المناسب، فالوقت المعتاد لتغيير الشقق قد انقضى، ولا يمكنني بسهولة أن أجد شيئًا مناسبًا، أخيرًا استأجرت الشقة في شارع ...، وعزمت على تأجير غرفتين مؤثثتين، ثم رجعت إلى هامبورج لتدبير أمور النقل.. يعد نقل أثاث البيت الأوروبي كاملا عبر القطار من الأمور الأكثر إزعاجا، هذه الأشياء التي بالكاد يمكنك أن تتصوريها، ولسبب بسيط هو أنكم لا تعرفون أسماء الكثير من قطع الأثاث الضرورية وغير الضرورية، فأثاثكم منذ مئات السنين والباقي على حاله لا يمكن مقارنته بالأثاث هنا، فهنا كل جيل له ذوقه وموضته الخاصة به تمامًا، بحيث يلحظ المرء كثيرًا كيف أن الآباء والأجداد يكتفون بأثاث بسيط في حين أن أبناءهم يقتنون ما هو حديث جدًّا آنذاك، ومقتنياتهم ليست بتلك الأناقة الكافية.. صحيح لم يكن لدينا أشياء كثيرة جدًّا لنأخذها ولكن مع ذلك لم يكن من الضروري أن نحمل كل شيء معنا، وبدأ حزم الأثاث، وبعد أربعة عشر يومًا تقريبًا سنسافر أنا والأطفال والمربية بالقطار متجهين إلى عاصمة ساكسونيا.



Twitter: @ketab_n

في الأيام الأخيرة في هامبورج كنت أزور القبر الغالي كثيرًا حيث أستطيع هنا فقط أن أبثّ كل معاناتي. هل هو وهم أن نحسّ بقناعتنا، نتيجة الفقد الأليم، أنّ أحبّتنا هم أموات في الظاهر فقط وأنهم يدركون كلّ آهاتنا وآلامنا الدنيوية مثلما نحسّ بها؟ آه من يستطيع حلّ هذا اللغز غير الله وحده!

على كل حال كانت هذه القناعة عزاء كبيرًا لي في وحشتي.



Twitter: @ketab_n

# بداية صعبة في دريسدن

هي عادة في ألمانيا وفرنسا، وعلى الأرجح في أغلب الدول الأوروبية، أن الغرباء بعد وصولهم يتوجّب عليهم القيام بالزيارة الأولى، ويجب على المرتحل كذلك أن يقوم بالزيارات التوديعية، على عكس المألوف لدينا، وبهذا الاعتبار يفعل الإنجليز استثناء من خلال زيارتهم للقادم في البداية مثلما لدينا، ودافعهم هو إظهار الودّ للقادم والترحيب به في المكان الجديد، ولتقديم المساعدة له أيضًا قدر الإمكان. وهكذا كان لا بدّ لي أن أزور نساء هامبورج من المعارف والأصدقاء لتوديعهن قبل مغادرة المدينة حتى لا أكون متخلفة عن الركب. ويُعرف هنا أيضًا، على نطاق محدود فقط، عادة لطيفة لدى الشرقيين الحقيقيين وهي أنهم يقدمون شيئًا بسيطًا للمرتحل تعبيرًا عن المودّة.

من المعلوم أنه لا يمكن أن أغادر المدينة التي قضيت فيها أكثر أوقاتي حزنًا دون أن أقوم بجولة داخلية.

شاء القدر أن تكون مؤجرتي في دريسدن إحدى نساء هامبورج، والتي، مثلما قالت، سمعت عني الكثير، وهكذا تجنبت سؤال «من أين أنت سيدتي؟». وفي اليوم الثاني من انتقالنا كان كل شيء في



Twitter: @ketab_n

الطابق فوق بعضه، وكنت ألبس بنفسي ملابس التدبير المنزلي لمساعدة حازم الأثاث في التفريغ والتجهيز، فالخادمة كان لديها مهمة صعبة، وهي أن تبعد الأطفال كثيري الحركة عن هذه الفوضى التي تسود الشقة، وفي هذه الأثناء تلقيت دعوة من مؤجرتي لتناول القهوة، كانت الدعوة في الساعة الثالثة، وكان عليّ في الساعة الرابعة أن أنزل؛ لأن مؤجرتي كانت تسكن في الطابق الأرضي، في حين كنت أسكن في الطابق الأول، كان بِودّي أن أرفض الدعوة فهناك عمل في المنزل، ولكن حتى لا أكدر خاطر الناس برفض دعوتهم ذهبت إليهم، ولكن من يصف دهشتي عندما لم أرَ سيدة البيت في أي مكان وظلت غائبة حتى بعد ما بدأنا بشرب القهوة، ومن ثَمّ وجدت نفسي وحيدة مع رجل البيت! لم تشأ العناية الإلهية أن تجعلني إنسانًا خجولاً - وهذه الصفة لو كانت بي لكان من الصعوبة بمكان أن أشق طريق حياتي الشاق وغير المفروش بالورد أبدًا - ومع ذلك شعرت بالحرج أن أجلس وحدي مع رجل غريب عني تمامًا، ولكني فككت اللغز سريعًا، فما إن رشفت رشفات من القهوة التي كانت خفيفة جدًّا، حتى بدأ الرجل المقابل لي بالتنحنح، ليقول لي الكلام التالي: «سيدتي، بعد غد سأسافر إلى المعرض في لايبزج، إحم إحم وأحتاج أيضًا إلى المال، فهل يمكن أن أحصل على الإيجار منك» - «نعم بالتأكيد سيد .X، لقد انشغلت بالنقل عن تسديد الإيجار مقدما، اعذرني لأجل ذلك»، وبعد ربع ساعة بعثت له المال عن طريق الخادمة، التي جاءت بعد وقت قصير بالفاتورة. ما ظننته كان هو الحقيقة، فمثلما علمت لاحقًا، بأن المرأة ابتعدت لأنها لم



Twitter: @ketab_n

ترد أن تكون شاهدة على تنبيه زوجها لي لدفع الإيجار. هل كانت صاحبة البيت الغنية أيضًا تعلم أن مبلغ الإيجار الذي دفعتُه قبل قليل تقريبًا هو كل ما كنت أملكه من نقود؟ لا يمكن! ولكن كان هو كذلك. ولذلك شغلني كثيرًا موضوع تأثيث الشقة في أسرع وقت ممكن، لكي أؤجر الغرفتين، وبعد وقت قصير أُخْبِرت أن زوجين قد عاشا طويلًا في البرازيل سيستأجران الغرفتين لمدة شهرين، مع خادمهم الأسود. من كان أسعد مني في هذا اليوم! دعيني أقل لك إن توفير رغيف الخبز اليومي كان قاصمًا وثقيلًا على نفس امرأة عربية تعيسة الحظ مثلي، فالنفقة على البيت والأطفال دون معرفة في أحيان كثيرة من أين ينبغي أن نتدبر مصاريف اليوم التالي، لا يحس بثقلها ولا يدرك أثرها إلا من هو في نفس حالتي، لأنه هنا يُرعى الأرامل والأيتام بشكل جيد، ولكن بعد موت زوجي عُيّنتُ الوريثة الوحيدة ما دمت أعيش أرملة ولا أتزوج مرة أخرى، هكذا كان ينصّ القانون آنذاك، ووفقًا لذلك لم تُقسّم الثروة بيني وبين أطفالي، وعُيّنت من قبل المحكمة وصيّة لأطفالي دون أن أستطيع فهم ومعرفة ماذا يعني ذلك على الإطلاق، بالإضافة إلى أنه كان يجب عليّ أن أسمّي رجلين مساعدين لي، وكانت كلمة مساعد آنذاك غريبة عليّ تمامًا، ولم أكن أعرف أيضًا هذا المنصب والواجب المرتبط به، وهكذا كان لا بدّ عليّ في البداية أن أسأل ماذا تعني مهمة المساعد، وكيف ينبغي لي التصرف معه، إن كنت فهمت أو لا فالقانون يبقى هو نفسه، الحقيقة أني كنت أرى بنور أفريقيا البعيدة وليس بنور شاطئ نهر إلبه، ولم تكن لدي خبرة بالأمور الأوروبية، ولم أكترث بالقانون، فطلبت


Twitter: @ketab_n

من رجلين من معارفي أن يتوليا منصب المساعد، وقد استجابا لذلك، واستُثمر المال من قبلهما في السندات الحكومية الأمريكية والروسية وسندات القطارات المجرية وأيضًا في الرهونات العقارية. وكان مصطلح السندات الحكومية وسندات السكك الحديدية إلى ذلك الوقت غريبا عني تمامًا، واستغرقتُ مدة طويلة حتى أفهمها وأقدرها حق قدرها. وبعد وقت قصير من انتقالي إلى دريسدن استقال كلا المساعدين من المهمة، وهكذا وجدتني مضطرة إلى أن أختار رجلين آخرين، الأول كان طبيب المنزل الكبير الأمين لدينا، والآخر كان محاميًا معروفًا كثيرًا، ولأن الطبيب مثلما أوضح لي بنفسه لا يفقه كثيرًا في هذه الأمور فضلاً عن أن لديه عيادة كبيرة، فقد تولى المنصب بالاسم فقط، ولأجل ذلك كان عليّ أن أتعامل وحدي في الشؤون المالية مع المحامي فقط، والذي كشفت أعماله أنه لا يُقدّر أبدًا، بحيث كان يتوجب عليّ أن أعاني من فقر مدقع في أحيان كثيرة. مضى عليّ ثلاث سنين منذ أن أصبحت أرملة ومن دون أن أعلم مقدار الأرباح السنوية المستحقة، وبمشقة فقط وفي كثير من الأحيان بتنبيهات متكرّرة كان يسلمني المال، ثم يتركني مرة أخرى من دون فلس، وأظل مرة أخرى ألحّ عليه، وبذلك أصبحت حياتي اليومية صعبة للغاية، فقد وجدت نفسي في متاهة، ورغم كل الأسئلة ظللت بلا إجابة، بحيث لم أكن لديّ علم بمستحقاتنا السنوية، ونتيجة لهذه الظروف الظالمة كثيرًا كنت أعيش في كثير من الأيام دون أن أملك فلسًا واحدًا، وكنت أحتاج إلى أن أقترض المال حتى أقاوم ظروفي الطارئة وحتى لا أطعم أولادي حساء اللحم فقط، وأكون



Twitter: @ketab_n

سعيدة عندما أتمكن من إسكات جوع المساء بالخبز الأسود الجاف وبكأس الحليب. كانت فكرة القرض بغيضة لي منذ القدم، ولكن رغم الظرف المرّ لم أستطع أن أجلب لنفسي هذا العدو الشرير، آه أتت عليّ أوقات كئيبة جدًّا، وكان يجب عليّ أن أستجمع قواي الباقية وألا أستسلم سريعًا لهذه الأوقات العصيبة من حياتي، وحتى حَصّالة أطفالي الصغيرة، كان يجب عليها أن تُضحيَ بما فيها من النقود، لأتمكن من شراء الأشياء الضرورية، وعندما ظلت كل محاولات الطلب والإشعارات للمساعد لإرسال شيء من المال دون نجاح، ونفدت النقود القليلة التي كانت في حصّالة الأطفال، وجدت نفسي في يوم من الأيام خالية من أية نقود على الإطلاق. تخيلي وضعي الآن عندما أتتني الخادمة لتأخذ مني المال كالعادة لتذهب إلى السوق لشراء الأغراض، فهناك كل شيء أرخص من المحلات، وأنا بكل بساطة لا أملك فلسًا واحدًا.. كان هذا اليوم في بالي منذ وقت، وفكرت أيضًا بالحل الضروري، ولكن كان يبدو لي هذا الحل يومًا بعد يوم أصعب دائمًا، حتى أتى أخيرًا اليوم الذي كان لا مفر منه، فكرت في بيع مجوهراتي حتى أكافح الفقر المحدق بنا، ولكن من باب الإحسان للأيام الخوالي كنت أحاول التشبث بالأشياء بقوة، ومن جهة أخرى خشيت الذهاب الحتمي إلى بائع المجوهرات.. قلت للخادمة ليس لدي نقود في البيت وعندما أرجع من المدينة سأجلب شيئًا منها. ما قلته لها كان صحيحًا فليس عندي نقود صغيرة، ولكن أخفيت عليها أنني ليس لدي نقود على الإطلاق. الآن فتحت الخزانة وأحضرت شيئًا من الأقراط، التي تعرفينها من السابق، والتي لبست



Twitter: @ketab_n

غيرها في بداية إقامتي في هامبورج، أخفيتها سريعًا في حقيبتي عندما شعرت بقدوم الأطفال الذين كانوا لا يفارقونني، فقد كنت أتجنب بكل بساطة أسئلتهم البريئة، فعلى الرغم من أنهم صغار إلا أنهم كانوا يقظين، وعندهم حدة ملاحظة. فبماذا سأجيب على سؤالهم: «ماما، ماذا تريدين أن تعملي بالأقراط» لن أملك الشجاعة لقول الحقيقة لهم، وسأقول لهم شيئًا آخر.. وهكذا ذهبت، وقلبي غير مقتنع، إلى بائع المجوهرات في المدينة القديمة، بدا لي وكأنني قد سرقت الأقراط من أحدهم بدل أن تكون ملكي فعلا، وشعرت بالخوف في الطريق كما لو أنني اقترفت ذنبا أو جريمة، وقفت طويلاً أمام المعروضات الثمينة في المحل قبل أن أملك الجرأة وأدخل، وأخيرًا دخلت وإذا برجل يلبس حسب آخر الموضات هنا، ويبدو تقريبًا يهودي، انحنى وسألني بلغة فرنسية عما أريد، أخرجت العلبة الصغيرة بتردد كبير وسألته بالألمانية إن كان يريد شراء القرطين، في هذه اللحظة بدا لي وجودي بائسًا وعديم قيمة، ورحبّت فجأة بالموت لي ولأطفالي كأفضل حل من هذا البؤس، ولم أستطع أن أقول شيئًا إزاء الاحتقار الذي أظهره صاحب المجوهرات تجاهي أكثر من أن أبيع الأقراط بمشقة كبيرة بأقل كثيرًا من سعرها الحقيقي وأستعجل الأمر وأرجع إلى أطفالي.. ما زلت أتذكر جيدًا كيف كنت متكدرة ولم أهنأ أبدًا في ذلك اليوم. يقال لدينا إن عباد البقر، البانيان، هم تجار بلا ضمير أو هم شياطين المال الأسوأ، ربما يكون ذلك، ولكن ليسوا هم الوحيدون، فأمثال هؤلاء الناس في كل مكان، وبالتأكيد ليسوا الأقل في أوروبا. حدثت لي نفس الحادثة لاحقًا بعد وقت



Twitter: @ketab_n

طويل، والتي للأسف كانت أكثر إحباطًا بكثير، ربما ما زلتِ تذكرين المشبك الذهبي الذي صنعته لي على نموذج سلاح البحرية الإنجليزي من الذهب الخالص، كنت أريد بيع هذا المشبك، فذهبت إلى بائع مجوهرات معروف وطلبت منه أن يقدر ثمنه، راق لبائع المجوهرات أن ينظر إليّ بشفقة، فقد اعتبرني سفيهة ومعتوهة، ومن دون أن ينظر إلى المشبك عن قرب أرجعه إليّ وقال لي بلطف زائد: «نحن نتعامل فقط مع الذهب والفضة»، ولكنني أجبرته بطريقة كانت شاقة عليّ أن يختبر المشبك بحجر الذهب، فقد شعرت بالغضب في داخلي من أن يعتقد الرجل أنني أعطيته شيئًا ليس له قيمة، ربما من النحاس، في حين أن المشبك هو من ذهب عيار ١٨، أثبت محك الذهب الذي لا يخطئ صحة كلامي، وأن عدم ثقة بائع المجوهرات كان لا داعي له على الإطلاق، توجب عليه أن يعترف على مضض أن المشبك هو من ذهب عيار ١٨، والآن بدأنا بالأسئلة الطريفة: «أنتِ على الأرجح غريبة ولست ألمانية، أليس كذلك؟» - «هل أبدو ألمانية؟» - «لا»، غضبتُ من تصرفه هذا وبدأت بلف المشبك، وقلت له إذا كنت تعلم أني أجنبية ولست ألمانية فلم تسألني إذن؟ ثم ذهبت إلى محل متواضع، وبقليل من الكلام بعت المشبك ولكن حسب وزن الذهب. وعلمت لاحقًا أن هذا المشبك قد استعمل لصك النقود المعدنية. ومن يدري لعله يرجع إليكم مرة أخرى في شكل نقود معدنية!



Twitter: @ketab_n

# مساعدون لطفاء

للأسف لم ينجح تأجير الغرف؛ لأن شقتنا بعيدة قليلًا عن المركز، الذي كان مفضلا في الغالب لدى الأجانب، وكان عليّ أن أدرك عاجلا أنني لا يمكني أن أظل في الطابق مرتفع الإيجار طويلًا، وعندما انتهى العقد السنوي، انتقلنا إلى شقة أخرى أرخص، ولكن قبل أن أنتقل، أتتني في يوم من الأيام مؤجرتي لتدعوني إلى القهوة في اليوم التالي، فقلت لها في حال أنها كانت تنتظر ضيوفًا آخرين غيري فإنه يجب عليّ أن أعتذر لأنني لا أحب أن أختلط بالناس، ولكنها قالت إنني مدعوة وحدي، ولذلك لبّيت الدعوة. باحت لي بشيء من الارتباك أن سيدة كبيرة، هي بارونة سوندسو، سوف تحضر وترغب بالتعرف عليّ، ولأجل ذلك دعتني المؤجرة، رفضت الدعوة وعللت أنني لا أحب أن ألتقي مثل هؤلاء الناس الفضوليين، فضلًا عن ذلك فأنا لا أرغب بتكوين معارف جديدة، ولكن مؤجرتي أخذت تسترسل في طلبها وتوسلها، فلم أرد أن أخيب أمل السيدة المحترمة التي كانت بطريقة غير معهودة ولأول مرة تظهر ضعفها أمامي، أنت تعلمين منذ القدم أنني أكنّ لكبار السن البر والإحسان دائمًا، وأخيرًا لهذا الاعتبار وعدت مؤجرتي وأكدت لها زيارتي، وعندما حضرتُ



Twitter: @ketab_n

في اليوم الآخر في الوقت المحدد وجدت السيدة المعنية تنتظرني، تبادلنا التعارف بيننا، ومن خلال التحايا الأولى الرسمية والسطحية، شعرت بالانجذاب إلى المرأة الكبيرة، كانت لديها طبيعة رؤوم، الأمر الذي أثار فيّ انطباعا حسنا، لم ألاحظ أي أثر للفضول المبتذل الذي أعاني منه كثيرًا، وكانت سجيتها سمحة ولطيفة. كان هذا اللقاء، الذي قبلته في البداية على مضض، سببًا لإحدى أسعد لحظات حياتي في ألمانيا، وعندما مددت يدي لتوديع المرأة الكبيرة المحترمة شعرت وكأنها جدتي، قدّر الله الكريم برحمته ولطفه أن يقدم لي في هذه المرأة الغريبة سندا معنويا لوحشة روحي.. بعد عدة أسابيع تفاجأت بزيارتها، إذ لم أتوقع مجيئها، فقد أخبرتني مؤجرتي أنها لا تستطيع أن تصعد الدرج، وكم كان مؤثرًا رؤيتها وهي تجهد نفسها بمساعدة عكازها لتصعد الدرج، وكنت أرى كيف سُرّت كثيرًا بأولادي الذين بادلوها لاحقًا الشعور نفسه، وعندما أرادت المغادرة ساندتها وهي تنزل من الدرج، وفي الوداع قالت لي ناظرة إليّ بإخلاص: «حبيبتي، أعتقد أننا نفهم بعضنا»، آه نعم فهمنا بعضنا؛ لأنني من تلك اللحظة شعرت بتحسن حياتي الروحية تدريجيا، وكنت أجد في هذه الصديقة العطوف الجديدة معنى المسيحية الحقيقية التي كنت أبحث عنها عبثا حتى هذا الوقت، هذه المرأة كانت سجيتها الخلق النبيل والتقى والورع، وكانت لديها روح شفافة، ترى كل شيء بإحساسها المرهف، ولكنها كذلك تستطيع أن تقيم بإنصاف ونزاهة، أخذت تدعوني من ذلك الوقت بمُخْلِصتي، وسرعان ما كان الشيء نفسه بالنسبة لي، حتى هذا الوقت وعلى الأرجح إلى نهاية حياتي سوف



Twitter: @ketab_n

أتبرك بهذه اللحظة، التي رأيتها فيها لأول مرة. كانت تفهمني تمامًا، كما تفهم الأم الحنون أولادها، وسرعان ما بادلتها هذه الثقة، فقد كانت أفكاري وأعمالي كتابًا مفتوحًا أمامها، آه كم مرة سقت إليها قلبي المثقل بالأحزان، وقد كنت مطمئنة إلى تفهمها ومشاركتها في كل حال، كم مرة آه، كم مرة عدت إلى البيت من عندها مواساة وقوية، لأتمكن من مواصلة طريق حياتي المملوء مشقة، فلن أوفي شكر الله الرحيم على عنايته هذه؛ فقد كان طريقي طويلاً والمعوقات المستمرة والكثيرة كانت تعترض سبيل حياتي دائمًا. وكان يتفجّر فيّ ظمأ لا ينطفئ إلى وطني الحبيب، وعلى الرغم من اختلاف العمر بيني وبين صديقتي الحنون إلا أننا كنّا منسجمتين في الأفكار والشعور، في كل شيء، وكنت مطمئنة إلى تفهمها وتعاطفها في كل الأوقات. اعتدت كثيرًا، وفق رغبتها، أن أجلس بجانبها، واضعة رأسي بين يديها، وكانت تربّت على خدي مثل أم حنون. وقالت لي ذات مرة: «أراك كنخلة كان ينبغي لها أن تترعرع في بيت محمي فيه من الرعاية والدفء، ولكنك تعرضت للبرد والرياح في الخارج. ولكن لا تيأسي عزيزتي وثقي بأن الله لن يتخلى عنك».. مثل هذا الكلام المعزّي كان يثلج صدري وخصوصًا حين يتركني مساعدي المحامي في ضائقة مالية، وأتعرض من قلق إلى آخر.. كان الوقت تقريبًا فصل الربيع من السنة الثانية من إقامتي في دريسدن (١٨٧٤) عندما كنت في كشك يتبع طابقنا ألاعب الأطفال، إذ قدم إلي رجلان متأنقان في لباسيهما، وتحدثا إليّ: «المعذرة هل تسكن هنا أميرة زنجبار؟» وعندما أجبتهما: «أنا من تبحثون عنه، ماذا تريدون؟»، ردّ



Twitter: @ketab_n

عليّ الأكبر منهما أنهما يوشكان على القيام برحلة إلى زنجبار كسائحين وسيكون من دواعي سروري إن كنت أرغب في أن ينقلا لي أي طلب إليكم، ولكن كلا الرجلين كانا غريبين، فاعتذرت شاكرة لهما عرضهما. فأراد الرجلان اللذان يزعمان أنهما سائحان الحديث معي مرة أخرى في الصباح، ولكنني أعلمتهما عن طريق الخادمة أنني لا أستقبل الرجال الذين لا تربطني بهم أي معرفة. كيف تجدين ذلك؟

بدأت صحتي تدريجيًا تتراجع وأصبحتُ مع الوقت عصبية وسريعة الغضب، مما حدا بالطبيب المعالج أن يأمرني في أسرع وقت ممكن بتغيير الجو، كان الكلام أسهل من الفعل؛ لأن مثل هذه الرحلة مع ثلاثة أطفال صغار وفي أثناء الشتاء، إلى جنوب أوروبا، حيث كل شيء هناك غالٍ، لا تحتملها قدرتي المالية، وهكذا لم يبقَ لي من خيار إلا أن أظل في البيت، كل ضوضاء ولو قليلة كانت تجعلني أصاب بالهلع، وهكذا توجب على أطفالي والخادمة أن يلبسوا الشبشب دائمًا، ساءت حالتي الصحية كثيرًا، وعزمت بكل الطرق والوسائل أن أقضي الصيف خارج دريسدن، ففكرت أن أؤجر كامل شقتي المؤثثة لأشهر الصيف، ربما لأسرة تودّ أن تقضي الصيف في المدينة، ولكن احتمال ذلك كان ضئيلاً نظرًا لكثرة المعروض من الإيجارات في دريسدن، ولكن قبل أن أتراجع عن نيتي هذه وأستسلم للأمر المحتوم أردت المحاولة بكل الطرق، فأعلنت مرارًا في الجرائد ولكن للأسف كان عبثًا، وأخيرًا ذهبت إلى أحد السماسرة في شارع



Twitter: @ketab_n

فكتوريا، وسجلت شقتي في حال أراد أحد استئجارها، وبعد وقت قصير لحسن حظي أجّرت الطابق كله لأميرة رومانية مع أولادها، قرّروا قضاء الصيف في دريسدن. وهكذا استطعت مع الأولاد أن نرحل إلى سويسرا الساكسونية. هناك تعرفت على بروفيسور(*)، وكنت مدينة له كثيرًا لاحقًا. ففي أحد الأيام أحضرت لي الخادمة بطاقتي تعريف، إحداها لسيدة روسية نبيلة، تعرفتُ عليها بشكل سطحي في دريسدن، وهي التي طلبت مني أن أتعاون مع البروفيسور، والبطاقة الأخرى للبروفسور نفسه الذي كان ينتظر في الخارج، وبالكاد كنت أصدق الخادمة عندما أخبرتني أنّ الرجل المذكور يقف في الخارج ببدلة سهرة رسمية وقبعة وربطة عنق بيضاء وقفازين أبيضين، كان لباس الحفلات الرسمي هذا بالتأكيد ليس سهلاً على عالِم معروف، فقد ظهر عندما عرفته عن قرب أنه كان يكره جدًّا مثل هذه الرسميات، ولاسيما عندما يأخذ المرء في الاعتبار أنه قادم من دريسدن إلى هنا بالقطار. كان غرض زيارته أن يطلب مني مساعدته في فك خريطة فلكية، وكانت، إن لم أكن مخطئة، ترجع إلى ما قبل ستمائة سنة، ونوع الخط الذي كان على هذه الخريطة الفلكية هو الرسم الكوفي القديم، الذي كنت لا أعرفه بشكل جيد، واعترفت له بصراحة بجهلي فيما يتعلق بهذه الكتابة المختلفة عن

---

(*) (حسب الناشر) البروفيسور يرجح أن يكون العالم الألماني يورغ أوغست شفاينفورت (١٨٣٦ - ١٩٢٦).



Twitter: @ketab_n

كتابتنا، ولكنني أوضحت له أنني على استعداد أن أساعده قدر المستطاع، فطلب مني السماح له بالمجيء الأسبوع القادم، ووعدته بذلك، ولكن عندما قدم مرة أخرى بذلك الزيّ الرسمي رأيت من الواجب أن يتحرّر من هذا القيد التافه الذي لا داعي له، فقلت له: «بروفيسور، أرجو أن تأتي من الآن فصاعدا بلباسك المعتاد».. وبهذه المناسبة تعلمت في الوقت نفسه أيضًا شيئًا من حقائق علم الفلك، فقد كنت متمسكة بالرأي الذي لدينا إلى ذلك الوقت، أن الشمس تدور حول الأرض وليس العكس، وقد تجشّم العالم المحترم كثيرًا من المشقة لإفهامي خطأ ذلك، لأن اعتقادنا كان أكثر إقناعًا لي. ولاحقًا عندما انتهينا من فك الكتابة على الخريطة الفلكية اقترح عليّ البروفسور اقتراحا أسعدني كثيرًا، وقَبِلته في الحال، وهو أن أعطيه دروسًا في اللغة العربية على أن يعطيني في المقابل ساعات في الدروس العلمية، وهكذا كان يأتي مرتين بانتظام أسبوعيًا، حيث كنا نتبادل التدريس.. يا الله كم كلفته من المشقة عندما كان يطلعني على أسرار العلم، فقد كنت لا أتقبل كل شيء، يعلمني إياه، وكنت أسأله باستمرار كيف نشأ هذا وذاك وأطلب لكل شيء دليلاً، لم أعرف معلما أفضل وأكثر سماحة منه ولو كنت لم أتعلم بشكل جيد لكان ذلك ليس بسببه، كنت أقول له كثيرًا أصبح الوقت متأخرًا وعلينا أن نبدأ دروس اللغة العربية لأنه كان متحمسًا لتدريسي أكثر من تدريسي له العربية، فيرد عليّ كثيرًا: لا لا، أسئلتك تهمني كثيرًا، فأنت مثل غابة يجب أن يُهتم بها حتى نصنع منها حديقة فيناء. ومن ذلك الوقت



Twitter: @ketab_n

استطعت أن أقرأ الكتب الألمانية والجرائد بفهم أكثر، وحتى إنني كنت أحيانًا أحضر محاضرات علمية، وبعد وقت قصير عرفني على زوجته وابنته، وكنت مسرورة بالتعرف على حياتهم الأسرية المتجانسة. وعندما قررت أن أغادر إلى إنجلترا بذل جهدًا في تعليمي التاريخ الإنجليزي.



Twitter: @ketab_n

# تركة الزوج

لا بدّ أن أتحدث مرة أخرى عن المعاملة عديمة الضمير من قبل مساعدي المحامي في هامبورج، فقد كابدت الفقر المدقع المستمر بسببه، ولأنه حسب قانون مدينة هامبورج «الرائع»، سيكون كل رأس مالنا في يديه، فقد كنت فاقدة القدرة تمامًا، وببساطة كنت تحت رحمته، فقد كنت بعد مشقة لا توصف أحصل منه أحيانًا على قليل من المال ولكن كان دائمًا أقل بكثير من ربح رأس المال، لن تكون هناك أبدًا محاسبة له لأنه كان يعرف جيدًا كيف يلف ويدور، ودائمًا ما كنت أنهزم وألجأ إلى مجوهراتي، قطعة تتبع قطعة. ففي يوم من الأيام وقد كنت مستسلمة للحزن في الشتاء الكئيب، تلقيت رسالة من هامبورج، من جهة صديقة توضح أنه قد أصبح معروفًا في هامبورج أن الأوضاع المالية لمساعدي المحامي أصبحت سيئة جدًّا، وفوق ذلك فإن حالته الصحية أصبحت حرجة. واستطردت الرسالة أنه في حال توفي المعنيّ الآن فإنه يُخشى عليّ وعلى أولادي من الفقر.. لا يمكنك أن تتصوري ماذا يعني وضعي الراهن، الذي وضعني فيه القدر، وقفت من دون معين وفي أعلى درجات القلق من النبأ السيئ، ماذا يجب عليّ أن أفعل حتى أتجنب هذا الخطر المحدق؟



Twitter: @ketab_n

وكوني أرملة لرجل من هامبورج كان عليّ أن أخضع للقوانين المحلية بمعنى أني ما دمت لم أتزوج مرة أخرى فيجب أن تبقى تركة زوجي بلا تقسيم، والتي قُرّر لي في إدارتها الاسم فقط، ولكن التفويض الحاسم كان في يد المساعد الذي عين من قبل المحكمة، وقبل تلقيّ لهذا الإنذار كنت قبل عدة أشهر في زيارة إلى هامبورج، وعندما سألت المحامي أين يحفظ أوراقنا الاستثمارية، تلقيت منه إجابة مقتضبة: «سيدتي، هذا يعتمد؛ منها ما أودعه في البنك، ومنها ما أحفظه معي»، ومن هنا يُلاحظ أن القانون قد أعطى صلاحية غير محدودة للمساعد المعني في إدارة أموال الأرملة واليتامى، وفي وضعي الطارئ توجهت إلى البروفيسور المذكور سابقا، والذي نصحني بأن أتوجه مباشرة إلى المحكمة الساكسونية الملكية في قسم شؤون الوصاية بطلب تولي إدارة أموالنا بصفتي من سكان دريسدن حاليًا.

أوضح لي مكتب الوصاية أنه يُعنى بأموال القاصرين فقط، ومن ثَمّ فلن يقبل طلبي إلا بعد أن يتم تقسيم رأس المال بيني وبين أطفالي، إن كنت أريد ذلك. نعم بالتأكيد، هذا ما كنت أريده، فإني إنْ لم أكن أريد حماية الأطفال وحدهم فمن أحمي إذن، إذ قلما فكرت في نفسي، بل يقع التفكير في مستقبل الأطفال في قلبي أكثر من أي شيء آخر. كنت أظهر الارتياح ولكني كنت أحسّ فعلا بقلق كبير وزاد التفكير أكثر فأكثر بالاستدعاء العاجل، الآن تم تسجيل طلبي من قبل المحكمة في دريسدن، وفي الحال تم اتخاذ الخطوات


Twitter: @ketab_n

اللازمة لمخاطبة إدارة الوصاية في هامبورج لتسليم الأموال عاجلا إلى محكمة دريسدن، بعدها بدأت تلاحقني في هذا الوقت المثير الهواجس ولم أستطع النوم في الليل، فتوجّب عليّ أن أستعمل كثيرًا من الكلورال بناء على أمر الطبيب حتى أستطيع النوم، وفوق ذلك كان يعاني أحد الأطفال من التهاب اللوز المستمر، أحد الأمراض السيئة، التي كانت تنتشر هنا في الشمال، ووضعني في قلقل دائم، لا تتصورين مطلقًا كيف تبدو كئيبة هنا غرفة المرضى في الشتاء، إذ تغلق الأبواب والنوافذ ويستعمل حتى اللباد والطحالب ليُحكم سدّ النوافذ فيؤدي ذلك إلى ضيق في الصدر بسبب الضباب الكثيف الخانق، والذي يبعث حتمًا على الأفكار الكئيبة. كم مرة، آه كم مرة، كانت تحلّق أفكاري إلى جزيرتنا الحبيبة، وكنت أحسدكم كثيرًا على جوّ السماء الصافي دائمًا وعلى طريقة حياتكم البسيطة والمتحررة تمامًا من كل التعقيدات التي تسمى هنا بمكاسب الحضارة وروح الإنسان الوثابة.. سرعان ما تكشّف لي أن قلقي على أموالي التي تدار في هامبورج لم يكن من فراغ، فعندما طلبت إدارة الوصاية من المساعد الدكتور .K تسليم الأوراق المالية، لم يستطع تسليمها في الحال، وهذا يعني أن الأموال الموكولة إليه ليست متوافرة بالكامل، وبناء على ذلك أخذ كثيرًا من الوقت ليتمكن من استبدال الأوراق المفقودة. ما كنت أكابده في هذا الوقت لا يمكن أن أصفه لك، فكل ما كان يُعلمني به مكتب الوصاية أو يود إقراره كنت أقول إزاءه بكل بساطة نعم، فقد كنت أفتقد في ذلك الوقت أي قدرة على الحكم أو


Twitter: @ketab_n

اتخاذ الرأي. فوّضت أمر رعاية ما كنت عاجزة عنه، لجهلي بالأوضاع الجديدة، إلى الله، الذي هو الوحيد العالم بحالتي الداخلية الحقيقية. وفي يوم من الأيام تم استدعائي من قبل مكتب الوصاية وأُخبرت أنه من ضمن الأوراق المالية التي تَلقّوها من هامبورج مستندات لشركة القطار الشمالي المجري والتي لا يمكن اعتبارها مالا للقاصرين، لعدم تأمينها، ولذلك يجب أن تباع، ولكن نبهوني أن قيمة السندات المذكورة الآن ليست بالسعر الذي اشتريت به سابقا، ويتوقع لدى بيعها خسارة ليست يسيرة. قَرّرت لأجل ذلك أن أجنب أطفالي الخسارة المحتومة، وأن أقبل هذه الأوراق كجزء من تركتي.. الآن فقط، وبعد توسل ومطالبة لسنوات، استطعت أخيرًا أن أطّلع على إيراداتنا السنوية، كما توافر لي أيضًا، ولكن بالمقارنة بمتطلبات الحياة اليومية، مبلغ زهيد. وهكذا أحسست بالارتياح لإشرافي على أوضاعي بشكل واضح. تم دفع نصيبي من التركة كاملا، والذي يتكون من قيمة سندات شركة قطار الشمال المجري وجزء قليل من أموال أخرى، فمكتب الوصاية كانت وظيفته، مثلما ذكرت، التعامل فقط مع أموال القاصرين، ويجب على الأرملة أن تهتم بنفسها، فالقانون الصارم ينطبق على كل الأرامل الألمانيات سواء أكنّ قد وُلِدن في منطقة نهر إلبه أو في المحيط الهندي، ومن يكترث أيضًا إن كنت لا أستطيع فهم أو إدراك الأوضاع المعقدة في هذا البلد الأجنبي؟ لا أحد إلا نفسي.

نُصحت بشكل ودي أن أعهد السندات والأموال المستلمة إلى



Twitter: @ketab_n

أحد البنوك، وأن أحفظها هناك، وهذا ما فعلته. وبعد وقت ذهبت إلى البنك المعني كالعادة حتى أسحب الأرباح المستحقة، وهنا بدل أن ينتظرني المال انتظرني هذا الخبر الذي صدمني كثيرًا، أُخبرت بكلمات جافة أن أسهم شركة القطار الشمال المجري في الأيام الأخيرة انخفضت قيمتها كثيرًا ويُخشى على الشركة من الإفلاس!! هل تفهمين ماذا كانت تعني لي هذه الكلمات؟ إنها تعني أنه في حال أفلست شركة القطارات حقًا، فسأفلس معها، وسأخسر تقريبًا كل أموالي. أُشير عليّ في البنك أن أبيع الأوراق في أسرع وقت ممكن، لم أستطع في الحال أن أقرر ذلك ووعدتهم أن أحضر في اليوم الثاني، فرجعت إلى البيت بقلب حزين، وكنت في الليل بدل النوم والراحة أفكر في القيمة الفعلية لأموالي، لم أصل إلى أي نتيجة أخرى إلا أن أفعل ما نصحني به البنك، وقد كنت لا أفهم على الإطلاق شيئًا من هذه الأشياء، وفي الصباح التالي كرّر لي البنك نصيحته ببيع الأوراق. وبحصول ذلك تكبدت خسارة أكثر من ثلاثين في المائة.. ابتهجي لأنك مالكة سعيدة ومحظوظة لمزارع، وليس لك شيء من هذه الأوراق المالية؛ فإنك أنْ تملكي مزارعك لهو أكثر أمانا من أن تستثمري ثروتك في أوراق ينتشر حول ثقتها الائتمانية ضباب كثيف. وبالكاد يمكنك أن تفهمي هذه الأشياء فهمًا صحيحًا، وكيف يكون ذلك؟! فلم يحدث الأمر معي أيضًا بشكل أفضل، مع أنني عايشت هذا الوسط سنوات كثيرة، وستفهمين بشكل أقل لو قلت لك إن الأموال المستثمرة في الأوراق ليس موثوقًا فيها كثيرًا، فهي تعتمد على ظروف مختلفة، منها على سبيل المثال الربح، والالتفاف الكثير



Twitter: @ketab_n

لمختلف المُلاّك، والخطابات المتقلبة دائمًا لرجال السياسة، وعلى صدف أخرى كثيرة، كل هذا يمكن أن يؤدي إلى ارتفاع أو انخفاض في قيمة الأوراق، حيث يجب أن يوطن المرء نفسه دائمًا على المصادفات. ومع أنني أصبحت الآن في مأمن من عبث تصرفات المساعد إلا أنني صرتُ في قلق دائم؛ إذ توجب عليّ أن أحسب جيدًا بدقة وألا أسقط ضحية الأوضاع السائدة، فملك أطفالي أصبح يُستثمر من قبل مكتب الوصاية في سندات الحكومة، والذي لا يدرّ أرباحا كثيرة كما هو معروف، ويجب أن يُتصرف بتقتير أكبر عندما يكون ما تملكه ليس كبيرًا جدًّا، حتى لا يكون في نهاية السنة ما أنفقتَه أكبر مما يدخل عليك. كان يجب عليّ أن أجاهد كثيرًا حدًّا لا يوصف لتنفيذ ذلك. بذلك لا يمكن أن تفكري أنني كنت أطمع في حياة الترف والرفاهية، هيهات، بل للحفاظ على مستوى المعيشة طبقًا لما يُسمّى هنا بالوضع المتوسط، ورغم كل الحسابات والمراجعات إلا أنني استطعت أن أحسّن قليلاً فقط من وضعي، ولكن اقترب الآن موعد إدخال الأولاد إلى المدرسة وذلك حسب قانون البلد، فليس بإمكاني أن أوفر لهم الدروس في البيت مثلما كنت أتمنى. والتعليم في المدارس الخاصة في دريسدن باهظ الثمن، ولم أكن أستطيع التفكير بتدريس أطفالي الثلاثة هنا في المدرسة الخاصة بسبب وضعي المالي المتدني. وهكذا لم يبقَ لي خيار إلا أن أفكر بكل الوسائل والطرق لكي أتعامل مع المهمة القائمة دون معرفة كافية بجسامتها.



Twitter: @ketab_n

# من دريسدن إلى رودولشتات

كما هي العادة أن يحدث هذا الأمر كثيرًا في الحياة، وجدتني أيضًا في وضع تَصامَّت فيه الآذان عنادا للعقل، وتغليبًا لمنطق القلب، فكثيرًا ما أثار فيّ العقل أنه محضُ وهم مني أنْ أتشبث بفكرة أن يتربى الأطفال تربية ألمانية. ولكن ألا يحدث ذلك محبةً للمُتوفّى؟ هكذا كان يحدثني قلبي، وفي المقابل دافع العقل عن حجته من خلال تكراره لي مئات المرات أن زوجي المسكين بحبه الكبير لي لن يسمح لي ولا لمرة أن أعيش حياة في مثل هذه الظروف الراهنة التي يجب أن أواجهها ببذل قواي الجسدية والمعنوية، خطوة بخطوة. ويواصل العقل تنبيهي أن الوقت قد حان أن تنتقلي إلى مكان جنوبيّ حيث لا شتاء قارس ولا قيد مدرسي، لا يمكنك أن تظلي هنا في دريسدن مدة طويلة، الأمر الذي تدركينه بنفسك، وماذا ستفعلين؟! ظل يحاول فيّ إلى أن أقنعني.

نُصحت بالذهاب إلى تسيتاو أو فايمر، حيث الحياة أرخص، ولكني لم أكن أعرف أحدًا في كلتا المدينتين، فكان صعبًا علَيّ أن أتخذ القرار، وعلى ذلك أُشير عليّ بالذهاب إلى رودولشتات، حيث كنت أعرف امرأة سويسرية المولد، عاشت في هامبورج، وانتقلت مع



Twitter: @ketab_n

أسرتها إلى رودولشتات. زودتني هذه الأسرة بمعلومات عن رودولشتات، عن الإيجارات وأسعار المواد الغذائية والضرائب ورسوم المدرسة إلى آخره، إذ ينبغي أخذ كل هذه الأمور في الحسبان عندما يكون المرء غير ميسور الحال. تحدثت في البداية مع صديقتي الحنون البارونة الكبيرة حول كل شيء، ونصحتني أيضًا بهذه الخطوة على الرغم من أنها ستكون صعبة كثيرًا عليّ وعليها أيضًا، وخَشِيَت عليّ أيضًا من الإحساس بوحشة الغربة في رودولشتات الصغيرة، إذ قالت لي: «مخلصتي، الظروف تقتضي أن تنتقلي إلى هذا المكان الصغير حيث كل شيء أرخص من دريسدن، ولكن الإنسان الذي هو في مثل طبيعتك بالكاد سيشعر بالراحة في مثل هذه الأوضاع الضيقة على مر الأيام، فمناظر المدينة الصغيرة محدودة جدًّا وحتى الألمان بالولادة الذين سبق أن سكنوا مدينة كبيرة نادرًا ما يتأقلمون مع الظروف في مدينة صغيرة». قلت لها لم يبقَ لي أي خيار، وأريد على الأقل أن أخوض التجربة. قالت لي: «إذن يجب عليّ على الأرجح القول بأنني سأفتقدك كثيرًا، ولكن على المرء ألا يكون أنانيا».. سيكون فقدي لها أكثر بكثير، لأنّها كانت لي، ببساطة، شيئًا لا يعوض، وستظل هكذا. قمت بإنهاء عقد شقتي وسرّحت الخادمة وحاولت بيع كثير من الأثاث قدر المستطاع، فعليّ من الآن أن أسكن في شقة أصغر وأن أبحث عن «خادمة لكل شيء». هل تعرفين أيضًا ماذا يعني «خادمة لكل شيء»، بالكاد ستعرفين، حسنا، دعيني أخبرك: خادمة لكل شيء يعني أنها للطبخ، إذا كنت تعرف الطبخ، ولشراء الحوائج ولغسيل الملابس وكيها ولتنظيف الشقة



Twitter: @ketab_n

ولإشعال المدفأة وفتح باب المنزل عندما يطرق الباب، ولإنجاز عشرات الأعمال الأخرى. ولهذا استحقت بحق اسم خادمة لكل شيء!

غادرت إلى رودولشتات واستأجرت هناك شقة وسرعان ما حُزم الأثاث وتم إرساله، ثمّ سافرت مع الأولاد والخادمة. كنت قد تأقلمت في دريسدن جيدًا وأعجبتني الحياة هناك رغم الاختلاط، وإن كان بشكل قليل، ولكن أفضل بكثير من هامبورج، وكانت الأسر القليلة التي تعرفت عليها بمرور الوقت تقريبًا هانوفرية وبروسية، وقضيت معها بعض الأوقات السعيدة، وعايشت كثيرًا مشاعر الحب والصداقة، ومن أجل ذلك فارقت على مضض أصدقائي المخلصين، ولكن افتقدت في المقام الأول صديقتي الحنون البارونة التي لا يمكن نسيانها، وكاد قلبي يتحطم عند وداعها، فقد احتضنتني بقوة وكأني أحد أبنائها، ولأجل صحتها الضعيفة تركتني بشدة فيها رفق واتجهت إلى غرفتها، وانتظَرَت للحظة حتى أقوم بتوديع أطفالها ثم رجعت مرة أخرى لتحتضنني للمرة الأخيرة بقلب مخلص نبيل. هل كانت تشعر أن هذا سيكون لقاءنا الأخير في هذه الدنيا؟ من يعلم ذلك؟ فمن ذلك اليوم لم أعد أرى نظرات عينيها الوفية الحكيمة، ولم أسمع مرة أخرى صوتها الذي كان يبعث فيّ الأمل والتفاؤل مراتٍ لا تعد ولا تحصى، رجعت إلى البيت في ذلك المساء وقد ضقت ذرعا واسترسلت أُفكّر في وجودنا الدنيوي وأنه لا يمكننا أن نوفيّ الله العلي حق شكره لو تمكّنا أن نحافظ على عقولنا السليمة حتى آخر لحظة



Twitter: @ketab_n

من حياتنا، ولكن توجد في الحياة لحظات أيضًا يكون الإنسان فيها سعيدًا عندما يكون لديه العقل والشعور غير مهم، على الأقل أحيانًا، ولكن إرادة الله ليست مثل مشيئتنا، وهكذا إلى الآن لم يستطع الحيّ تقصي هذه الحقيقة، في الحكم على ما يصيبه من سراء أو ضراء أهو خير له أم شر. أمر ستظل تبحث عنه البشرية عبثا.

وفي اليوم التالي، رحلت مع الأطفال والخادمة إلى ردولشتات التي أحببنا أن نسكن فيها، ونزلنا في فندق بسيط، حتى يصل أثاثنا من دريسدن، ولاحقًا سألت مصادفة المرأة التي عرفتها من هامبورج، إن كان هناك حدث خاص في المدينة في اليوم الذي وصلنا فيه، فقد كان الكثير جدًّا من الناس في محطة القطار، فأفهمتني وهي تضحك أن كل ذلك كان بسببي، أنا التي لا تعرف شيئا! فمؤجري الذي استأجرت منه الشقة قبل عدة أسابيع، لم يسألني السؤال المألوف لديّ «من أين أنت سيدتي؟» بل أجرني الشقة بلا أسئلة، لأنه على الأرجح كان يعرف جيدًا الأسرة التي بحثت لي عن الشقة، ولكن عندما غادرت دريسدن لم يهدأ بال أهل تُورِنجِن المحترمين، حتى يبيّن لهم جنسية المستأجرة الجديدة. على كل حال، ورد خبر وصولي إلى رودولشتات في جريدة رودولشتات بداعي الفضول. لم يُظهر وصولُنا على الأرجح ذلك المظهرَ الشرقيّ النمطيّ، فقد كنت ألبس معطفًا إسكتلنديًا معاصرًا، ويرتدي أولادي سترة الشتاء البسيطة. هذا الخبر لم يُرحني على الإطلاق، فقد خشيت منه أن يصعب عليّ العيش ببساطة وهدوء قدر الإمكان، مثلما كنت أسعى، فقد عزمت


Twitter: @ketab_n

منذ البداية ألاّ أختلط وألا أزور أحدًا على الإطلاق، ألم يكن كافيا لي الاهتمام بأطفالي الثلاثة والعناية بهم؟! أعتقد ذلك على الأرجح.. ولكن لم يهدأ بال إحدى صديقاتي في دريسدن حتى تمهدّ التعارف بيني وبين إحدى الأسر المحلية هنا. ومما زاد الطين بلة أني عرفت أن الغرباء الذين يأتون إلى هنا يلزمهم واجب اجتماعي لتأديته، يتمثل في زيارتهم لأعيان المدينة، حتى يُعترف بالغريب في مجتمع المدينة الخيّر. كنت أجد بكل صراحة هذا الأمر سخيفًا خاصة وأنني لا أبالي بهذا المجتمع، ولكن أذعنت للأمر المحتوم وقررت أن أقصد الأعيان والوجهاء.. ما الذي دفعني على الأرجح إلى هذه الخطوة؟ هو أنتم! إذ كان يتوجب عليّ أن أستشعر أنه لن تُغفر لي الزلة بسهولة، كما أنهم سيفسرون ذلك من باب قلة التهذيب وفق عاداتهم. فقد صادفت، على أي حال، في كل مكان من ألمانيا، الأفكار الأكثر غرابة عن تهذيبنا وتربيتنا، والتي أذهلتني، إذ يعتبروننا هنا أننا شعب غير مهذب، يفتقر إلى كل أدب بكل بساطة، وبصرف النظر عن كراهيتي الشخصية لدائرة كبيرة من المعارف التي تتحدث في العادة بقليل من التعاطف ولكن أكثر في القيل والقال عن الناس، لا أودُّ أن أقدم للناس الأحبة سببًا ليس ضروريًا للحديث بإسهاب في مجالس القهوة حول نقص التهذيب العربي. سأترك ذكر الأسماء المهمة للأسر المعنية التي فكرت بزيارتها في اليوم التالي، القائمة طويلة ولكن بالنظر إلى تشابك العلاقات بين المعارف هنا لا يمكن تقليل في قائمة الزيارات! ابتدأت تجوالي بطبيعة الحال من القصر حيث إقامة أمراء رودولشتات وأكملت زياراتي بعد بضعة أيام. لا تدرين كم هي مملة


Twitter: @ketab_n

مثل هذه الزيارات، فالمحادثات دائمًا في جوّ مشدود، حتى يظهر كلا الطرفين أنه في أحسن حال، وكان شعوري مريعا جدًّا وأنا أتنقل من بيت إلى آخر، لأزور أناسًا غرباء عني تمامًا، ولا تربطني بهم أي علاقة. كنت أستمع في كل مكان إلى نفس الحديث وأجيب على الأسئلة نفسها، وكان لحسن الحظ أنني كنت أرى بنور جزيرتنا الحبيبة وإلا لما عرفت بماذا أحدّث الناس الطيبين، وهكذا وجب عليّ في كل مكان أن أخبر عن زنجبار، وعن الخصب الوافر للأرض وعن الحرارة... وعندما سألتني امرأة شيئًا ساذجًا حول الرقيق وأجبت على سؤالها حسب الواقع، اعترفت لي بصراحة أن رقيقنا أفضل بكثير من بعض الأوروبيين المساكين، الذين يجب عليهم أن يكافحوا كثيرًا ليسدوا رمقهم.. لا يوجد مكان في نظري يصل فيه تشابك العلاقات والتداخل بين الناس إلى هذا القدر أكثر مما عليه الحال هنا. هذا غير مريح على الإطلاق للغريب القادم حديثا وخاصة الذي لا يعنيه هذا المجتمع، ويريد أن يعيش دون مخالطة كبيرة ودون تعارف. وسرعان ما جعلت كل أحد يلاحظ أنني عازمة على الحياة في هدوء وعزلة ولأجل ذلك لا أرغب في حضور المجالس، ولكن ذلك لم يُجْدِ نفعا على الإطلاق، فقد كنت أُضطر دائمًا إلى رد كثير من الدعوات لأبقى بعيدة عن المجالس المحببة والكثيرة بعد الظهر.



Twitter: @ketab_n

# قلق الأم

هنا بعثت أطفالي الثلاثة لأول مرة إلى المدرسة، وعلى وجه التحديد كلهم في اليوم نفسه، كنت أشعر بكل شيء آخر، عدا أن أكون سعيدة في ذلك اليوم، وكانت تصارعني باستمرار الأفكار الحزينة، آه كم تمنيت لو أستطعت أن أدرّس أبنائي في البيت، لو تسمح لنا الظروف. كنت إلى هذا الوقت أشرف بنفسي على أولادي ليل نهار وساعة بساعة. وأحيطهم بمقلتي عيني، ولكن من الآن فصاعدا وجب عليّ أن أكلهم إلى أناس غرباء تمامًا عني طوعا أو كرها، ولم أكن مرتاحة لقانون البلد. احتضنت أطفالي بحرارة عندما ذهبوا في صباح اليوم الأول إلى المدرسة، وبدا لي الأمر وكأنهم أوشكوا على القيام برحلة حول العالم، كانوا أنفسهم في هذا اليوم منتعشين جدًّا وفي كامل الارتقاب للأشياء والظروف التي يعرفون منها الاسم فقط، في هذا اليوم بدا لي البيت ميتا، وعانيت لأنني افتقدت الأطفال الصغار النشطين دائمًا، أخذت أرقب من النافذة الاتجاه الذي سيأتي منه الأطفال، وهنا جلست أيضًا قبل نصف ساعة من موعد مجيئهم، حتى أتمكن من إلقاء نظرة إليهم من البعيد وهم يأتون راكضين إلى البيت، وعندما تلقيتهم عند باب المنزل، كان لقاؤنا



Twitter: @ketab_n

مشحونا بالعواطف، فالبيت كان مقفرًا قبل ذلك، تتردد فيه أصداء أصوات الأحبة، وكانت الساعات الأربع التي غابوا فيها طويلة جدًّا عليّ، وحمدت الله عندما وجدتهم مرة أخرى حولي، في هذه اللحظة نسيت كل لحظاتي حياتي المرّة، وكل العوز والفقر الذي كان دائمًا ما ينغّص حياتي. لم تتوقف الحكايات من قِبَلهم في هذا اليوم، فأسماء المعلمين والمعلمات والطلاب والطالبات أخذ صريرها يطن في رأسي أياما عدّة، ولم أستطع الحديث معهم إلا عن المدرسة وما يتعلق بها.

في هذه الفترة الجديدة من حياة الأطفال دخلتُ مرحلة جديدة تمامًا، فمن العادة أن يكون الأطفال حولي وتحت رعايتي، ولكن تغير موقفي معهم الآن بحيث كنت أتغافل كثيرًا عن أعمارهم وأتناقش معهم في كل شؤون البيت، كل الأشياء العملية، نعم، وحتى الإنفاق والدخل، وكأنهم أناس راشدون، وكم كانت آراؤهم الطائشة البريئة تهز وجداني دائمًا، وكنت أستغني بمجالستهم عمن سواهم، والآن وقد توجب أن يغيبوا عني ساعات طويلة فقد كنت أحس بوحدة شديدة، يسود فيها الاكتئاب كثيرًا.. وكنت أشعر دائمًا أنه وبالرغم من كل الجهود التي تبذلها المرأة العربية إلا أنها تظل امرأة غير مناسبة لتكون أمًّا في ألمانيا ولأطفال فاقدي الأب وهم في سن المدرسة، ففي هذه البلاد لا يُعدّ كافيا أن يتعلم الأولاد في المدرسة فحسب، فبجانب ذلك يعطون واجبات منزلية، بحيث لا ينفكون عن التعلّم أبدًا، فتوجب عليّ الآن باستمرار أن أساعد الأطفال الباكين في



Twitter: @ketab_n

وظائفهم المدرسية، والتي لا أعرف بنفسي أكثرها في الغالب، وكان يحزنني كثيرًا أيضًا عندما يحكون لي، وخاصة في السنوات اللاحقة، أن زملاءهم من الطلاب والطالبات قد حلّوا واجباتهم المنزلية أفضل منهم، لأنهم يجدون دائمًا من يساعدهم في البيت. ولأنني لا أستطيع أن أشرف بنفسي على واجباتهم المنزلية ولا يمكنني أن أعهد إلى أحد بهذا الغرض توجّب عليّ أن أستمع كثيرًا بما فيه الكفاية إلى شكواهم مع عجزي عن مساعدتهم. كما ترين كم هي معقدة الحياة هنا وأن المرأة العربية لا يمكن أن يُنجيها تمامًا شعورها بالإحسان تجاه أولادها، وقد كان هذا الشعور فقط يعطي نفسي اليائسة كثيرًا من الأمان والثبات، هذه النفس التي تبحث عن الاستقرار كعربة في الطريق تحاول الإبقاء على توازنها تحت العواصف. هكذا كنت على وشك أن أنهزم في أي لحظة وأغرق. أم هل كان لدي في ذلك الوقت شيء من التعليم الأوروبي؟ هيهات، على الإطلاق؛ إذ لم أكن أعرف حينها ماذا تعني كلمة «التعليم». ربما كنت غير متغرّبة بشكل كافٍ لأتمكن من مجاراة العادة السائدة هنا، وهي أن الاطفال ينبغي لهم السعي كثيرًا في حياتهم اللاحقة إلى الوظائف المرموقة والسمعة وإلى آخره أكثر من آبائهم وأجدادهم أحيانًا، وبهذه الطريقة يفسر المرء مفهوم الكلمة المحببة هنا كثيرًا «التقدم»، ولأننا لا نزال في مرحلة الطفولة، إن جاز التعبير، لنقدّر القيمة الكاملة لهذا المفهوم، فلم يكن لي الآن من أجل ذلك أكثر من النّية، وأما العادة السائدة لدينا منذ قرون حتى هذا اليوم، وهي أنّ الأطفال، وخاصة الذكور منهم،



Twitter: @ketab_n

يفتخرون بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم، فهذا لم يعد له وجود هنا، ويُعتبر رأيًا قد تجاوزه الناس منذ زمن طويل، وكلمة المحافظة لم يعد لها أيضًا هنا أهمية، بقدر تلك الأهمية التي كانت لها في أول نشأتها.

وبالكاد يبدأ أطفالي أيامهم المعدودة في المدرسة حتى جاؤوني مهرولين، ومثيرين القلق والخوف فيّ، فاجأوني بسؤالهم غير المتوقع تمامًا: «ماما هل صحيح أنك أميرة حقيقية، أرجوك أرجوك أخبرينا؟»! بماذا ينبغي الآن أن أجيبهم، لم أستطع إلا أن أضمهم إلى صدري بحزن. ويبدو أني قد أصبتهم بالعدوى، إذ أخذوا يبكون، وحتى الغداء لم يُسَرّ عنهم سريعًا. وعندما سألتهم من أخبركم هذا، قال لي سعيد «إن أحد الطلاب، وكان ابنًا لأحد الضّبّاط، أخبره بذلك»، وهو بدوره أخبر أخواته عندما كانوا في طريق العودة إلى البيت.. عندها بدا لي تصرف الأطفال اليوم غير مألوف، وبدا لي مضحكا؛ فقد لاحظت كيف كانوا يراقبونني باستمرار، فعلى ما يبدو أنهم ظنوا أن الأمر حكاية من الأساطير التي تعودت أن تحكيها لهم المربية في السابق، ولكن سرعان ما اختفت هذه الدهشة، وأصبحتُ في نظرهم لا شيء أكثر من أمهم الحبيبة، وهم أطفالي الأحبة، مثلما كانوا دائمًا. ومثلما يمكنكِ أن تتوقعي، فقد كان قلبي في هذا اليوم معكم كثيرًا، مثلما تعود أن يحدث ذلك دائمًا عندما يضيق صدري، فبأسئلتهم البريئة أثار الأطفال لديّ الذكريات الماضية الحزينة التي لم تكن تجدي لتخفيف أعبائي الحالية، وخشيت أيضًا من قلة فهمهم فرأيت من الأفضل أن يظلوا على جهلهم بالأمر، إلى حين يعقلون.



Twitter: @ketab_n

ولأول مرة كان عليّ أن أجيب على كتيبة من أسئلة مخيلة الأطفال، كما اكتسبت، الآن فقط، أشيائي التي جلبتها من الوطن أهمية لديهم، فالآن في كل لحظة تسمعهم: «تعال تعال، ماما ستفتح الخزانة الكبير ويمكننا أن نرى الأشياء العربية»!

ومع حلول الشتاء تحل الأمراض الكثيرة والخطيرة في الأطفال، فقد أُصيب سعيد في شهر نوفمبر بالدفتيريا الخبيثة، وكانت في أعلى درجاتها، ولكنه نجا منها بأعجوبة. فقد توقف الطبيب الذي كان يعالجه ذات مساء تمامًا، فظللت مع الطفل الذي أصبح متصلبا يائسة ووحيدة في غرفة المريض، وتضرّعت إلى الله أن ينقذ طفلي الذي أصبح لا يكاد يتنفس، وبعد ساعة واحدة تقريبًا بعدما آيسني الطبيب من كل أمل، خرج فجأة تيار شديد من الدم من فم الطفل الذي كان متصلبا ومستلقيا على فراشه، فجلب له هذا التقيؤ النجاة. فتح الطفل عينيه وتعرّف عليّ، عندها نسيت تنبيه الطبيب المتكرر لي بألا أُدني وجهي كثيرًا من الطفل خشية العدوى، فأخذت أقبّل الطفل الذي عاد إليّ بفضل الله وعنايته. وأما عن المساعدة في العناية فليس هناك من تعليق، فالخادمة الوحيدة التي كانت لدينا توجب عليها أن تشتغل بعزل الطفلتين الصغيرتين ولا يمكن لها أن تاتي إلى غرفة المريض، وأما المساعَدة الخارجية فلا يمكن التفكير فيها مطلقا، ففي ذلك الوقت لم يكن هنا ممرضة، والسكان أنفسهم كان لديهم خوف لا يتصور من العدوى، حتى بلغ بهم أن النساء كنّ يَحِدنَ إلى الجهة الأخرى عندما كانت تمشي ابنتاي في الطريق. كم كانت العناية



Twitter: @ketab_n

بالمريض مرهقة. هل يمكنك أن تتخيلي أنني في أثناء الأسبوع الأول كنت على أهبة الاستعداد ليل ونهار، ولم أكن أستطيع الخروج عن الأطفال، حتى تورّمت قدماي من ذلك وأصبح لا يناسبني الحذاء، وصرت أمشي بجواربي رغم البرد القارس في غرفة المريض، فقد أمر الطبيب بفتح نافذتها دائمًا، وعلى الرغم من النار المشتعلة دائمًا في موقد الغرفة المجاورة إلا أنني لم أستطع جاهدة أن أرفع درجة الحرارة فوق ست درجات سيليزية. وما إن تماثل سعيد من مرضه حتى تدثّرت أنا في الفراش ستة أسابيع، كان ذلك على الأرجح بسبب القلق والتوتر المستمر، وبعد ذلك ولمدة ثلاثة أشهر توجّب عليّ أن آخذ الكينين، حتى أقاوم الرعشة والوهن.. لا أعلم إن كانت هذه العادة في كل ألمانيا، ولكن الطبيب هنا يأخذ لمعالجة الدفتيريا ضعف الأجر الذي هو في الفاتورة؛ لأن الأمر يتعلق بمرض معدٍ.

وما إن دخل فصل الربيع حتى أصيبت الطفلتان في الوقت نفسه بالحمّى القرمزية. يجب الآن أن يُعزل سعيد، كما أنني استغرقت وقتا أيضًا في فراش المرض، فلم أستطع أن أكرّس نفسي له، واستأجرت له مدرسا. وفي ذلك الوقت كان لدي خادمة سيئة جدًّا، كانت بالكاد ترغب في أن تعمل وكانت متهاونة جدًّا، فما الضير أنْ تبذل شيئًا أكثر قليلًا الآن لدى مرض الأطفال، الأمر الذي كانت تتأفف منه بطبيعة الحال. اسمعي وتعجبي من تحرّر الخادمات الأوربيات، ففي أحد الأيام حين ذهبت إلى المطبخ لإحضار العشاء للأطفال لم أجد الحساء قد أعدّ ولا الخادمة نفسها أيضًا، ولأن الشقة لم تكن كبيرة،



Twitter: @ketab_n

فسرعان ما اكتشفت أن الخادمة ومن دون أي كلمة قد غادرت، ليس هذا فحسب، بل اكتشفت حالا أنها قد أغلقت باب البيت وأخذت المفاتيح معها! تخيّلي الآن موقفي، وأنا محبوسة مع طفلتين مصابتين بالحمّى ودون أي مساعدة. أخذت أفكر في هذه الخيانة العظمى، وما الذي يجب أن أفعله، فأخشى أن يحدث شيء للطفلتين المريضتين في الليل ولا أجد لهما أي مساعدة، أقلقني الأمر إلى حدّ أنني أخذت أطلب المساعدة وأنادي من النافذة، ولأن البيت فيه حديقة ويقع بعيدًا عن الشارع الوحيد فقد كانت أي مساعدة عاجلة بطبيعة الحال مستحيلة، وفي النهاية أتى الفرج إذ سمعني أحدهم، وتم فتح الباب بعد ساعتين تقريبًا.

مرت عليّ بعد ذلك أيام من المعاناة والمكابدة لا يمكن أن تتخيليها، لن تصدقي إذا قلت لك إنه كان يجب عليّ أن أظل ستة أسابيع كاملة مع طفلتين مريضتين ومن دون أيّ مساعدة، فقد كان يجب عليّ أن أقوم بنفسي بكل أعمال البيت، لأنني لم أجد خادمة؛ فالكل كان خائفًا من العدوى. إيماننا بالقضاء والقدر هو موضع سخرية هنا، ولكن لا أعلم في الحقيقة إن كان ينبغي لي أن أشفق على مثل هذا التوجس، فقد برّرت الخادمة الخائنة لاحقًا هذا الخوف من العدوى كعذر. كنت بلا مساعدة إطلاقا، وتركني الجميع، ففي الأيام الأولى لم أرَ أحدًا سوى الطبيب، كان طبيبا آخر غير الطبيب الذي عالج سعيدا، وكان إنسانيا، فكان يقضي لي حاجاتي خارج المنزل، ولاحقًا ساعد أيضًا في تحميم الأطفال. وصارحتني خيّاطة


Twitter: @ketab_n

عجوز، كانت، مثلما تقول، تأتي إلينا لبضع ساعات ومن وقت إلى آخر لتساعدني في أمور المطبخ وتوفير الأشياء، فقالت لي في أحد الأيام إنها تأسف جدًا؛ فلن تتمكن في الأيام القادمة من المجيء لمساعدتي؛ وذلك لأنها تخشى أن تفقد زبائنها الآخرين! ما رأيك بهذه الإنسانية؟! افعلي مثلي ولا تعطي لهذه المصطلحات أو ما شابهها اهتمامًا على الإطلاق. وجدت أن الناس بشكل عام إنسانيون عندما يتوافق الأمر مع مصالحهم، والكفار هنا أيضًا يؤمنون بهذا المبدأ ويرون هذا الرأي. أصبحت مثلما يقال ممرضة وخادمة لكل شيء، ولم أنزعج من شيء أكثر من قرع جرس الباب، فلديهم هنا عادة ليست لديكم، وهي أنهم يأتون للاستفسار عن المرضى من المعارف، وربما كان هذا من أجل الخوف الكبير من العدوى! في هذه الفترة عشت أياما عصيبة كانت طويلة جدًا ولا يمكن أن أنساها، كان يجب عليّ أن أحبس أطفالي المرضى حتى أذهب لملاقاة سعيد في الشارع، أو أحضر حوائج البيت، كيف كنت أشعر عند ذلك؟ لا يمكن لي أن أصفه لك بالكلمات، ولكن يمكنني القول فقط إن حياتي أصبحت شيئًا مقرفا، وقد كان العمل الأصعب بالنسبة لي، ولا يزال، إشعال النار في المدفأة والموقد، وكثيرًا ما كنت أقضي أكثر من نصف ساعة لإنجاز ذلك بلا نجاح. أعترف لك بكل صراحة أنني كثيرًا ما كنت أذرف دموعي المُرّة حينما أقوم بذلك بعد يأسي الكامل، وفي أحد الأيام وكان الجوّ باردًا جدًا، آه كان بردا قارسا، تقرفصتُ باكية أمام المدفأة التي أصبحت باردة وحاولت عبثا أن



Twitter: @ketab_n

أشعل النار فيها، وإذا برعدة شديدة تصيبني من قرع جرس الباب، فإذا بالخباز يقف أمام الباب ببضاعته، وهنا انقدح في ذهني أن أطلب منه إشعال المدفأة في غرفة المعيشة، وفعلا كان ذلك. انظري الآن كيف اشتعلت النار سريعًا بيدين ماهرتين.. كان يجب عليّ أن ألتقي سعيدًا في المتنزّه وأسّري عنه قليلاً؛ فالولد المسكين كان يكابده الشوق كثيرًا، وفي أثناء ذلك كانت البنتان المريضتان محبوستين في البيت، آه كم كنت أستعجل الرجوع إلى البيت سريعًا، فقد كانت تراودني هواجس، هل أطفالي لا يزالون على قيد الحياة أم لا، فقد كنت أخشى أن ينشب حريق في البيت. كان ذلك التفكير يثير أعصابي كثيرًا. وكنت لا أتمكن تقريبًا من الجلوس في أثناء النهار باستثناء أوقات الوجبات، وكنت أجلس في المساء فقط عند البنتين المريضتين وأقرأ لهما من حكايات الأطفال، حكايات هوف مان ونيرتس، وكانت هذه اللحظة فقط هي لحظة استرخائي الوحيدة في اليوم، فما إن ينام الأطفال حتى أذهب إلى الغرفة الصغيرة لأرتق الملابس القديمة.



Twitter: @ketab_n

# الريف الألماني

بسبب هذه الظروف زَهِدتُ كثيرًا في مواصلة العيش في رودولشتات، والتي كانت لولا ذلك المكانَ المحببَ لي، وشعرت من أجل ذلك أيضًا بعدم الارتياح. في الحقيقة لا يُنصح الغرباء الذين أتوا من ما وراء البحار بالحياة في مدينة ألمانية؛ لسبب بسيط؛ وهو أنهم سيشعرون بالغربة في هذا الوسط المختلف عنهم تمامًا، فالآتي من جنوب الأرض ينقصه فهم كل هذه الممارسات والسلوكيات الغريبة عنه وغير الطبيعية التي لا حصر لها والتي يوليها الناس هنا عناية فائقة، وتفكير هؤلاء الناس كثيرًا ما يكون محدودا، إذ إن اهتماماتهم قلما تصل أبعد من عشرة أميال ألمانية من المحيط الذي يعيشون فيه، والنساء خاصة لا يشغلهن اهتمام أكبر من معرفة أمور جيرانهن، ففي ظل هذه الأوضاع وغيرها لم أجد للأسف الحياة التي كنت أبحث عنها بأن أبقى في هدوء ولا يلتفت إليّ أحد. فقد بدا الأمر غير معقول، أن يعرف الناس المحترمون على نحو دقيق إذا اشتريت قبعة جديدة وكم مدة تبقى فيّ ملابسي، ومنذ متى اشتريت ربطة الشعر الجديدة، ومن الذي زارني، وأكثر من ذلك، ماذا طبختُ! المرء مراقب باستمرار، ويشعر وكأنه يسكن في بيت



Twitter: @ketab_n

زجاجي، وفي البداية حاولت تجاهل كل هذا، ولكن مع مرور الوقت، أُتخمت كثيرًا بكل هذه التوافه. ففي أحد الأيام زارني رجل غريب تمامًا عني، أحد الرحالة إلى أفريقيا، والذي أُوصي بي من قبل عائلة معروفة من .L، فقد عاد لتوّه من زنجبار وأراد أن يريني صورًا حديثة من زنجبار. ولأن هذا الرجل قد لسعته الشمس الاستوائية، وكانت فيه لحية كثّة حالكة السواد، فقد كانت هذه الملامح كافية للألمان المحترمين أن يشبهوه بأحد من إخوتي، وفي غضون أربع وعشرين ساعة تقريبًا أصبح أمر ملامح الرجل وزيارته حديث الساعة.

بدأ يتضح لي شيئًا فشيئًا أن مدينة ألمانية صغيرة ليست هي المكان الذي يشعر فيه الغريب القادم من ما وراء البحار بالراحة. وفي المدينة الكبيرة يمكن أن يكون مجهولا، ولا يخضع تحت المراقبة والملاحظة. وفي أحد الأيام تلقيت من إدارة الوصاية في دريسدن رسالة، وكان الرد عليها باللغة الألمانية ليس سهلاً عليّ، فقد كنت بالكاد أفقه آنذاك اللغة الإدارية والقانونية، كنت قليلاً حزينة ومحبطة وكنت أفكر مليًا كيف يمكنني أن أكتب جوابًا على أفضل وجه حتى أتجنب قدر المستطاع أي سوء للفهم. وعلى هذه الحال وجدتني ابنتي الصغرى ذات السنوات الثماني (١٨٧٨) عندما كانت عائدة إلى المنزل - تعوّدت أن تناديني منذ أن كانت ابنة ثلاث سنين دائمًا «صغيرتي» - فأسرعت إليّ ونادتني بشيء من الطفولة: «صغيرتي، هل هناك مرة أخرى قدر؟»، كانت تفهم كلمة القدر بمعني الهموم إذ لم تكن تستطيع في ذلك الوقت أن تتحدث جيدًا، وعندما أخبرتها


Twitter: @ketab_n

بالشيء الذي أفكر فيه وكم هو صعب عليّ أن أكتب رسالة إلى إدارة الوصاية، نادتني: «يا للطفلة المسكينة، ألا يمكن أن أساعدك؟ أخبريني ماذا تريدين أن تكتبي بشكل عام، وسأكتب لك مسودة، ويمكنك أن تنقليها فقط»، وهذا ما حصل بالفعل. إذ أخبرتها ما أنوي كتابته، فصاغت ابنة السنوات الثماني جُمَلا كانت أفضل بكثير وأحسن للفهم مما كنت سأقوم به.

منذ ما يزيد على السنة أخذ يشغلني التفكير في أمر ما ليالي لا عدّ لها حتى تمكنت من اتخاذ القرار فيه، إذ لم يكن عليّ أن أصارع شيئًا قدر ما صارعت هذه الفكرة، وهي هل كان يتوجب عليّ أن أتوقف عن محاولة إعطاء دروس في لغتي الأم - في حالتي ينبغي على الأرجح أن تُسمّى لغة الأب - التي سأوفر من خلالها مطالب والتزامات الأطفال الذين أخذوا يكبرون، وكانت أفكاري تتجه إليكم باستمرار، ونتيجة لذلك كنت دائمًا مترددة، فقد توجب عليّ أن أعيد النظر في الأمر مرارًا، وقد بدت لي الخيار الوحيد لتجنيب أطفالي الأحبة من الفقر. إن التقاليد المتأصلة لدى الإنسان لا يمكن أن يتحرّر ويتخفف منها ببساطة، ويظل التمسك والوفاء بها في ظرف مثل الذي عايشته أمرًا غير مريح في أحيان كثيرة. كان حبّ أطفالي يظل في الأخير هو المنتصر، وأصبح القرار ينضج تدريجيا لديّ، شعرت في هذا الصراع النفسي بشكل كافٍ أنّه حتى أصدقائي الألمان الأعزاء بالكاد كانوا يبدون تفهمًا عميقًا لي، وذلك لسبب بسيط وهو أن الناس هنا، لديهم رأي آخر في عمل المرأة غير الرأي الذي لدينا، إذ


Twitter: @ketab_n

يعتبر هنا أن العمل هو شرف للإنسان، وفي هذا الوسط الذي تسود فيه مثل هذه المبادئ أُصبحت بآرائي في أعينهم متخلفة وغريبة.. ولكن عندما لا يُربّى المرء منذ صغره على مثل فلسفة الحياة هذه، وفقط عند ضرورة تجبره إلى التسليم لتلك العقيدة.. ولذلك يكون الأمر في نظر الناس هنا بالطبع مسألة غير تافهة. نُتّهم نحن الشرقيين بما فيه الكفاية أننا كسالى وخاملون من وجهة النظر الغربية ويُنسى بذلك كثيرًا كم هي قناعة الجنوبيين عموما، الشيء الذي لا يمكن بالتأكيد أن يفترضه الأوروبي المتمدن، ويضاف إلى ذلك أن برودة الشمال استوجبت الحاجة إلى آلاف من الأشياء في حين أن المرء في الجنوب في غنى عن الحاجة إلى كل هذه الأشياء، هذا يؤدي أيضًا إلى أن الإنسان لا يستحسن العمل المضني أبدًا. على كل حال وجدتني لا أزال غارقة كثيرًا في التنشئة التي رُبّيت عليها منذ الصغر كي أتحمس لفكرة العمل الذي أصبح ضروريا. منذ وفاة زوجي توجّب عليّ أن أعمل كثيرًا، نعم، ففي أحيان كثيرة كنت أعمل أكثر من الخادمة، فالخادمة بالتأكيد لم تكن تخيط بنفسها حذاءها المتهتك إلا في أحيان نادرة، في حين كنت أحقق بعض المهارة أحيانًا في ذلك عندما أرقع أحذية أطفالي بخلق القفازات الجلدية البالية والقديمة. وكل هذه الأعمال كنت أقوم بها في الخفاء دون أن يكون الغرباء شهودا عليها، وكنت أفعل ذلك دون قصد لكسب المال، بل كنت أستغل المتوافر قدر المستطاع، وكان ذلك نعم، في عيني، على الأقل، تغيرًا كبيرًا. ومثلما قلت، قرّرت الشروع في الأمر بعد صراعات نفسية كثيرة؛ إذ لم أجد أي مخرج آخر.



Twitter: @ketab_n

# في عاصمة الإمبراطورية

في يوم من الأيام، بينما كنت أقرأ رسالة أرسلتها لي صديقة مخلصة ردا على إخباري لها بما عزمت عليه، إذ أتى أطفالي الثلاثة من المدرسة، هذه الصديقة كتبت لي كالعادة بود وشجعتني للتمسك بالفكرة الجديدة، فقد تفاءلت لي كثيرًا لاختياري برلين لتقديم دروس في اللغة العربية، كنت أقرأ الرسالة أيضًا وأنا أستحضر تلك الصراعات النفسية التي كابدتني عند اتخاذ القرار، لذلك كنت متأثرة حينما دخل عليّ الأطفال: «ماما، ماذا حدث؟ هل كتب لك H. شيئًا ربما يكون محزنا؟ أخبرينا رجاءً عن ذلك»، كان هذا أول كلامهم، وعندما أخبرتهم بالأمر وأعلمتهم بمحتوى الرسالة، بدأوا كلهم جميعًا مرة واحدة يبكون بكاء مرًا، وغمروني بحنانهم، وبعدما علموا سبب انكساري وتأثري حاولوا جميعًا بطبيعتهم الطفولية أن يفعلوا شيئًا من أجلي، حتى، مثلما قالوا، لا أحتاج إلى أن أعطي أي دروس. كان الشعور بالقلق على حياتنا لاتّقاء عنت الحياة وعواقب ذلك، يمنحنا كثيرًا قوة لا عهد لنا بها، تجعلنا نتخطى كل العقبات بنجاح، عند هذا نرى تقاليدنا، الفخر وغيره من المصطلحات، تتلاشى هكذا بالتدريج مثل الثلج أمام أشعة الشمس الحارة. في هذه البلاد يحفل



Twitter: @ketab_n

المرء كثيرًا، وفق رأيي، بمظهر الأطفال وذكائهم وتهذيبهم ...، في حين كنت أشعر بسعادة لا توصف بحبي للأطفال مهما كانوا عليه، فحبهم بجانب شعوري بوجوب تحقيق الالتزام نحوهم حسب طاقتي يهون عليّ الكثير.

كان اختياري لبرلين لا يتوافق مع قناعتي الداخلية لتحقيق رغبتي، ففي ذلك الوقت لم يكن الإقبال على اللغات الشرقية هناك كثيرًا كما هو الحال في لندن وباريس وفيينا على سبيل المثال، فلو كان بإمكاني حينها أن أيمّم نحو إحدى هذه المدن العالمية الثلاث لفعلت، ولربما نجح مسعاي ولو لم أكن متأكدة تمامًا من النجاح، ولكن ذكرى زوجي الحبيب وقفت أمام هذه الرغبة أيضًا، بيد أنه بدا لي لاحقًا شك حول ما إذا كنت بهذا الشعور مصيبة وأنني اتخذت القرار بناء على ظروفي. بعد مدة قصيرة سافرت في الشتاء (يناير ١٨٧٨) لبضعة أيام إلى العاصمة الألمانية كي أستأجر شقة هناك، وكان صعبًا عليّ أن أترك أطفالي تحت رعاية خادمتنا في رودولشتات. لم يكن بتلك السهولة مثلما ظننت، فالبحث عن شقة متواضعة في برلين ليس أمرًا بسيطًا، فعدد السلالم التي صعدتها منذ طفولتي تلاشت أمام التي صعدتها في أيام قليلة في أثناء بحثي عن الشقة. وبعدما حصلت على جريدة كان فيها إعلان عن شقق للإيجار، تصفحتها وعلّمت على ما يناسبني من المعروض فيها، بدأ تجوالي الدائم الذي لن يُنسى، آه كان الجو باردا جدًّا والشوارع كأنما بُلّطت بالجليد، وما شعرت إلا أنني أسقط في شارع لايبزج، وتحديدًا أمام كشك صغير للحراسة،


Twitter: @ketab_n

وكان العسكري الذي يقف للحراسة يرى بكل هدوء كيف أن جميع محاولاتي للوقوف كانت عبثا ولكن دون أن يحرك ساكنًا، وأخيرًا جاء رجل مَدنيٌّ فيه إنسانية وساعدني في الوقوف، وطلب لي عربة. وحالما استرجعت قواي مؤقتا واصلت تجوالي مرة أخرى، صاعدة ونازلة..

وليس لأنني لم أرغب في استئجار شقة في الطابق الأول مثلاً، لا، بل لأنني لم أكن أجرؤ على التفكير في هذه الرغبة من الأساس، فالسعر سيخذلني من أول محاولاتي. فقد كان معروفًا في برلين أن الطابق الأول هو للصفوة فقط، ولأنني لم أكن من المعدودين منهم فلم يكن من الصعب عليّ فهم الأمر سريعًا.. لا أزال أتذكر جيدًا كيف كنتِ قبل مدة تروين لي شيئًا من رحلة الحج إلى مكة وعناء السفر، نعم، لا شك أنّ رحلة إلى الغرب تجلب بعض المشقات ولكن لا أود أن أنصحك أبدًا بجولة مثل جولتي وأنا وحيدة وغريبة للبحث عن شقة في برلين في شهر يناير البارد جدًا! وأخيرًا بعد ذهاب وإياب استطعت أن أستأجر شقة في الطابق الأرضي من أربع غرف صغيرة، حيث لا يتمكن المرء في الغرفتين الخلفيتين من رؤية السماء ولا الشمس الحبيبة المنعشة، ومن الغرفتين الأماميتين يقف سدّ منيع لبيوت الإيجار السكنية الشاهقة، ولمثل هذا السكنات يطلب الناس هنا إيجارًا خياليًا.

سرّحت الخادمة التورنجية عندما أردت الانتقال إلى برلين، وهكذا سافرت وحدي مع أولادي، وفي أثناء الرحلة تعرّضت ابنتي الكبرى


Twitter: @ketab_n

لحمّى شديدة، وعندما وصلنا إلى برلين أصابها الجدري. أقمنا في الأيام الأولى في فندق بسيط، حتى يصل الأثاث، واستأجرتُ خادمة أخذتُ فكرة سيئة عنها في وقت قصير، إذ لم نستطع إخراجها من البيت في أحد الأيام إلا بمساعدة الشرطة فقد بلغت من السُّكر حدًّا كبيرًا، وفوق ذلك توجّب عليّ أن أمثل أمام المحكمة، هل كان يمكنك أن تفكري في شيء كهذا من قبل؟ أنا بالتأكيد لا! إذا كان لدينا أن البشر يقفون سواسية أمام الله وحده ولا يحدث ذلك إلا في هذا المقام، فإن ما يعرف بالتنوير هنا جعل التفريق بين الغني والفقير والشريف والوضيع والتبعية للحاكم شيئًا من الزمن الماضي. بعد وقت قصير وجب عليّ أن أبرز أمام المحكمة حتى أكون شاهدة على المرأة لأنها أساءت في حق أحد الشرطة، كنت مندهشة كثيرًا في اليوم التالي لوجود مقال عني في جريدة الصباح، تحدث عني كثيرًا ووصف حتى ملابسي البسيطة، كيف يمكن أن تُملأ أعمدة الجرائد الطويلة والمملة إذا لم يُلجأ إلى مثل هذا الابتذال؟! لو ظل السادة المحررون والمراسلون على الحقيقة دائمًا، لمشى كل شيء على ما يرام. ولكن!

كما أحدث في نفسي كثيرًا أثرًا طيبًا أن النساء في برلين كن يتعاملن وفق العادات العربية والإنجليزية من خلال أنهن يرحبن في البداية بالقادم الجديد إلى المدينة، وبهذه الطريقة يحس الغريب بالأنس سريعًا، وخاصة عندما يكون لديه حظ كبير مثلي في أن يلتقي بأناس نبلاء وغير أنانيين، ولكنه أمر استثنائي أن تكون برلين هي


Twitter: @ketab_n

المدينة الوحيدة في ألمانيا التي أحسست فيها بقليل من الأنس على الرغم من أنني أفضل الحياة الريفية المسالمة والهادئة أكثر من التكالب واللهث في المدينة الكبيرة. بدأت الآن بشكل جدّي في التفكير في الغرض الذي ساقني إلى هنا، وهو تقديم دروس في اللغة العربية، فكان ينبغي لي حسب نصائح الأصدقاء الذين تعرفت عليهم، أن أقوم بـ «بساطة» بالإعلان في الجرائد. لم يكن وضع الإعلان الأول المتعلق بتدريس العربية بالنسبة لي «سهلا»، فقد بدا لنفسي المترددة كأنه عبارة أخطها على قبري، وبنظرة إشفاق، ولكن بامتنان كبير، لمستُ عناية كريمة من قبل السادة في جريدة كغويتس وجريدة نوردويتشن ألجماينن، فقد وافقوا على نشر الإعلان دون أن أدفع لهم، حتى إنهم في جريدة نوردويتشن ألجماينن قاموا بطباعة الإعلان بالحجم الكبير، الأمر الذي كان سيفوق بكثير قدرتي على الدفع.. لم أظفر بالطالب الأول عن طريق الإعلان في الجرائد ولكن عبر تزكية ودية من قبل أحد معارفي، الأمر الذي قدم لي تسهيلاً كبيرًا. وكنت أطمئن إلى أن هذا الطالب سيكون محترمًا ومنضبطًا بينما لا تضمن نتيجة الإعلان ذلك دائمًا. من الأفضل أن تُعفيني من الحديث عن درسي الأول، فقد كان لأول مرة في حياتي، إذ توجب عليّ للمرة الأولى أن أكسب المال من عرق جبيني.. ثم تتابع طلبة آخرون لاحقًا.. كان يجب عليّ في كثير من الأحيان أن أنطق الكلمة الواحدة من خمس إلى سبع مرات حتى يستطيع أن ينطقها الطلاب صحيحة بعض الشيء، لا تعلمين ما تسببه جزالة اللفظ في لغتنا من صعوبة على



Twitter: @ketab_n

الأوروبيين، ولا تمتّ العربية بصلة لأي لغة من لغاتهم، والأصوات الحلقية تجلب لبعضهم ببساطة اليأس الواضح. وسرعان ما تلقيت طلبات مكتوبة نتيجة الإعلانات، من أمريكا وإنجلترا وهولندا والنمسا لتقديم دروس كتابية بالمراسلة. كيف تجدين هذه الفكرة؟ يتضح أن مَن كتب هذه المراسلات ليس لديه معرفة باللغة العربية قطعًا وإلا لكان من الصعوبة بمكان التفكير في شيء كهذا. إن مهنة التدريس التي قررت أن أسلكها ببالغ المشقة، لم تكن سهلة على الإطلاق، مثلما ظننت وأحسست في كثير من الأحيان للأسف، فقد كنت من المستحيل تمامًا أن أفرق من الوهلة الأولى بين الإنسان الراغب في العلم حقيقة وبين المختال والمعجب بنفسه. ولكن إذا كان هناك شيء ما بغّض إلي التدريس أكثر فقد كان ذلك عبر تصرّف قذر من زوجين يهوديين، ولأنني عربية وأيضًا ساميّة، فلن يكون الأمر عن معاداة الساميّة من منطلق المفهوم الأوروبي واردا هنا. أما احتقار العرب لليهود في كل مكان واعتبارهم نجسين فهو، نعم، أمر معروف.

في هذه الأثناء كنت قد بدّلت شقتي في الطابق الأرضي بشقة مثلها في الطابق الثالث، وكنت حينها مريضة كثيرًا، وكان يجب عليّ أن أحافظ على صحتي. وفي يوم من الأيام كنا راجعين أنا وأطفالي من نزهة قصيرة فوجدت خطابًا ينتظرني، يتضمن رغبة في تقديم دروس في اللغة العربية في شقة خاصة، كانت صاحبة الخطاب امرأة تنتمي إلى أسرة غنية من أصحاب البنوك في برلين، وكانت شقتها المترفة تقع في شارع آلزن، شارع الوجهاء والأثرياء، وقد بيّنتْ في



Twitter: @ketab_n

خطابها أنها مريضة ولأجل ذلك لا تستطيع صعود شقتي في الطابق الثالث، كنت أنوي أن أرفض العرض، ولكن عندما أخبرتُ بذلك إحدى صديقاتي نصحتني ألا أرفض العرض للأسباب المادية، فكانت حجتها أنني ينبغي عليّ أن أفكر في أطفالي! يا إلهي كأني لن أرمي بنفسي في النار لأجل أطفالي عندما يتوجب عليّ ذلك.. وهكذا قبلته مترددة، وخصوصًا عندما عرضت عليّ صديقتي أن تذهب هي إلى السيدة وتتحدث معها قبل أن أذهب بنفسي. بلغني أنّ المرأة وزوجها يستعدان لرحلة إلى أفريقيا ولذلك ترغب في تعلم العربية، كنت أنوي أن أدرسها ساعتين في الأسبوع، وهكذا قررت أن أتجرع هذا الدواء، فالشعور أنه يجب عليّ ألا أفوّت شيئًا من أجل أطفالي كان الدافع هنا لعملي. وللأسف لم تتّفق صديقتي على أجر الساعات معها، ولهذا طلبتُ منها أن تكتب إليها أنني سأتقاضى ١٠ ماركات، إذ كنتُ أحصل عن الساعات التي أقدمها في شقتي على ٥ ماركات، وكان مبرر طلب الزيادة هو الطريق البعيد الذي يجعلني أحيانًا أستقلّ عربة فضلًا عن ضياع الوقت. احزري الآن ماذا سيكون الرد، من الصعوبة أن تهتدي إلى الصواب، فأفكارك ستذهب بلا شك إلى جانب «التزام النبلاء»، ولكن لا ينطبق على هؤلاء الناس مبدأ «التزام النبلاء»، بل على العكس فهم يتعاملون أكثر وفق مبدئهم، وهو أنّ الصداقة تتوقف عند حدود المال! ولكن في حالتي هذه لم تتوقف الصداقة، لأنها من الأصل لم تنشأ، ولكن الأمر اقتضته ضرورة تعلم اللغة العربية، وهكذا أرسلت المرأة اليهودية، كرد على الطلب، المال للساعات التي تمّ تقديمها واعتذرت شاكرة عن الدروس القادمة!



Twitter: @ketab_n

للأسف لم أجد إقبالا كبيرًا على دراسة العربية؛ لأنه على الأرجح في ذلك الوقت لم يكن الشرق في ألمانيا موضة. ولاحقًا قدّمت أيضًا دروسًا في اللغة السواحيلية والتي كانت أسهل بكثير على الأوروبيين، وكان الغالب في موضوعات تدريسي لطلابي عن كل شيء ممكن تقريبًا، فعلى سبيل المثال عن السكان والحيوان والنبات والظروف الجوية والمواد الغذائية والدِّين وغيرها من القضايا، ولكن كانت قضية العبيد هي الموضوع الرئيس في الغالب، فقد كان يثير في الناس الطيبين الدهشة الواضحة عندما كنت أجيبهم عن سؤالهم إن كان لديّ شخصيا كثير من العبيد «بالتأكيد نعم»، وعندما سُئلت ذاتَ مرة كم عدد عبيدي، أجبت: «لا أعلم بالضبط، فليس لدينا دفاتر لتسجيل ذلك، ولكنّ العدد، الأحياء منهم والأموات، ربما يبلغ الآلاف» فتبلغ دهشتهم غاية لا حدّ لها. إنه لأمر عجيب أن يُقيِّم المرء موضوع الرقّ في أوروبا بقليل من الموضوعية. فكثير من الناس العاطفيين - وبهذا الاتجاه يُحكم على الأمر بكثير من المغالطات -، مثلما يبدو لي، يضعون الرِّقّ وأكل لحوم البشر في نفس المستوى تقريبًا، وبذلك هم قاصرو النظرة بحيث يتذكر المرء تلقائيا قصة البالكن والشبلتر في الكتاب المقدس. وكأنّ عبيد المنازل والحقول عندنا يقومون بالكدّ والجهد أكثر مما يُبذل من قبل من يُسمّون هنا بالبشر الأحرار في المصانع والمناجم في أوروبا! ولا يمكن أن يُتغافل أيضًا عن التجنيد الإجباري العامّ والمنتشر في كل أوروبا باستثناء إنجلترا، والذي لا يتماشى مع حرية الفرد. إذن يصل المرء تلقائيا إلى أنّ العبودية حاضرة هنا وهناك، ولكن هنا بيض وهناك سود. ولكن يحاول الناس طرح



Twitter: @ketab_n

آرائهم بما يوافقهم وليس بالنظر إلى ما عند الآخر من خصوصية أيضًا. أما ما يخص قضية ضرب الزنوج فهناك آراء متباينة حولها. ولكن عقوبة الضرب هنا أمر مرفوض تمامًا ولا يُقدم عليه الأوروبيون العقلاء.. الإنسانية سمة نبيلة ولكن ممارستها من منطلق فهم كل فرد، هو أمر معقد دائمًا، ولكن الوضع هنا في الشمال مختلف مع تحمس زائد لمفهوم الإنسانية، فالشرقي الواقعي والعملي غالبا لا يروق له كثيرًا مثل هذا التنظير في التربية. ومن يدري لعله قد يُلجأ في النهاية في أوروبا المستنيرة إلى عقوبة الضرب نظرًا للوحشية المتفشية المقلقة الآن رغم كل السعي نحو الإنسانية!



Twitter: @ketab_n

# حياة من أجل الأولاد

المرض المتزايد لدى سعيد أجبره على تفويت المدرسة كثيرًا، وأدى إلى تأخره في التّعلم. بالتأكيد تودين أن تعرفي ماذا تعني الكلمة الأخيرة، إنها تعني أنّ كل شيء في هذه البلد يدور حول كلمة «تعليم»، فمن يتعلّم كثيرًا يصبح في أعين الناس رجلا ناجحا، وأيضًا امرأة ناجحة. ولكن ويل لمن لم يؤتَ شيئًا من الموهبة ولم يحظَ بتعليم كافٍ، هذا النوع من الناس، لا يمكنه أن يفعل في الحقيقة شيئًا أفضل من أن يدفن نفسه حيا. ولن يعوضه عن ذلك اتقاؤه لله وبره وإحسانه للآخرين وأيضًا استقامة شخصيته، فمثل هذه الصفات لم يعد لها رواج هنا وعفا عليها الزمن. في كل مكان تسمع كيف يُتأسف لهذا وذاك لأنه ليس لديه شيء من التعليم، ومن ثَمّ لا يُقام له اعتبار.. لا يتناسب، مثلما ذكرت، أن أكون أمّا لأطفال ألمان، وذلك لأسباب مختلفة، أولا لإنني حسب المعيار الألماني غير متعلمة بشكل كاف، ولكنني لا يمكن أن أعتبر أن المدرسة يمكن أن تحقق كل النتائج المرجوة والمهمة للأطفال، ثانيا لا يمكن أن أكون مفيدة بأي حال لأطفالي في تعليمهم المدرسي إذ لم أتمكن من مساعدتهم بأي طريقة في أعمالهم المدرسية مثلما تعودت الأمهات الألمانيات



Twitter: @ketab_n

فعل ذلك. وهذا ما حدث فعلا فالولد لم يتقدم في المدرسة إلا بمشقة.

نصحتُ منذ أن كنا في دريسدن من قبل أصدقاء مخلصين أن أُلحق الصبي بالمدرسة العسكرية؛ لأنها، مثلما قالوا، تسهل كثيرًا أعباء التعليم، ولكنني لم أكن راضية عن هذه الفكرة، فبالنسبة للأمور المادية فقد كنت أفضّل أن نعيش أنا والأولاد معا ونأكل الخبز الجاف أكثر من أن أعيش حياة مريحة وسهلة من دونهم. آه، لا، ماذا أصنع بحياة مريحة من دونهم؟! فهم كلّ حياتي، وأما بالنسبة للتربية فأتوقع أنني قادرة، في حال وهبهم الله طبيعة تقية وطيبة، أن أفرغ من هذه المشكلة. ألم نُربَّ من قبل أمهاتنا ومعلماتنا، وصرنا نَدين لمبادئهن وآرائهن في النهاية بما أصبحنا عليه؟ أما بالنسبة للتواضع والأدب والتعامل مع الناس والمثل الأخلاقية وكل ما تحتاج إليه النفس الإنسانية فيمكن أن يكون لبيت الوالدين تأثير أكبر، حسب رأيي، من مدرسة كبيرة لا تُراعى فيها كثيرًا طبيعة الطفل، ويضاف إلى ذلك أيضًا الأمثلة السيئة جدًّا والكثيرة التي يمكن أن تُقلّد بشكل سهل جدًّا من قبل الأطفال، بسبب ضعف الشخصية الاستقلالية لدى الأطفال وضعف الوعي، وفي كثير من الحالات قد تؤدي في المراحل العمرية المتقدمة إلى الضياع. وقد تناقشت كثيرًا بما فيه الكفاية مع ضباط أظهروا بشكل قاطع رفضهم للتعليم في المدرسة العسكرية، وأيضًا لم أكن أتقبل بطبيعتي أن أُلحق الطفل بمثل هذه المدرسة الكبيرة التي نصحني بها كثير من الأصدقاء الطيبين، للأسباب التي سبق ذكرها.. آه



Twitter: @ketab_n

كان ذلك شديد المرارة؛ هل عليّ أن أقضم تفاحة الحضارة المتجردة من العواطف أم يتوجب عليّ أن أيأس في منتصف الطريق قبل أن أكمل العمل الشاق؟ لو كان هذا ممكنا لي لفعلته منذ مدة طويلة، ولكن كان يجب عليّ أن أتحمل للأسباب التي تعرفينها، وأتجافى عن النوم ليالي لا حصر لها، أثقلت أعصابي المنهارة بشدة، وهدّت روحي وجسدي، إلى أن استجمعت قُواي في النهاية وابتدأت بالخطوة الأولى. كتبتُ إلى القيصر فلهلم الأول راجية منه أن يقبل ابني في المدرسة العسكرية، تعزّيت لدى كتابتي للرسالة بفكرة أنني سأحصل ربما على رفض لطلب مقعد أو في أحسن الأحوال أن أنتظر سنة أو أكثر، ومن ثَمّ يمكن أن يظل الطفل بجانبي وقتا أكثر، كنت مطمئنة إلى هذا الاحتمال بحيث قمت بتجديد عقد إيجار الشقة لسنة أخرى، ولكن هذه المرة كانت حساباتي خاطئة، فما كادت تمرّ ثلاثة أسابيع حتى تلقيت إشعارًا رسميًا بأنّ القيصر النبيل فلهلم الأول قد أوصى بأن يُقبل سعيد في المدرسة العسكرية. وقد علمت سابقًا بصفة شخصية أن طلبي قد قُبِل من القيصر مباشرة، وأن سعيدًا سيُقبل في الأول من أكتوبر (١٨٨٢) في المدرسة العسكرية ببنسبيرج، وبسبب هذه الموافقة السريعة كنت غير مستعدة على الإطلاق، ولهذا كنت غير مسرورة بهذا الاستدعاء العاجل. نحن الآن في سبتمبر ويتوجب علينا، أن نفترق عما قريب، هذا الاستدعاء العاجل أثر في الصبي أيضًا، والذي لم يكن متحمسًا للحياة العسكرية ككلّ الصبية الألمان تقريبًا، فقد أصبح أكثر صمتًا يومًا بعد يوم وفقد شهيته للأكل تمامًا



Twitter: @ketab_n

دون مرض، هذا الحال ملأني بالحزن ولم أتمكن من أن أنظر إليه على الدوام براحة، وفي أحد الأيام سألته إن كان يريد فعلا أن ننتقل إلى كولونيا، حيث يمكن أن يزورنا مرّة على الأقل كل أربعة عشر يوما. آه كيف تهلّل وجهه في سعادة كبيرة، وقال لي غير مرة: «أرجوكم تعالوا، تعالوا نعم إلى نهر الراين»! ما الذي يجب عليّ أن أقوم به الآن؟ هل أتبع القلب أم العقل؟ كان هذا ليس سهلاً عليّ بتاتا. فكان من الواضح أنه ليس من المنطق أن أرحل إلى نهر الراين الآن، حيث إنني جدّدت قبل مدة قصيرة عقد إيجار الشقة لسنة أخرى، وأحيانًا كنت أتلقى طلابًا جددًا للدرس، ولكن الظرف الطارئ للصبي منذ أن تأكد ابتعاده عن البيت عما قريب، ومن جهة أخرى سعادته التي لا توصف بإمكانية انتقالنا، حتى أكون بجانبه.. أخذت هذه التجاذبات تلاحقني ليل نهار، ولم تتركني في راحة أبدًا. كان يمكنني الانتقال شريطة أن يأذن لي المؤجر بتأجير الشقة مرة أخرى، فلم أتوانَ في المحاولة في ذلك. نزل المؤجر الودود والكريم جدًّا عند رغبتي، الأمر الذي لا يحدث كثيرًا هنا في برلين للأسف، وقد كنت ممتنة له كثيرًا.. فقمت بالإعلان في الجرائد وكان من بين الذين أتوا لمعاينة الشقة امرأة بدا عليها شيء من التكبّر، فبعدما فحصت الغرف التي يراد تأجيرها فحصًا شاملاً دقيقًا، راق لها أن تمتحنني أيضًا، إذ لاحظت أنني كنت مستعجلة في تأجير الشقة وبالقيمة الأقل كذلك، وعن سؤالها لماذا أرغب في فعل ذلك، أخبرتها أنني أرغب في مغادرة برلين بعد أربعة عشر يومًا تقريبًا لأنتقل



Twitter: @ketab_n

إلى نهر الراين بالقرب من ابني الذي سيلتحق بالمدرسة العسكرية في الأول من أكتوبر، «إذن ابنك سيلتحق بالمدرسة العسكرية في أكتوبر؟!» تسألني بكل دهشة، -«كيف يكون ذلك؟ ومتى سجلته؟» قلتُ لها: «كان ذلك قبل بضعة أسابيع فقط» - «لا!» المرأة الأجنبية ذاهلةً: «ربما يكون زوجك ضابطًا كبيرًا؟!»، وعندما نفيت ذلك أخبرتني أنها أرملة لأحد الضباط، ومنذ سنة ونصف وهي تنتظر مقعدا لابنها في المدرسة العسكرية، وكان استغرابها أكثر؛ لأن القبول في العادة يكون فقط بداية السنة..

لحسن حظي أنني أستطعت أن أؤجر الشقة دون خسارة، ولأنني وُعِدت أن يُنقل سعيد إلى بوتسدام حالما يتوافر هناك مقعد شاغر رأيت من المستحسن أن أترك الأثاث في برلين وأن نأوي مع الفتاتين في كولونيا في غرفة مفروشة بسيطة. وتمكنت من حفظ الأثاث بلا مقابل عند أسرة صديقة، وكان هذا اللطف الكبير منها تسهيلًا عظيمًا عليّ.

وفي أثناء هذا الوقت كنت أعاني من وجع مستعصٍ في المفاصل، تعرضت له في شقة صيفية رطبة بسويسرا الساكسونية. فقد كنت أعاني منذ وفاة زوجي من اضطراب عصبي كان يهددني دائمًا بالقضاء على رمقي من الحياة، الذي كنت لا أزال أملكه وأحاول الإبقاء عليه لتحقيق راحة الأولاد. التغير في حياتنا المتواضعة الذي هو على وشك أن يقع، فقد كنت مجبرة بسبب الظروف أن أُحمل ولدي على فعل، لم أكن أرغب فيه قطعًا، أثر سلبًا على صحتي إلى درجة أنني لم


Twitter: @ketab_n

أستطع القيام بما هو ضروري إلا بمشقة كبيرة. ومع هذا الاختلال في الوضع المعيشي كان هناك من الأعمال الشيء الكثير بلا انقطاع، ولأنه كان لديّ خادمة وحيدة توجّب عليّ أن أقوم بما لا تطيقه صحتي، كنت أجلس أخيط الستائر المتهتكة وأغسل ملابس الأطفال الكثيرة حتى الثانية عشرة من منتصف الليل، حتى تتصلب أصابعي ويداي كثيرًا من ألم المفاصل، وفوق كل هذا فقدت صديقتي الحنون في دريسدن في هذا الوقت، فما أشد هذا الفقد عليّ، أعجز عن وصفه لك، ما أشد ما كنت أتوق إلى السفر إلى دريسدن لمرافقة صديقتي التي لا يمكن أن أنساها إلى مثواها الأخير، غير أن موعد سفرنا حان وكان لا بدّ لي من أن أستسلم للمحتوم بحزن عميق، وأن أوقف لهفتي للسفر إلى دريسدن لأربع وعشرين ساعة فقط. بفقدها فقدت الكثير، الكثير جدًّا، والذي لا يمكن أن يُعوض، ومن أين لي أن أعثر الآن على الحب الفيّاض والتفهم الذي غمرتني به هذه المرأة النادرة عشر سنين وأعانتني على الصبر على أعباء الحياة؟! من يفهمني الآن مثلما كانت تفهمني من أول وهلة؟ وقفت بجانبي في صراعاتي وتحدياتي الصعبة مثل أم ثانية حبيبة ومواسية.. بالتأكيد لا أحد؟ وهكذا أحسست بوحدة لا توصف بوفاتها - بفضل رأفة الله الكبيرة، لم أكن أفتقر إلى الأصدقاء الطيبين، ولكن لم يكن من بينهم أحد استطاع أن يحتل مكانتها في قلبي، مضى على وفاتها سنوات، ولكن حتى هذه الأيام عندما يصيبني شيء من السعادة أتذكر دائمًا كلامها الذي تعودت أن تقوله لي كثيرًا: «هناك في الأعلى حبيبتي سأصلي وأدعو من أجلك».. وهكذا بقيت في منتهى الحزن على فقد



Twitter: @ketab_n

أمي الرؤوم وأنا في القطار، في قاطرة الدرجة الثالثة، متجهين أنا والأولاد من برلين إلى كولونيا في نهاية سبتمبر (١٨٨٢). وعن طريق وصية ودّية من إحدى السيدات، أقمنا مؤقتا، ولكن لضيق ذات اليد أيضًا، في البداية في دويتس قبالة كولونيا عند أرملة لأحد الضباط، بدلا من أن ننزل مباشرة في أحد الفنادق. الأول من أكتوبرالذي يتوجب أن أوصل فيه سعيدًا إلى مدرسة بنسبرج العسكرية حلّ سريعًا علينا جميعًا، وهكذا صحبت سعيدًا في القطار في الصباح الباكر إلى هناك، وتركت البنتين عند مضيفتي في دويتس. جلسنا في هذا المشوار القصير صامتين فكلانا كان يشعر بمعنى اللحظات القادمة. كان لدينا مسافة لا بأس بها لنمشيها على الأقدام، حتى نصل إلى هدفنا، وعند كل خطوة كان قلبي يتصدع من القلق الداخلي الذي لا يوصف، حتى أوشكت أن أرجع بالولد.. في النهاية وصلنا عند الباب، وكان علينا أن ننتظر قليلاً، حتى يأتي إلينا الضابط الذي استدعي من قبل أحد الجنود، بدا الضابط رجلا ودودا وطيبا، وعرض عليّ أيضًا أن يعرفني على المدرسة، تبعناه في كل مكان، وكنت شاردة التفكير، وأركز بمشقة في شرحه، ربما كنت في وقت آخر سأستمع باهتمام أكبر إلى كل ما يقوله ويخبره بغاية اللطف، ولكن اليوم كنت أتمنى كثيرًا لو تُنقل المدرسة بأكملها فجأة إلى القطب الجنوبي ولا نستطيع الوصول إليها أنا وابني!.. الآن كان عليّ أن أذهب إلى قاعة الضيوف القريبة لأنتظر هناك نتيجة الفحص الذي خضع لها سعيد قبل أن يتم قبوله في المدرسة العسكرية، بعد ذلك تبعني سعيد إلى القاعة وأخبرني أنه سليم، ولله الحمد، ويمكن أن


Twitter: @ketab_n

يحضر في نفس اليوم في الساعة المحددة. تناولنا معا وجبتينا في الفندق في صمت من غير رغبة، لنرجع بعد قليل إلى المدرسة، وعندما وصلنا سلّمت الصبي لقائد السرية المسؤول الذي سيشرف عليه.

كان الوداع صعبًا علينا بشكل لا يوصف، ولم أستطع إلى اليوم أن أنسى النظرة الأخيرة التي رمقني بها، قرأت فيها كثيرًا من الألم الذي كان يبالغ في إخفائه. وبدا لي الطفل وكأنه قربان قدمته على مذبح الوفاء لزوجي الميت، أبيه. آه كم مرة تمنيت أن أعيش بعيدة عن الحياة الأوروبية المعقدة، حيث لا توجد شخصية الفرد إلا نادرا، كل شيء هنا كالآلة، والفرد ليس أكثر من مجرد رقم من بين الملايين. من كل مئة من السكان هناك ٩٥٪ منهم طموحون جدًّا، وويل لمن لا يلحق بهم، لأنه سيغرق ببساطة. وكل أحد منهم يجب عليه بشكل أو بآخر أن يتعلم كثيرًا، حتى يكون بشكل عام كفئًا وجديرًا، بغض النظر إن كان يرغب في ذلك أو كان يطيقه، فالكلّ تحت هذا النظام، ويكون تحت المراقبة الصارمة. كل أمة هنا تمثّل مدرسة كبيرة ومواطنوها يشكلون التلاميذ، بالطبع دون أن يُشعر بذلك، ومع ذلك فكلمة «الحرّية» في فم كل طفل. والذي لا يريد أن يظل طول حياته موزع صحف أو كانس شوارع أو مكسّر حجارة، فيجب عليه أن يتسلح هنا بالعلم بشكل مناسب حتى يكسب الاحترام. ولا يوجد استثناء لأطفال من أم عربية لا من المنظور الاجتماعي ولا القانوني، إذ ينطبق عليهم تمامًا ما ينطبق على باقي الأطفال الذين هم من أبوين ألمانيين ونشأوا على التقاليد الألمانية.



Twitter: @ketab_n

رجعت إلى دويتس، إلى ابنتيّ، بقلب منكسر.. حان الوقت الآن للتفكير في استئجار شقة في كولونيا وأن تذهب الفتاتان إلى المدرسة، فكوني أرملة لألماني وأعيش في ألمانيا فأنا ملزمة بالقانون أن أُلحق أطفالي في عمر محدد بالمدرسة، نُصحتُ بمدرسة ثانوية للبنات وكان عليها إقبال كبير ويديرها قسّ بروتستانتي، وهكذا ذهبت إلى هناك وسجلت ابنتيّ لفصل الشتاء، وبعد محاولات كثيرة من البحث، وبعد ذهاب وإياب في شوارع كولونيا غير الممهدة جيّدا، وجدت في النهاية نُزُلا متواضعا جدًّا في المدينة القديمة، ولكن بشرط أن نتناول الوجبات في غرفتنا وليس في صالة الطعام، حصلنا على غرفتين صغيرتين جدًّا، يطلق عليهما اسم المُلحق أو الغرف الخلفية، تطلان على فناء ضيق تَضِنّ عليه أشعة الشمس المباركة، ومن أجل ذلك كانت الغرف مظلمة حتى في الأيام المشمسة، ساورني شعور وكأني قد أُدخِلت في قبر، عليّ أن أظل فيه مؤقتا، لم يكن بمقدوري أن أحصل على غرفة في الفندق أحسن أثاثًا ومشمسة قليلًا؛ لأنها كانت لي عنبا حامضا، وفي المقابل كان المضيفان جيدين وودودين وسهلًا لي كل شيء كان بمقدورهما فعله. بعد أربعة عشر يوما، وكان يوم أحد، أتى سعيد إلى كولونيا ليقضي معنا اليوم، بالطبع كان يلبس الزيّ الرسمي، الذي بدا لي كبيرًا جدًّا عليه، وقد آلمني قلبي عندما رأيته بهذا الزيّ الجديد، ومن يومها أصبحت أكره اللباس العسكري.

كانت الأيام التي قضيتها في كولونيا في الغرفتين المظلمتين كئيبة



Twitter: @ketab_n

جدًّا، وكنت أحسب دائمًا الساعات حتى ترجع ابنتاي من المدرسة فقد كنت أحسّ في الغرفتين الضيقتين بضيق في الصدر، آه بضيق شديد حدّ الاختناق، وبحضورهما كنت أتناسى شيئًا من بؤسي، وعندما تذهبان إلى المدرسة كل صباح يصيبني شعور بالوحدة والوحشة لا يمكن وصفه، فقد كنت أحس كثيرًا وكأنني في سجن. وفي ظل هذه الظروف كان من المتوقع أن يتدهور وضعي الصحي أكثر، ولكن كنت أعاني بشكل أكبر من اضطراب الأعصاب كثيرًا، فنصحني الطبيب الذي ذهبت إليه للاستشارة بأن أغير الجوّ عاجلا، كان هذا سهلاً بالكلام، فإلى أين ينبغي لي أن أذهب في هذا الشتاء البارد، وأيضًا مع أطفالي الملتزمين بالمدارس؟ ولم يكن للكينين والبرومكالي، اللذين كان يجب عليّ أن أتناولهما بكميات غير معقولة، أية فائدة.

وبمرور فصل الشتاء دُعينا إلى حفلة مسائية أُقيمت من قبل طلاب المدرسة العسكرية في بينسبرج، فذهبت بصحبة الفتاتين وكنا سعداء برؤية سعيد مرة أخرى، حيث كان يمكنه أن يأتي إلينا فقط لبعض الوقت كلَّ أربعة عشر يوما، ولكن تأسفت على الولد في هذا المساء كثيرًا. كنتُ أراه قليلاً في بداية الحفلة التي كان مشاركًا فيها، ولكن لاحقًا لاحظت كم هو فاتر وهادئ في كل شيء، لاحظت شوقه الكبير إلى البيت وأنه لا يزال لم يتعود على الحياة العسكرية، ولكن لا يمكن للأسف الشديد تغيير أي شيء في الوقت الراهن، وكان يجب عليه أن يتحمل.

لو كان هناك شيء ما يمكن أن يواسيني هنا في كولونيا في



Twitter: @ketab_n

الغرفتين الجانبيتين المظلمتين لكان الزوجين الودودين كثيرًا واللذين سُعدت بمعرفتهما عن طريق توصية من أحد معارفي. ومثلما كان يُتاح لي، أن أجد أناسًا طيبين ونبلاء في طريقي، الذي لم يفرش أبدًا بالورد، حاولوا تسهيل حياتي قدر استطاعتهم، كان الأمر كذلك في هذه الحال أيضًا، وكنت مدينة لهذه الأسرة بالفضل كثيرًا، إذ قضيت في ضيافتها لحظات سعيدة شغلتني قليلاً عن التفكير في همي وبؤسي، آه لا شيء أشد على الإنسان من أن يتحمل مصائبه بعيدًا عن أهله، المصائب التي تأتي بها الأقدار، ومن أيدي الناس أحيانًا. فلا يُحس المرء بقيمة ما فقده في وطنه إلا في الغربة، ولأنني كنت أحسّ بحزن لا يوصف وأنني لا أكتب إلا ما أعانيه وأفكر فيه، فقد كانت مراسلاتي الكتابية صعبة دائمًا عليّ، الأمر الذي كان يدفع معارفي وأصدقائي إلى التشكي. ومن أجل ذلك دفنت نفسي في العزلة وكانت تنقضي أشهر أحيانًا قبل أن أقرر الرد على رسالة.. لا يتوق السجين إلى شيء آخر أكثر من حريته، مثلما أنا هنا، على الرغم من أنني حرّة أتحرك كما أريد مثل كل الناس الآخرين.. أفكاري تزداد تشاؤما في أنني لن أستطيع تحمل أعباء الحياة يومًا بعد يوم، وكان الموت هو الوحيد الذي سيحررني من بؤسي، ولم أكن أخاف منه أبدًا إلا عندما أفكر في أولادي الصغار الذين سيؤول بهم الحال إلى العيش مع أناس غرباء. هذا القلق، الذي لم يغادرني ليل نهار، كان يغذي سقمي، وفي ظل هذه الظروف بدا لي أن هذا الشتاء لا نهاية له. وعندما أتى الربيع تبعت نصيحة طبيبي وذهبت مع الفتاتين إلى سلسة الجبال القريبة من نهر الراين، أعجبتني الإقامة في الريف، ولكن لم



Twitter: @ketab_n

تظل للأسف كثيرًا، فقد أحسست فجأة بوهن حتى إنني لم أستطع أن أتحرّك على الإطلاق، آه لن أنسى أبدًا ذلك الهلع الذي بدا على ابنتيّ الصغيرتين، فلم يتمكن الطبيب المستدعى من تحسس نبض معصمي، ولم يجد إلا نبضا ضعيفًا في عنقي. توجب عليّ الآن، على كل حال، أن أقصد مصيفًا بحريًا منعشًا، حتى أتدارك ضعفي غير العادي هذا، لم يكن أمر الطبيب هذا مناسبا لي تمامًا، لأنه كان يعني لي إنفاقًا طارئًا وغير مرحب به. وكانت معاناتي الكبيرة أنني ليس بإمكاني على الإطلاق أن أقوم بهذه الرحلة الموصى بها مع الأطفال الثلاثة جميعهم، فالفتى الذي كان يبدو نحيفًا جدًا وبائسًا في المدرسة العسكرية كان يفترض أن يأتي في ذلك الوقت لإجازة الصيف. ومن الأولاد الثلاثة كلهم كان هو أكثرهم حاجة إلى الاستجمام، وبقلب كسير أخذته هو فقط، وتركت الفتاتين عند أسرة من معارفي في النزل.

وبسبب ظروفي المالية التي تجعلني أعيش وأتحرك في حدود معينة، وضعت لنفسي نظاما عند كل تسجيل للإقامة في الفنادق، وهو ألا أستعمل اسم الميلاد (الأميرة سالمة) حتى أتمكن من العيش في هدوء، وأوفر على نفسي كثيرًا من الفضول المزعج الكثير من قبل نزلاء الفندق، ولكن مثل هذه الأوقات لم تدم طويلاً للأسف؛ فمجرد سهو في عنوان الرسالة كان كافيا أن يجعل وضعي غير مريح مباشرة.. طلبت من الأصدقاء والمعارف أن يحذفوا اسم ميلادي في العنوان، حتى ولو لوقت قصير، حتى أتمكن من أن أتحرك في الصيف المنعش دون ملاحظة، وهنا في المكان النائي بالقرب من نهر


Twitter: @ketab_n

الراين كلفني عنوان لرسالة قد ذكر فيه اسم ميلادي شيئًا باهظًا، فقد مضى علينا تقريبًا أسبوعان إلى ثلاثة أسابيع في الفندق عندما تلقيت بعد الظهر رسالة عن طريق البريد، كان عنوانها يحمل كلمة كاشفة لاسم ميلادي، ولأن المضيف شخصيا هو من كان يوصل البريد إليّ، فبالطبع سيكون قد قرأ العنوان، ففي نفس المساء، بعد العشاء مباشرة، كان ينبغي لي أن أذوق نتيجة ذلك السهو في العنوان، إذ كتب لي المضيف رسالة مهذبة يعلمني فيها، وبكل بساطة، أنه سيقوم برفع قيمة الإيجار! هذه الطريقة غير اللبقة للابتزاز كانت مريبة قليلًا ولاسيما أن الفندق لا يزال شاغرًا تقريبًا، باستثناء زيارات الأحد أحيانًا، فالوقت لا يزال باكرًا جدًّا كي يأوي إلى الفندق نزلاء الصيف.

بعد انتهاء الرحلة البحرية الموصى بها رجعت إلى برلين ورجع سعيد إلى المؤسسة العسكرية، ولدى وصولي إلى العاصمة الألمانية وجب عليّ بشكل حتمي أن أعيد التسجيل لدى الشرطة الصارمة، وهذا ما حدث، ولكن من يصف غضبي عندما وقف أمام الباب صباحًا أحد رجال الشرطة وطلب الحديث إليّ شخصيًا: «هل أنت أميرة زنجبار؟» هكذا بدأ. وعندما أجبت متعجبة على سؤاله بنعم واصل في لهجة مدرسية: «لديك ثلاثة أطفال، أليس صحيحًا، ابنتان وابن؟» كنت أجيب على أسئلته التي لا أدري سببها دائمًا بـ «بنعم»، ثم قال لي: «الآن لماذا سجلت فقط الطفلتين دون الطفل لدى الشرطة، أين ابنك؟»!، تصوري ذلك! هنا لاحظت بما لا يدع مجالا للشك كم هي بعيدة الحرّية التي يُتغنى بها. أخذ الشرطي الحق بكل بساطة في التدخل في شوؤن الأسرة بلا مبرر تمامًا، قد يكون عدم


Twitter: @ketab_n

تمدني هو السبب أنني أرفض في داخلي مثل هذه الوصاية فسكان هذه البلاد لا يعيرون أدنى اهتمام لدهشتي من هذا الطريقة في التنبيه. مثل هذه الأسئلة يمكن أن توجه عندنا على الأكثر إلى العبد وليس إلى الحرّ، من الآن صرتُ لا أتعجب على الإطلاق عندما يأتي شرطي من وقت إلى آخر إلى شقتنا ليأخذ معلومات عن غذائنا وعن ملابسنا وعملنا وتعاملنا في البيت؛ ليراقب هذه الأشياء. تسلل إليّ بشكل لا إرادي شعور وكأني في مؤسسة صارمة وليس في بلد كبير، كل شيء مرتب ومنظم آليًا، والانحراف الأقل عن ذلك يستوجب عقابا، كل شيء يكون تحت القانون وفقرات بنود هذا الأخير تقريبًا كعدد حبات الرمل على البحر.

كانت شقتنا في برلين تقع في شارع بوتسدام بالقرب من الحديقة النباتية، وتحتوي على أربع غرف صغيرة جدًا، وإحدى الغرف كان فيها نافذتان، والثلاث الآخريات بنافذة واحدة فقط، الأبواب جميعها ضيقة، إلا أنها شقة مضيئة ولطيفة، فالشمس تطل علينا كل صباح وعصر، الأمر الذي كان يبعث فيّ السرور. عادت المياه إلى مجاريها، فالحياة أخذت مرة أخرى طريقها المعتاد، حيث تذهب الفتاتان إلى مدرستهما القديمة، وأقوم أنا، وفي أحيان كثيرة بالاستعانة بخادمة الصباح، مثلما تسمى، التي تأتي إلينا قبل الظهر لبضع ساعات، بالالتزامات المنزلية مثل الطبخ وإضاءة المصابيح وتنظيف الأثاث من الغبار والخياطة والرتق. وعندما كنت أذهب بعد الظهيرة إلى المدرسة كان يتوجب عليّ أن أغلق باب الشقة وآخذ



Twitter: @ketab_n

المفتاح معي، وعندما كنت أرجع إلى البيت كان يبدو لي في كل مرة موحشا، فأبحث تحت الأَسِرّة والأرائك إن كان قد تسلل في الشقة الفارغة في أثناء غيابنا ضيف غير مرغوب فيه، الأمر الذي لم يكن أمرًا نادرًا على الإطلاق في المدينة الكبيرة مثل برلين.. وبهدوء وانعزال عشت تمامًا من أجل الأولاد فقط، ومن دونهم لم يكن لي أن أحس بالراحة، وهكذا كنا نُدعى دائمًا معا، فالناس كانوا يعلمون أنني لا أحبّ أن أخرج من دونهم. وكان خروجهم من البيت وحدهم يبعث فيّ قلقًا كبيرًا؛ لأن عبور الشوارع المزدحمة كان يشكل لي دائمًا مصدر قلق مستمر.



Twitter: @ketab_n

# ملحق بالوثائق والصور

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

## رسائل سالمة إلى صديق العائلة المستشرق الهولندي البروفيسور سنوك هُرْخرونيه

### * الرسالة الأولى:

زنجبار، ٧ سبتمبر ١٨٨٨

حضرة الدكتور المحترم،

خالص الشكر لك على أسطرك اللطيفة بتاريخ ١٧ يوليو التي بعثتها إليّ طوني إلى هنا. وإن عدم سماعك شيئًا عنّا إلى الآن هو بسبب الظروف أحيانًا التي نعيشها هنا. فنحن هنا منذ منتصف مايو وحتى الآن بالكاد استطعنا أن ننجز شيئًا.

السلطان الحالي هو إنسانيّ ولكن هناك تأثيرات أخرى عليه، أثارت استياءه منّا، ونحن الاثنتين، في قضيتنا لا نزال على نفس الحال من يوم مجيئنا. والسكان معنا مثل السابق، ودودون للغاية. أما على مستوى الطبقة العليا فإننا نكسب أصدقاء أكثر يومًا بعد يوم. ولذلك فيوم مغادرتنا من هنا لا يزال غير محدّد.

أنا سعيدة جدًّا بعملك الجديد «مكة»، وأشكرك كثيرًا مقدما عليه.



Twitter: @ketab_n

وأرجو التكرم بإرسال الكتاب إلى ابنتي طوني على العنوان: هامبورج، أولن هورست، شارع باسن ٩.

الدكتور الطبري الذي تعرفت عليه في برلين ليس مشتغلا باللغة العربية وإنما هو صحفي مختص بالمجتمع الأفريقي، وحسبما أعرف، فإن والديه يسكنان في جودنسبرج a/Rh.

ما أخبار حضرة الدكتور أندرياس وزوجته؟

نيتك في المجيء إلى يافا، لا يسعني إلا أن أوافقك عليها. فالجو هناك ساحر.

كل الرسائل المعنونة عن طريق هامبورج إلى طوني تصلني دائمًا.

تحية طيبة من أسرتي إلى أسرتك.

مخلصتكم إميلي رويته

* * *



Twitter: @ketab_n

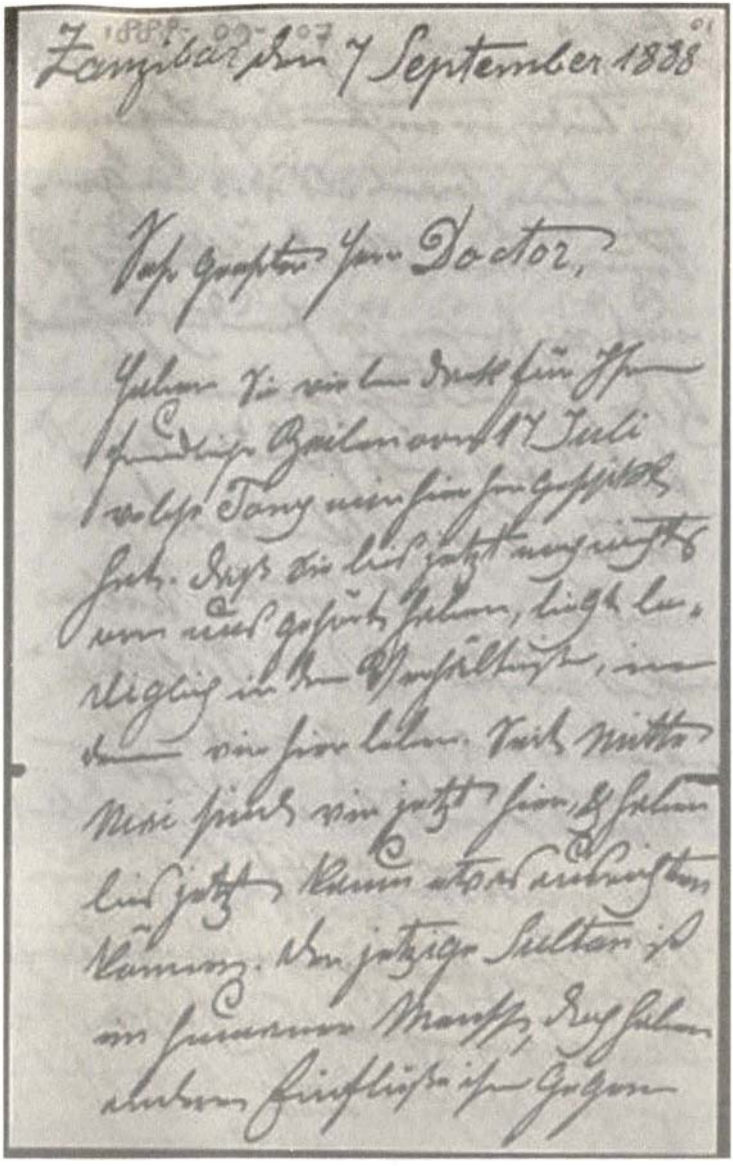

الصفحة الأولى من المخطوط



Twitter: @ketab_n

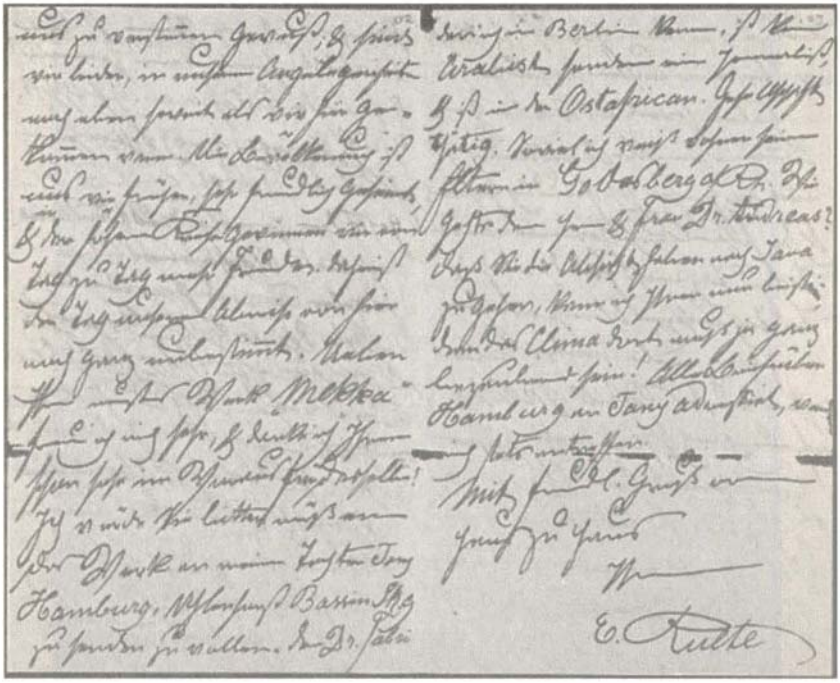

الصفحة الثانية من المخطوط



Twitter: @ketab_n

*** الرسالة الثانية:**

يافا ٢ أبريل ١٨٨٩

حضرة الدكتور المحترم،

تلقيت رسالتك اللطيفة المؤرخة بتاريخ ١٧ مارس، وأنا سعيدة كثيرًا أنك على خير حال والحمد لله. ونحن كذلك على خير حال.

لم تحصل ابنتي طوني على الكتاب في أنتويرب؛ لأنها وصلت بالسلامة إلى يافا منذ بضعة أيام. ولكن أرجو أن يرسله إلينا وكيل شركة Norddeutsch LIoyd. والكتاب الأول أيضًا ما زلت لم أقرأه؛ لأنه في أثاثنا الذي نرجو أن يصل إلينا في الأيام القادمة، ولأجل ذلك للأسف لا يمكنني أن أكتب إليك شيئًا حوله. ولكن قراءة العمل ستكون مهمة جدًا، هذا ما أتصوره فعلا، فلك خالص شكري عليه حضرة الدكتور.

سأخبرك عنّا وعن إقامتنا في يافا، أنت تعلم أنني قبل سنة قد سافرت إلى زنجبار برفقة روزا وحدها على أمل الحصول على مطالبي القديمة بعد موت برغش. ظللت ستة أشهر في زنجبار، فعلت كل ما يمكنني فعله ولكن للأسف لم أحصل على شيء هذه المرة أيضًا؛ فأقاربي أصروا على رجوعي إلى الإسلام، الشيء الذي لم أكن أستطيع فعله، وكان بقائي على حساب مشاعري، وهكذا غادرت زنجبار في نوفمبر ووصلت إلى يافا في ديسمبر، حيث أعجبتنا واخترنا أن نقيم فيها طويلاً. يروق لنا الجو والأوضاع كثيرًا، ولذلك نأمل في الوقت الحالي أن نظل هنا. مدينة يافا في الواقع قبيحة ولكن



Twitter: @ketab_n

ما حولها أكثر جمالا. استأجرنا لأنفسنا منزلاً لطيفًا فيه حديقة خارج المدينة يطلّ على البحر ومزارع البرتقال. وسيكون بالغ سرورنا حضرة الدكتور، إن شاء الله، أن تزورنا هنا في يافا في رحلة عودتكم السعيدة. يجب أن تعدنا بذلك.

وإلى ذلك الحين آمل أن تكون ابنتاي قد تعلمتا العربية بحيث نستطيع كلنا التحادث بالعربية، أرفقت لكم صورًا لأطفالي وأشكرك جزيلاً أيضًا على صورك. سيصبح سعيد إن شاء الله ضابطًا في صيف هذه السنة وسيظل في ألمانيا. سيكون هذا الفراق صعبًا عليّ، مثلما يمكنك أن تتخيل، ولذلك أدرك الآن جدًا كم كان صعبًا توديع الأم عند رحيلها، [ما شيء شقاء في الدنيا مثل شقاء الوالدات، أبدًا، أبدًا].

أسأل الله أن يرجعك إلى أسرتك سالما معافى. وأتمنى لك حياة هانئة، وتحياتي الطيبة لك.

مخلصتكم إميلي رويته

روزا تبعث لك تحياتها.

* * *



Twitter: @ketab_n

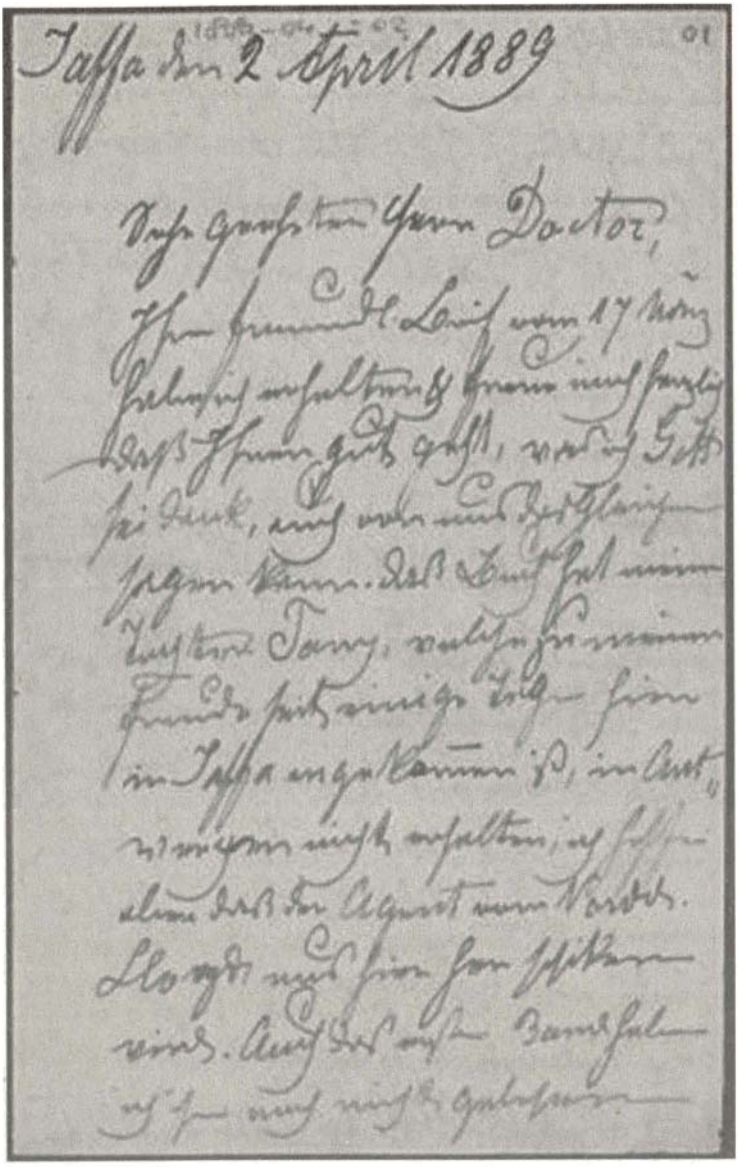

الصفحة الأولى من المخطوط



Twitter: @ketab_n

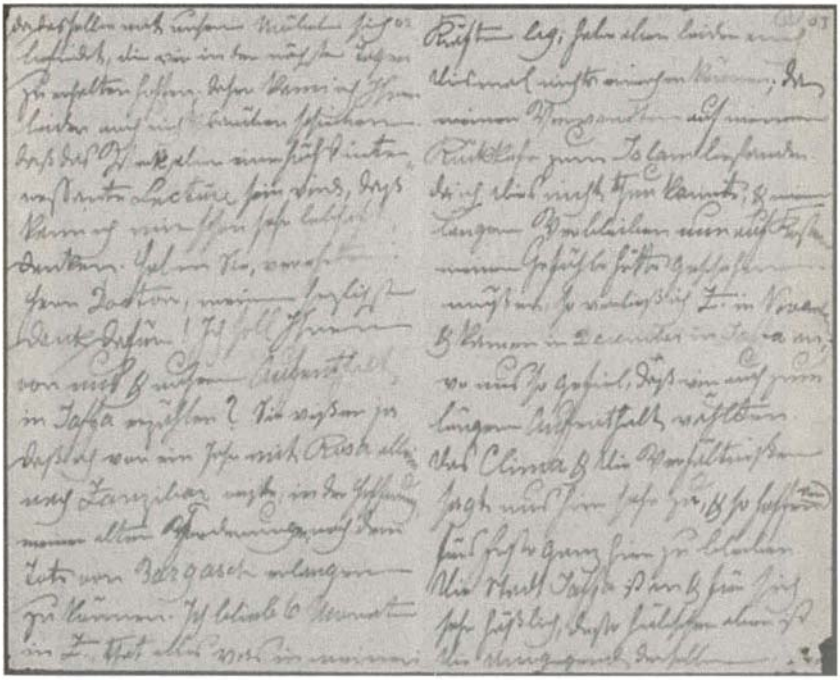

**الصفحة الثانية من المخطوط**



Twitter: @ketab_n

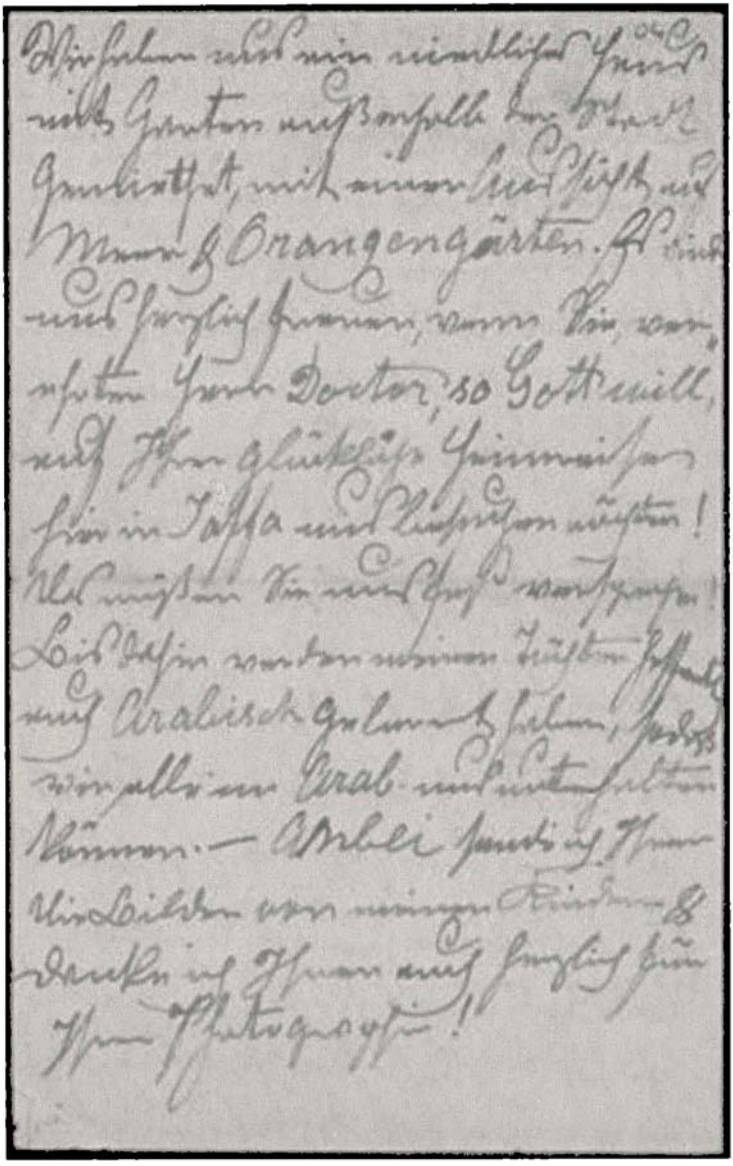

الصفحة الثالثة من المخطوط



Twitter: @ketab_n

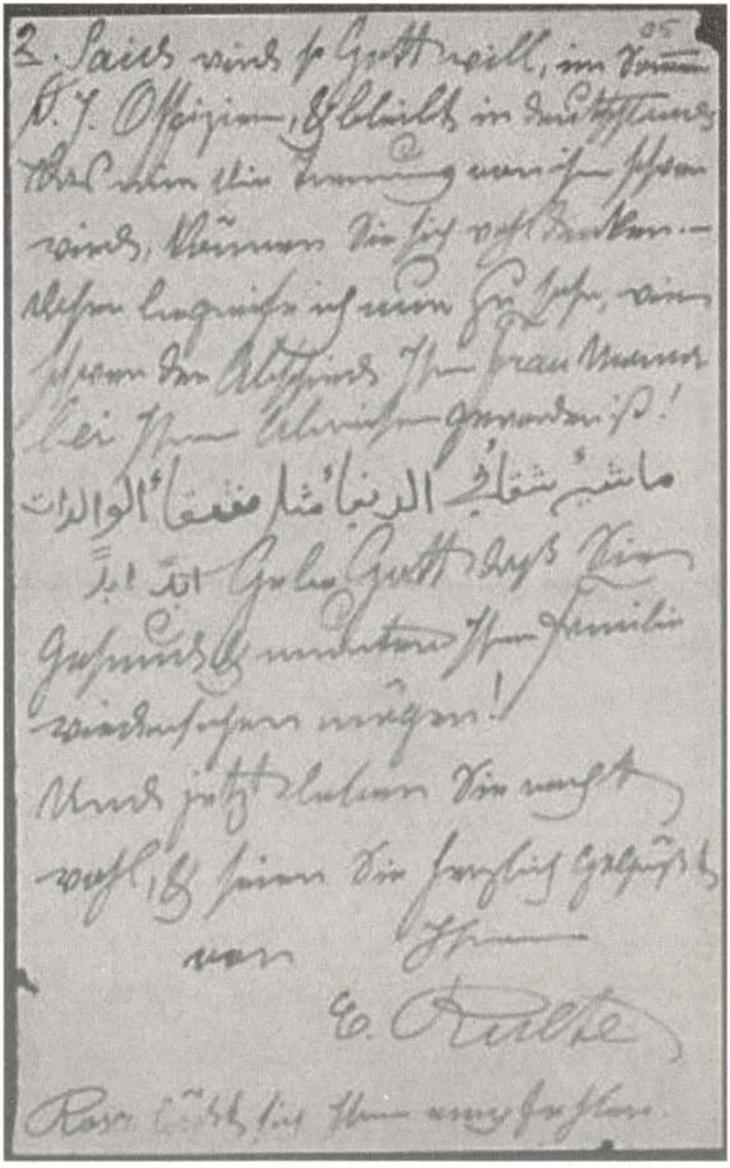

الصفحة الرابعة من المخطوط



Twitter: @ketab_n

*** الرسالة الثالثة:**

بيروت ١٩ يناير ١٩١٢

حضرة البروفيسور المحترم،

لطف كبير منك أنك لا تزال تتذكرني، ولك وافر الشكر على تمنياتك الطيبة التي أبادلك إياها.

أنا في خير حال هنا في بيروت تحت أشجار النخيل وأشعة الشمس، والحمد لله أنا أيضًا سعيدة هنا.

ببالغ الأسف لا يمكن أن أحقق رغبتك الثانية؛ لأنني منذ سنين لم ألتقط صورًا لي.

مع أطيب تحية لكم ولحرمكم المصون أيضًا.

مخلصتكم إميلي رويته

* * *



Twitter: @ketab_n

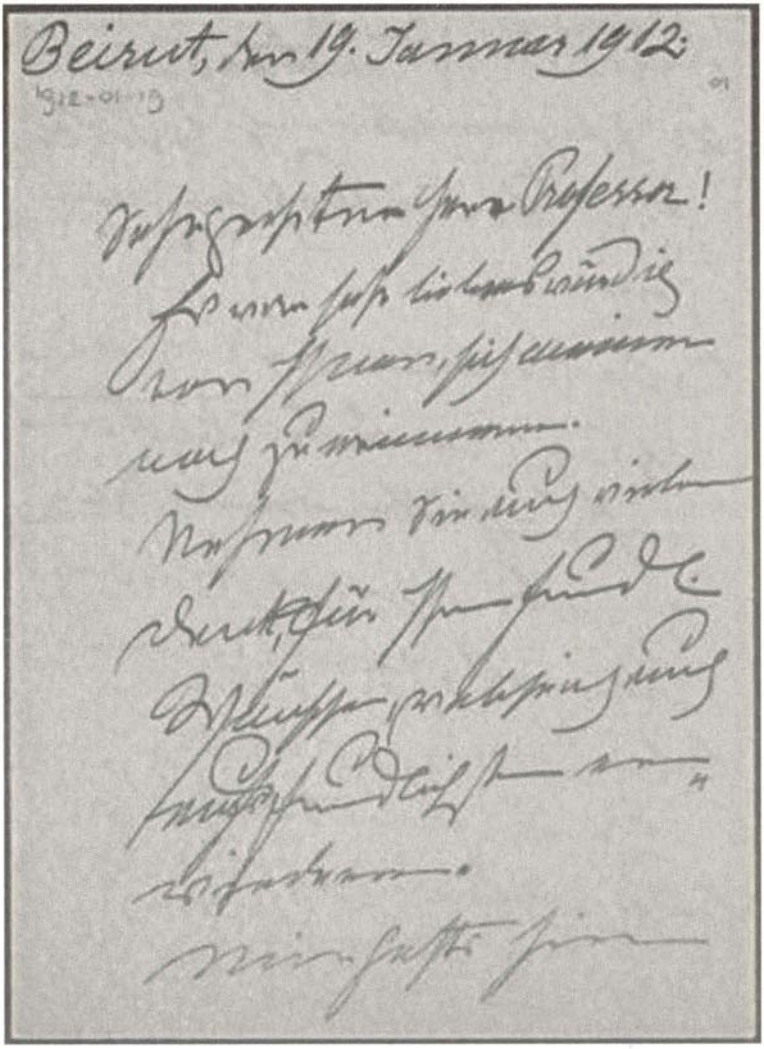

Beirut, den 19. Januar 1912.
1912-01-19

Hochgeehrter Herr Professor!

الصفحة الأولى من المخطوط



Twitter: @ketab_n

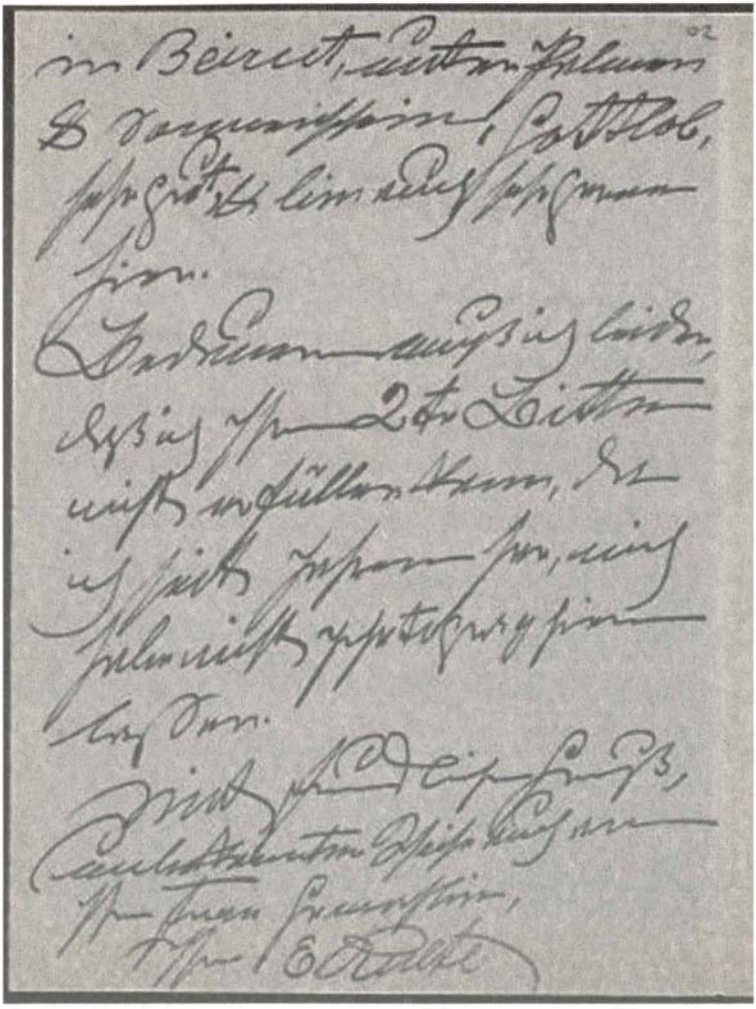

الصفحة الثانية من المخطوط



Twitter: @ketab_n

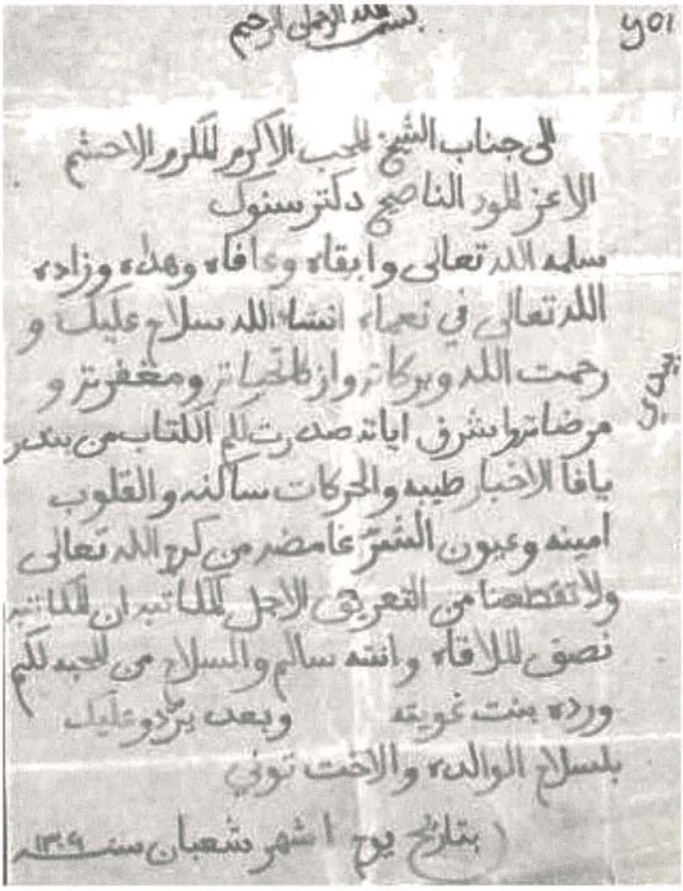

بسم الله الرحمن الرحيم

الى جناب الشيخ المحب الاكرم المكرم الاحشم
الاعز المور الناصح دكتر سنوك
سلمه الله تعالى وابقاه وعافاه وهداه وزاده
الله تعالى في نعماه انشا الله سلام عليك و
رحمت الله وبركات واز المحيات ومغفرة و
مرضات واشرف اياته صدرت لكم الكتاب من بتعو
يافا الاخبار طيبه والحركات سالنه والقلوب
امينه وعيون الشمس غامضه من كرم الله تعالى
ولا تقطعنا من التعريف الاجل لما تبر ان لما تبر
نصق للاقاه وانتم سالم والسلام من المحبه لكم
ورده بنت نخويته وبعد ما يردو عليك
بالسلام الوالده والاخت توني
بتاريخ يوم ١ شهر شعبان سنه ١٣٠٩

**رسالة ابنة سالمة روزا بالعربية**
**إلى المستشرق الهولندي سنوك هُرْخرونيه**



Twitter: @ketab_n

## رسالة ابنة السيدة سالمة عام ١٨٨٥
## أثناء الرحلة الأولى إلى زنجبار

زنجبار، ٢٧ أغسطس ١٨٨٥

حضرة السيدة العزيزة،

كم ستكون دهشتك وذهولك حينما تتلقين رسالتنا هذه ونحن هنا في زنجبار. نعم، للأسف لم نتمكن من إخبار أحد برحلتنا. فقد كان كل شيء في منتهى السرية، ومع ذلك علمنا أنه يجري الحديث عنها الآن في برلين. لا تتصورين كيف كان شديدًا على أمي أن تكتم عنك أمر الرحلة المزمعة كونك مقربة وعزيزة علينا.

غادرنا برلين في الأول من يوليو، ومن فيينا إلى تريست ثم إلى الإسكندرية وصولا إلى ميناء بورسعيد بسلام، وهناك أعدت لاستقبالنا باخرة مستأجرة (Adler) من قبل الحكومة.

وصلنا إلى ميناء زنجبار يوم ١٢ من أغسطس، حيث حشد هناك أسطول من ست سفن حربية وقاربين ملحقين، وكان الميناء مكتظًا بالحركة، تم نقلنا إلى السفن الأخرى، وكنا نقوم في الليل بنزه قصيرة عبر قوارب تجديف وأشياء من هذا القبيل ...



Twitter: @ketab_n

كدت أنسى أن أسأل عن أحوالك وأحوال أمك، أرجو أن تكونوا وجميع الأصدقاء بخير. أما عنا فليس هناك إلى حد الآن ما يمكنني أن أفيدك به، فالمفاوضات مع السلطان لا تزال قائمة.

لقد تكيّفنا جيدًا مع المناخ فالطقس هنا حاليًا بارد. وعندما كنا في البحر الأحمر أصيب سعيد بحمى خفيفة نظرًا لفظاعة الحرارة.

آمل أن أخبرك في القريب العاجل أكثر عنا. عليّ أن أكتفي بهذا لليوم، فما زال لدي مراسلات كثيرة جدًّا عليّ القيام بها. وأرجو المعذرة على رداءة الخط.

مع أطيب التحيات لك من أمي

مخلصتك

روزا رويته

---

كتب في أصل الرسالة على الهامش الأيسر من الصفحة الثانية ما نصّه:

يرجى وضع رسائلك في ظرف جيد ومعنونة إلى السيد يوستوس، ساحل زنجبار



Twitter: @ketab_n

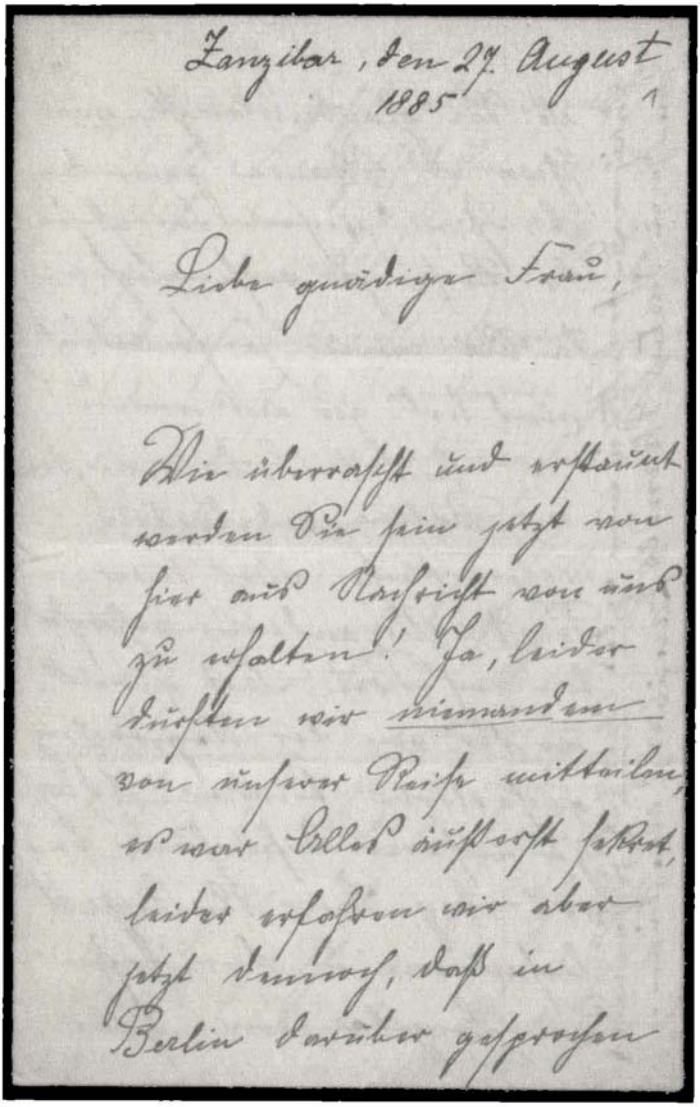

Zanzibar, den 27. August 1885 1

Liebe gnädige Frau,

Wie überrascht und erstaunt werden Sie sein jetzt von hier aus Nachricht von uns zu erhalten! Ja, leider durften wir niemandem von unserer Reise mitteilen, es war Alles äußerst sekret, leider erfahren wir aber jetzt dennoch, daß in Berlin darüber gesprochen

الصفحة الأولى من المخطوط



Twitter: @ketab_n

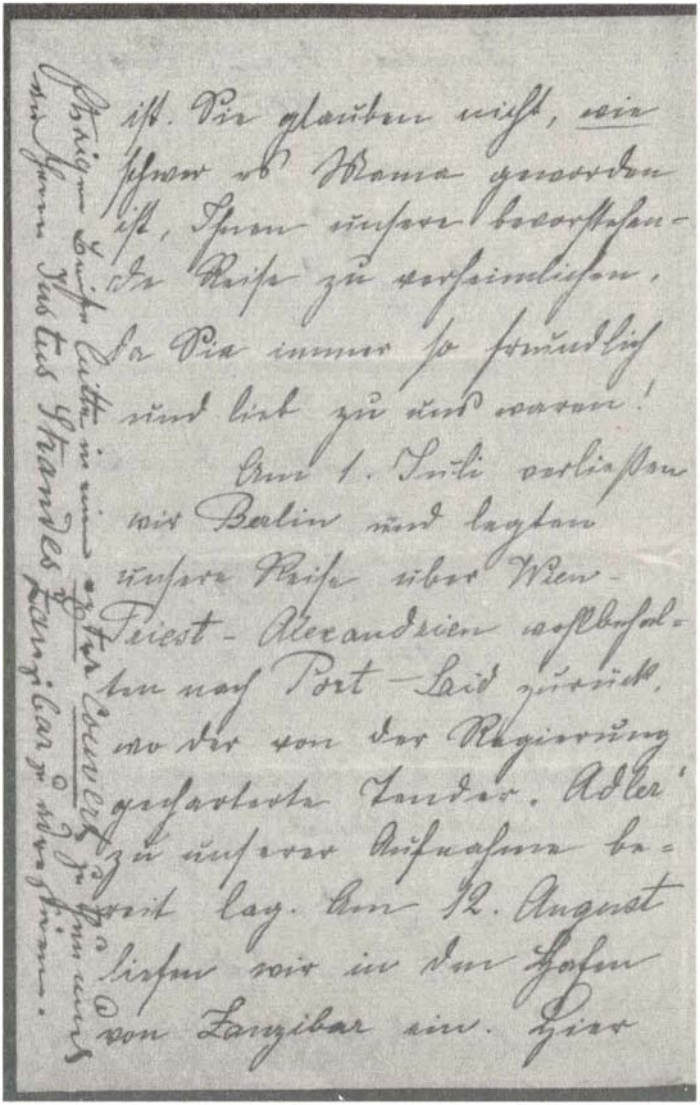

الصفحة الثانية من المخطوط



Twitter: @ketab_n

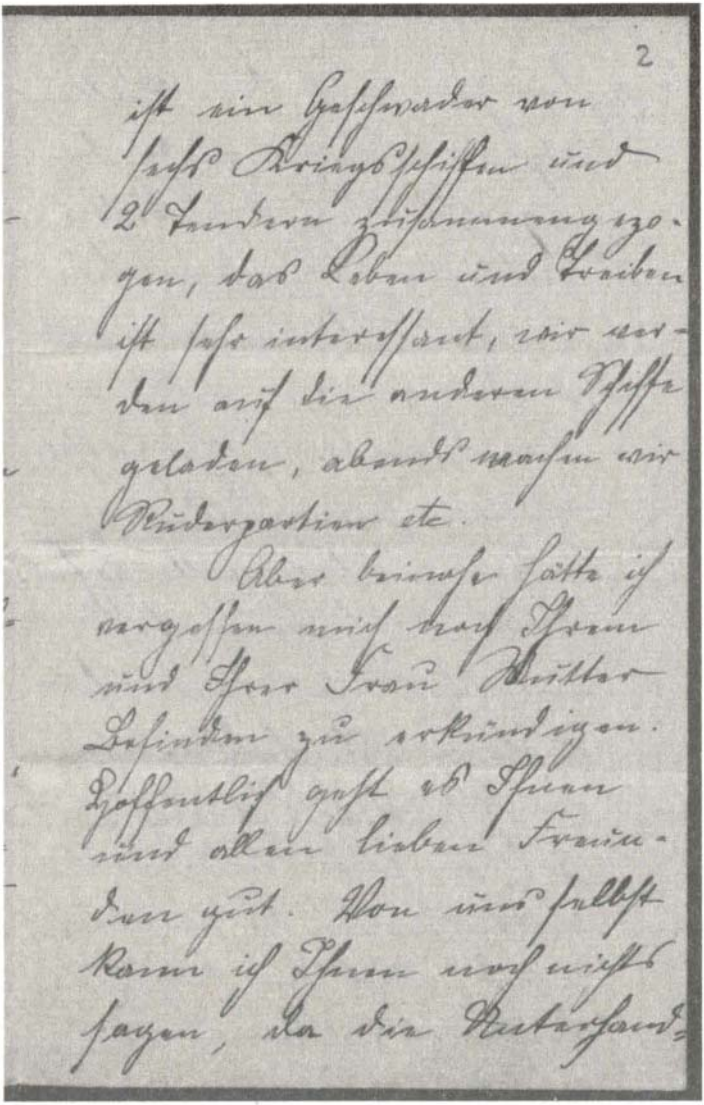

الصفحة الثالثة من المخطوط



Twitter: @ketab_n

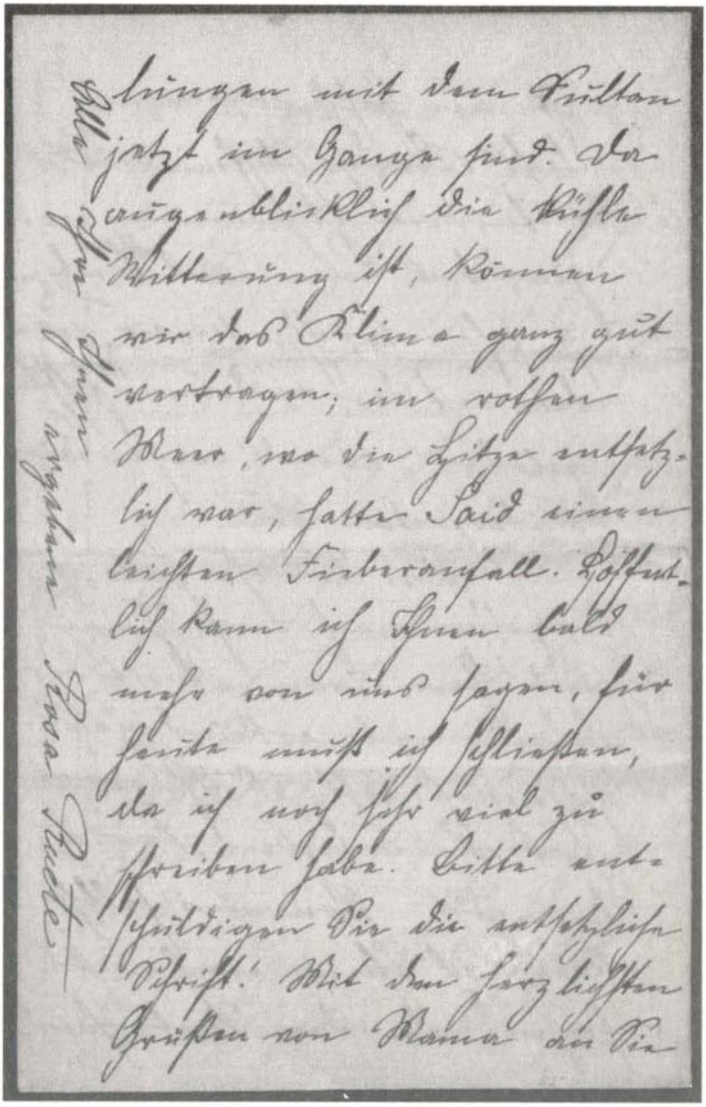

الصفحة الرابعة من المخطوط



Twitter: @ketab_n

## رسالة سالمة إلى سعيد وأنطوني،
## بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٨٨٨
## من زنجبار أثناء رحلتها الثانية

زنجبار، ٢٢ أكتوبر ١٨٨٨

أبنائي الأحبة،

هذه الرسالة الأخيرة على الأرجح التي سأكتبها إليكم من وطني الحبيب، فطلبي وتوسلي للقيصر فيلهلم لم يلق اهتمامًا، ولذلك لم يبق إلا أن أغادر الجزيرة في ٣ من نوفمبر، والتي قدمت إليها في ١٤ من مايو بأمل كبير، والآن سنخلف كل شيء وراءنا [....]

ستصل السفينة إلى بور سعيد وسأبعث إليكم برسالة من هناك.

والآن أستودعكم الله

مع خالص الحب والمودة

أمكم

تحياتي القلبية إلى هيلين وباقي الأهل



Twitter: @ketab_n

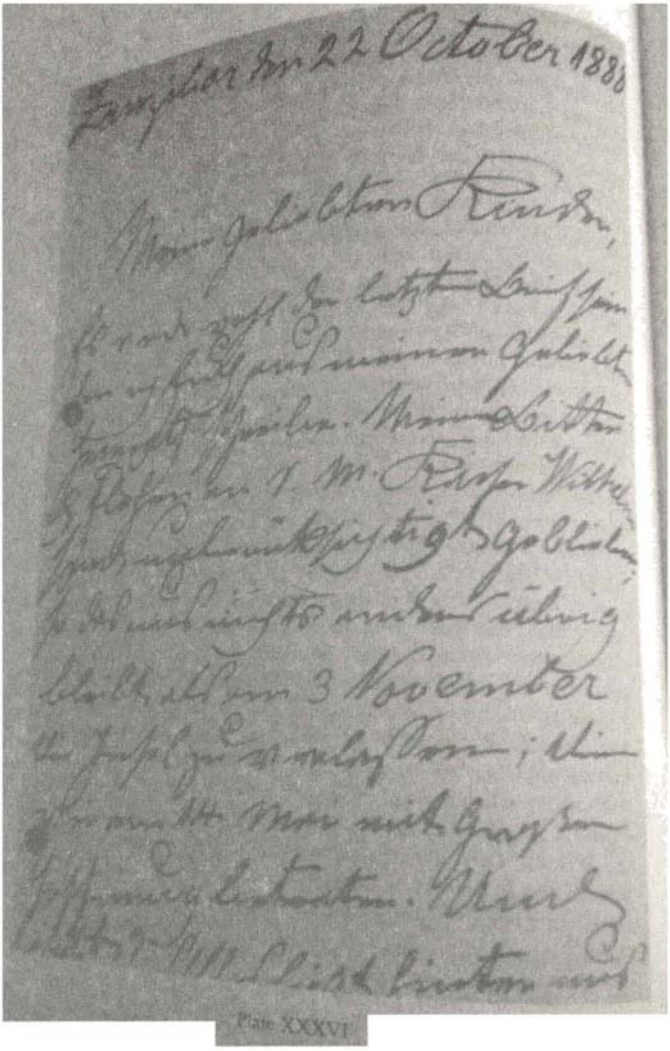


**الصفحة الأولى من المخطوط**



Twitter: @ketab_n

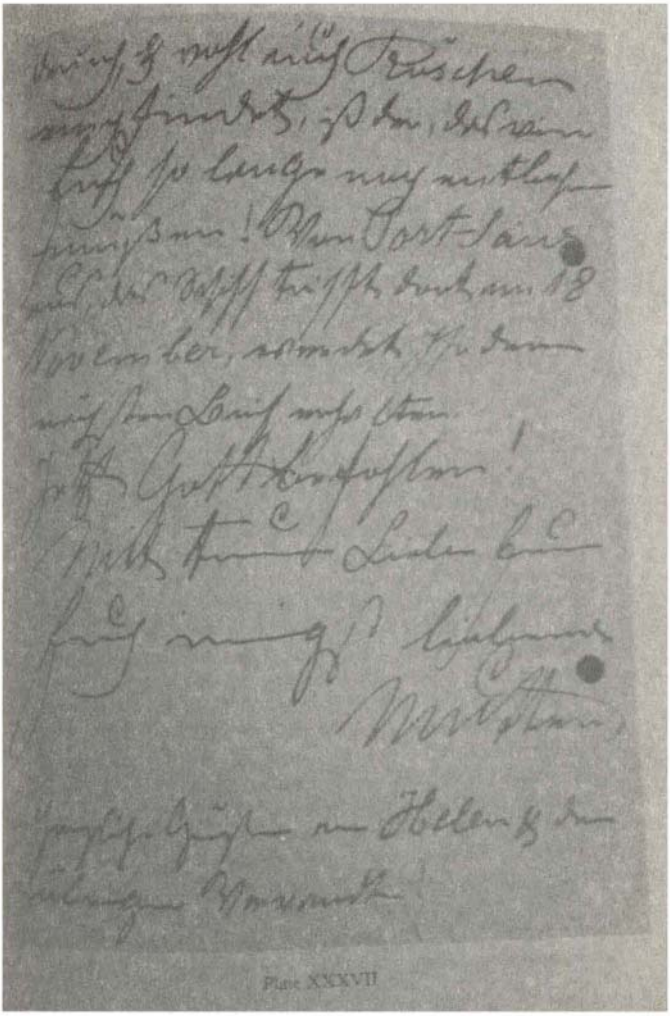


**الصفحة الثانية من المخطوط**



Twitter: @ketab_n

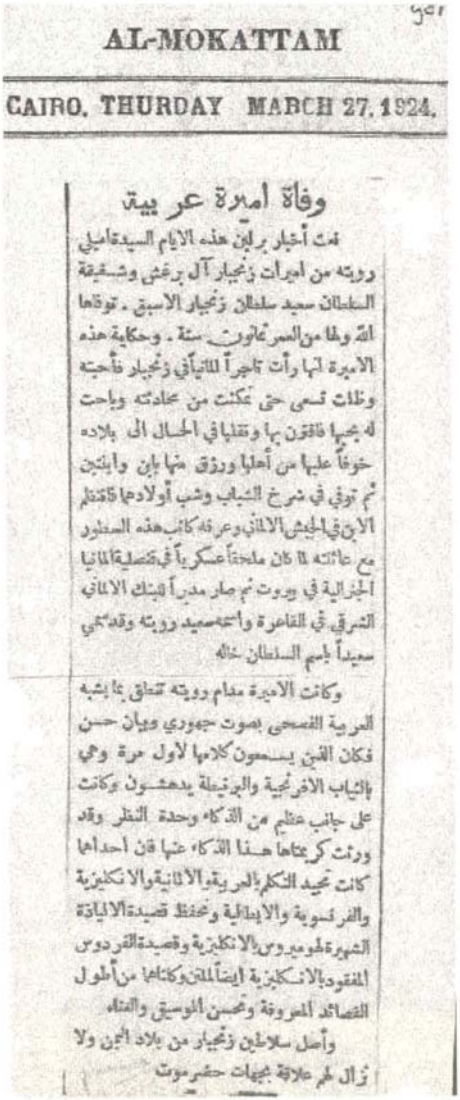

AL-MOKATTAM

CAIRO. THURDAY MARCH 27. 1924.

## وفاة أميرة عربية

تلت أخبار براين هذه الايام السيدة اميلي رويته من اميرات زنجبار آل برغش وشقيقة السلطان سعيد سلطان زنجبار الاسبق . توفاها الله ولها من العمر ثمانون سنة . وحكاية هذه الاميرة انها رأت تاجراً المانياً في زنجبار فأحبته وظلت تسعى حتى تمكنت من محادثته وباحت له بحبها فاقتنع بها وتقلبا في الحال الى بلاده خوفاً عليها من أهلها ورزق منها بابن وابنتين ثم توفي في شرخ الشباب وشب أولادهما فانتظم الابن في الجيش الالماني وعرف كاتب هذه السطور مع عائلته لما كان ملحقاً عسكرياً في قنصلية المانيا الجزالية في بيروت ثم صار مديراً لبنك الالماني الشرقي في القاهرة واسمه سعيد رويته وقد سمي سعيداً باسم السلطان خاله

وكانت الاميرة مدام رويته تتطق بالعربية الفصحى بصوت جهوري وبيان حسن فكان الذين يسمعون كلامها لاول مرة وهي بالثياب الافرنجية والبرنيطة يدهشون وكانت على جانب عظيم من الذكاء وحدة النظر وقد ورثت كريمتاها هذا الذكاء عنها فان احداهما كانت تجيد التكلم بالعربية والالمانية والانكليزية والفرنسوية والايطالية وتحفظ قصيدة الالياذة الشهيرة لهوميروس بالانكليزية وقصيدة الفردوس المفقود بالانكليزية ايضاً لملتن وكانتا من أطول القصائد المعروفة وتحسن الموسيقى والغناء

وأصل سلاطين زنجبار من بلاد العجم ولا زال لهم علاقة بجهات حضرموت

خبر نعي سالمة في جريدة المقطم المصرية



Twitter: @ketab_n

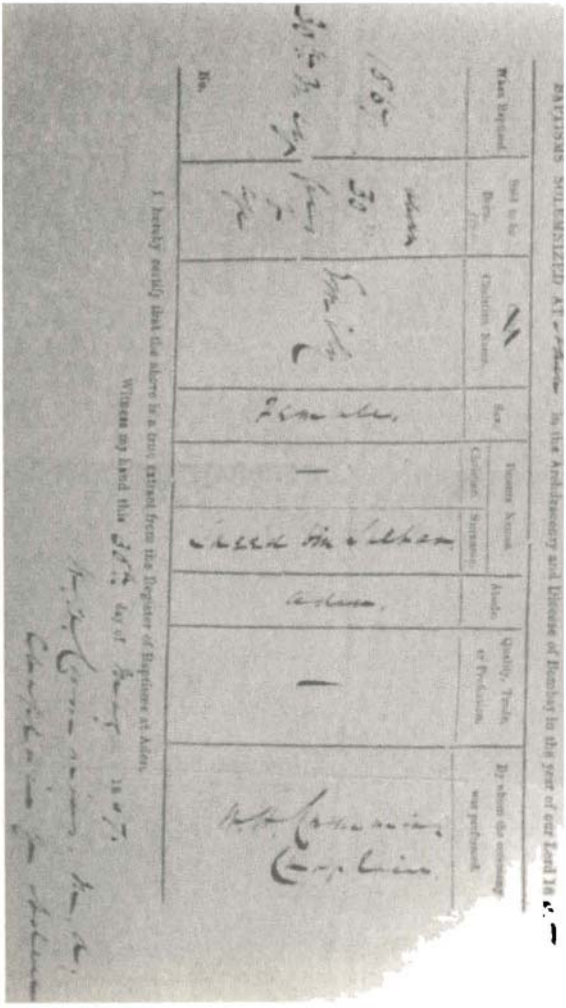

وثيقة تعميد سالمة، عدن ٣٠ مايو ١٨٦٧



Twitter: @ketab_n

سالمة بالملابس الأوروبية، هامبورغ ١٨٦٨



Twitter: @ketab_n

سالمة بالملابس الشرقية، هامبورغ ١٨٦٨



Twitter: @ketab_n

سالمة مع سعيد، وفريدرك مع أنطوني، هامبورغ ١٨٧٠



Twitter: @ketab_n

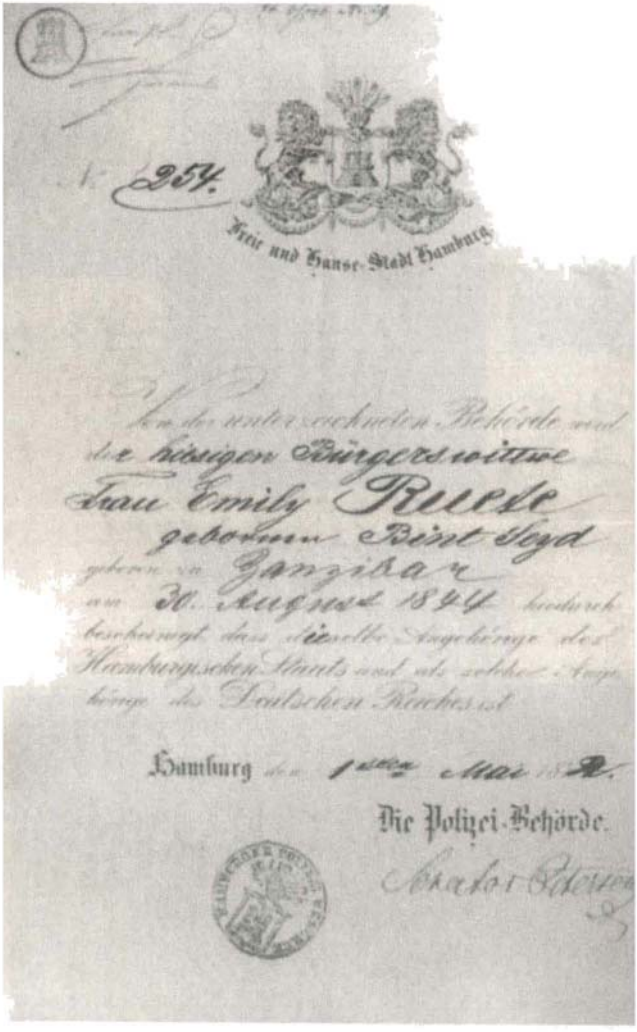

N° 254.

Freie und Hanse-Stadt Hamburg

Von der unterzeichneten Behörde wird der hiesigen Bürgerswittwe Frau Emily Ruete geborene Bint Seyd geboren zu Zanzibar am 30. August 1844 hiedurch bescheinigt dass dieselbe Angehörige des Hamburgischen Staats und als solche Angehörige des Deutschen Reiches ist.

Hamburg den 1sten Mai 1872.

Die Polizei-Behörde.

وثيقة المواطنة الألمانية لسالمة، ١٨٧٢



Twitter: @ketab_n

سالمة في برلين ١٩١٥

سالمة مع ابنتها روزا وحفيدتين لها في بيروت



Twitter: @ketab_n

قبر سالمة، مقبرة أولسدورف بهامبورغ

غلاف الكتاب الألماني
رسائل إلى الوطن

سعيد رويته ١٩٣٨



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الفهرس


الإهداء ..... ٥

مقدمة المترجم ..... ٧

**رسائل إلى الوطن** ..... ١٥

مقدمة ..... ١٧

من البحر الأحمر إلى بحر الشمال ..... ١٩

بين الإسلام والمسيحية ..... ٢٤

عالم غريب جديد ..... ٢٧

منزل على بحيرة الألستر ..... ٣٢

عادات هامبورج ..... ٣٨

شتاء كئيب ..... ٤٤

قيود الحفلة ..... ٥١

أعياد الميلاد في ألمانيا ..... ٥٩

الأسرة ملاذًا ..... ٦٧

الحرب بين ألمانيا وفرنسا ..... ٧٣




Twitter: @ketab_n

فاجعة ..... ٧٧
بين الأمل واليأس ..... ٨٤
ألم الفراق ..... ٩١
صراع المشاعر ..... ٩٦
اضطراب نفسي وعوز مادي ..... ١٠١
زيارة من زنجبار ..... ١٠٧
تغيّر الحياة ..... ١١٣
وداع هامبورج ..... ١١٨
بداية صعبة في دريسدن ..... ١٢٦
مساعدون لطفاء ..... ١٣٣
تركة الزوج ..... ١٤٠
من دريسدن إلى رودولشتات ..... ١٤٦
قلق الأم ..... ١٥٢
الريف الألماني ..... ١٦١
في عاصمة الإمبراطورية ..... ١٦٥
حياة من أجل الأولاد ..... ١٧٤
**ملحق بالوثائق والصور** ..... ١٨٩



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# هذا الكتاب

تتناول الرسائل تفاصيل حياة سالمة منذ لحظة انطلاق رحلتها من عدن إلى ألمانيا عبر البحر الأحمر حتى منتصف الثمانينيات تقريبًا واستقرارها في العاصمة الألمانية برلين. وقد وجّهت سالمة رسائلها إلى إحدى صديقاتها في زنجبار، وربما تكون شخصية وهمية على الأرجح، ولم يكن النص على الشكل المعهود للرسائل فقد خلا من ذكر اسم المرسل إليه والعنوان.. وكان سردا متدفقا بلا انقطاع. أظهرت الرسائل المعاناة الصعبة والواقع الأليم للأميرة من خلال ثلاثة مشاهد رئيسية، المشهد الأول ما قبل الفاجعة، والمشهد المركزي الفاجعة، والمشهد الأخير ما بعد الفاجعة، وقد خيم على جميع المشاهد بلا استثناء، مع تفاوت بالطبع، جو الحزن والألم ومرارة الغربة والحنين إلى الوطن والاغتراب الروحي..

ISBN 978-9933352004